

إريك هوبسبوم

القرن الجديد

(محاورات مع أنطونيو بولينو)

المشروع القومى للترجمة

942

ترجمة: وجيه سمعان عبد المسيح



هذا الكتاب محاولة جادة للمساهمة في
جعل المستقبل أكثر إشراقاً من الماضي حيث
إن التنبؤ بالمستقبل لا بد أن ينهض بالضرورة
على معرفة الماضي والسعى للحد من مشاكله
وصعوباته وأخطائه.

وهذا يتجلى من خلال المحادثة التي
عقدها المؤلف مع مراسل صحيفة لا ريبابليكا
الإيطالية في لندن: أنطونيو بوليتو، الذي أسهم
بإجابته الموجزة والدقيقة عن الأسئلة المطروحة
عن القرن الجديد متعرضاً لمختلف القضايا
وشتى المعضلات في جميع مجالات الحياة
في نسج حياة أفضل ومستقبل ساطع بالأمل
في تخطي عقبات العولمة.



المشروع القومي للترجمة

القرن الجديد

[محاورات مع أنطونيو بوليتو]

تأليف : إريك هوبسبوم

ترجمة : وجيه سمعان عبد المسيح



المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٩٤٢

- القرن الجديد (إريك هوبسبوم محاورات مع أنطونيو بوليتو)

- إريك هوبسبوم

- وجيه سمعان عبد المسيح

- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

The New Century

Eric Hobsbawm

In conversation with

Antonio Polito

Translated from the Italian by Allan Cameron

Copyright © Gius. Laterza & Figli SpA, 1999

Translation © Editori Laterza 2000

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084 E-Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

7	تعريف
11	مقدمة
17	الفصل الأول : الحرب والسلام
39	الفصل الثانى : انحطاط الإمبراطورية الغربية
65	الفصل الثالث : القرية الكونية
93	الفصل الرابع : ماذا بقى من اليسار
113	الفصل الخامس : الإنسان الكونى
135	الفصل السادس : ١٢ أكتوبر ١٩٩٩
149	خاتمة : آمال المستقبل

تعريف

إريك هويسبوم مولود فى الإسكندرية عام ١٩١٧ ، وتعلم فى فيينا وبرلين ولندن وكامبردج، وهو زميل بالأكاديمية البريطانية والأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم. ظل ينتقل فى جامعات عديدة معلماً ودارساً للتاريخ حتى تقاعده.

وقد كان العضو الوحيد من بين مجموعة المؤرخين البريطانيين المنتمين للحزب الشيوعى البريطانى الذى لم يقدم استقالته من الحزب فى عام ١٩٥٦ عقب أحداث المجر؛ إيماناً منه بضرورة وجود حزب قوى لإحداث التغير الاجتماعى من ناحية، ولنزاهته الفكرية وعمق إيمانه وتمسكه بقضايا العدل الاجتماعى وتحرير الإنسان من الاستغلال الرأسمالى على نحو ما يوضحه خلال حواراته الخصبه الخلاقة فى ثنايا هذا الكتيب الوجيز من جهة أخرى، ومع ذلك فهو لم يكن عقائدياً متزمتاً.

يعد هويسبوم من أشهر وألمع المؤرخين الأوروبيين المعاصرين تخصصاً فى تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر، له إسهاماته المهمة فى التاريخ العمالى البريطانى وفى دراسة التمردات الفلاحية وهبات المزارعين فى الفترة السابقة على العصر الصناعى، وهو من الرواد الذين درسوا التاريخ فى حركته بين الجماهير العادية وعامة الناس الصانعة لأحداث التاريخ وهو ما يعبر عنه بدراسة التاريخ "من القاع".

كاتب غزير الإنتاج، خصب القريحة، رفيع الثقافة، تصفه المراجع العلمية بالصانع الماهر. وقد أكسبته ثلاثيته الشهيرة التى قدمت صورة بانورامية ممتدة الأفاق بعيدة الأغوار للأحداث التى هزت أوروبا وبريطانيا فى القرن التاسع عشر مكانة علمية مرموقة جعلته يتربع على عرش التاريخ الأوروبى، وقد شملت هذه الثلاثية :

- عصر الثورة ١٧٨٩ - ١٨٤٨

- عصر رأس المال ١٨٤٨ - ١٨٧٥

- عصر الإمبراطورية ١٨٧٥ - ١٩١٤

وقد أكملها برائته الأخيرة "عصر التطرف - القرن العشرون القصير ١٩١٤ - ١٩٩١" حيث يحدد أن انهيار الاتحاد السوفيتي وضع نهاية مأساوية للقرن العشرين الذي بدأ - في تقديره - بانفجار مروع تمثل في الحرب العالمية الأولى التي يعتبرها البداية الحقيقية لما أسماه القرن القصير، وما بين البداية المروعة والدامية والنهاية المأساوية غاص المؤرخ في أعماق القرن لسبر أغوار ما اعتل فيه من تيارات متباينة على كافة الأصعدة الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وقد أثار الكثير من الجدل والنقاش ولاسيما تحديده بأن الانتصار في الحرب العالمية الثانية تحقق بفضل التحالف الذي نشأ بين الرأسمالية الليبرالية والشيوعية السوفيتية وبأن المفارقة الأساسية في القرن القصير تمثلت في أن الثورة الروسية التي استهدفت إلغاء النظام الرأسمالي هي التي أنقذت خصمها العنيد وعدوها اللود الذي حاول تحطيمها وأدها في مهدها قبل أن يتدعم كيانه، ومن جهة أخرى فإن هذه الثورة حفزت الرأسمالية بسبب المخاوف التي أثارته على اتخاذ العديد من الإجراءات والتدابير الإصلاحية التي أفضت إلى تحقيق العصر الذهبي الذي بلغ نهايته مع الأزمة العالمية الشاملة التي بدأت طلائعها تخيم على العالم مع مطلع سبعينيات القرن الماضي.

وفضلاً عن هذا، ثابر على تحرير المقالات والتواصل مع عصره وأحداثه عبر ما كتبه عن نضالات العاديين من البشر - رجالاً ونساءً - الذين يطلق عليهم اسم "الأناس غير العاديين"، وقد جمع تلك المقالات في كتابين مهمين أولهما "الثوار" الذي يغطي جميع جوانب الثورة التي يعتبرها وسيلة للتغيير الاجتماعي، وثانيهما "الأناس غير العاديين المقاومة والتمرد والجاز".

وفي هذا الذي نقدمه للقارئ العربي، يجيب المؤرخ الكبير في إيجاز بالغ وتركيز شديد على الأسئلة المطروحة عن القرن الجديد متعرضاً لمختلف القضايا وشتى

المعضلات فى جميع مجالات الحياة، والتي تواجه إنسان هذا القرن سواء أكانت على الصعيد الدولى وتداعياته وتطوراتهِ وصولاً إلى العولمة وتوابعها ومؤثراتها أو اقتصرَت على الصعيد القومى، وما يعتَمَل فى داخله من نزاعات قومية متعصبة وتطرف عنصري أفضى إلى عمليات تطهير عرقى إثنى، وجاء كل ذلك من خلال تفاعل فكرى وحوار مبدع وخلاق وخصب مع مراسل صحيفة لاريابليكا الإيطالية فى لندن : أنطونيو بوليتو.

وجيه سمعان عبد المسيح

مقدمة

يعد التساؤل الذى نطرحه على أنفسنا عما يفضى إليه المستقبل جزءاً من الحياة والعمل، ونحاول جميعاً القيام بذلك حيثما أمكن. بيد أن التنبؤ بالمستقبل لابد وأن ينهض بالضرورة على معرفة الماضى، فأحداث المستقبل يجب أن تكون ذات صلة ما بأحداث الماضى، وهنا يأتى دور المؤرخين الذين لا ينشدون تحقيق ربح ما، بمعنى أنهم لا يستغلون معارفهم لضمان الحصول على مكسب، ويستطيع المؤرخون أن يكشفوا عن العناصر ذات الأهمية التى ينطوى عليها الماضى وأن يحددوا الاتجاهات والمشاكل.

وهكذا يتعين علينا أن نحاول القيام بعمليات تنبؤية - وإن يكن مع بعض التحفظات - ويتعين علينا أن نعى خطر تقليد العرّاف، ويجب أن نفهم أن الكثير من المستقبل لا يمكن التنبؤ به تماماً سواء من الناحية العملية أو من حيث المبدأ، ومع ذلك فإننى أعتقد أن أحداثاً منفردة أو معينة هى تلك التى لا يمكن التنبؤ بها، بينما المشكلة الحقيقية بالنسبة للمؤرخين تتمثل فى فهم مدى أهميتها أو إمكان أن تكون كذلك، ويمكن أن يبين التحليل فى بعض الأحيان أنها ذات شأن وفى أوقات أخرى أنها ليست كذلك.

وعلى سبيل المثال، من غير المهم بالنسبة لشركة تأمين أن تعرف ما إذا كان هذا المنزل الذى نجلس فيه ونتحدث سوف يحترق تماماً الأسبوع القادم، وكل ما يلزم للمؤمنين أن يعرفوه لكى يمارسوا مهنتهم على نحو مربح هو الاحتمال العام لحرائق المنازل. ومن الناحية الأخرى فمن الأكثر أهمية بالنسبة لى بكل وضوح وجلاء أن أعرف بصفتى مالكاً للمنزل ما إذا كان سوف يحترق فى غضون الأيام القليلة القادمة، وفوق ذلك فإذا ما ذهب عشرون شاباً وعشرون فتاة إلى معسكر تصييف، فمن المرجح

للاغاية أن تنشأ صداقات وعلاقات فيما بينهم، وما قد يهم الشباب والشابات هو معرفة من سيذهب مع من، غير أن ذلك قد لا يكون له أهمية على الإطلاق عند المؤرخ أو عالم الاجتماع؛ لأن ما يتعين أن يؤخذ بعين الاعتبار هو احتمالية حدوثه، وثمة أحداث قد لا تكون لها أهميتها أحياناً في عملية التنبؤ بالنسبة للمؤرخ، ولكن قد تكون في أحيان أخرى لها أهميتها وعلى نحو مثير للغاية، وتلك هي حدود عملية التنبؤ.

وما نستطيع أن نفعله في هذه الحادثة هو أن نناقش المشاكل كما تتبدى اليوم وأن نحدد بعض الاحتمالات، وستكون هذه الاحتمالات قوية حياً بينما يمكن أن تتلاشى وتذروها الرياح بفعل أحداث غير متوقعة على الإطلاق، وإذا أخذنا ضرب السفارة الصينية بالقنابل في بلجراد فمن المؤكد أن ذلك الحدث له أهمية من الناحية التاريخية، حتى ولو لم نعرف بعد مدى هذه الأهمية، لكن مما لا ريب فيه - أيضاً - أنه لم يكن متوقعاً البتة.

لقد اشتهرت بتعريفك للقرن العشرين بأنه "القرن القصير" بحيث بدأ متأخراً في ١٩١٤ مع الحرب العالمية الأولى وانتهى مقدماً في ١٩٩١ مع انهيار الاتحاد السوفيتي، فإذا كان تحديدك الزمني سليماً فإننا نعيش بالفعل في القرن الجديد منذ عقد، فهل يتوفر لدينا ما يكفي من الأدوات لكي نحاول تخطيط معالمة؟ وهل القسماآ المميزة للحقبة الجديدة يمكن تحديدها، أو مازلنا نعيش في مرحلة انتقالية ذات نتائج غير مؤكدة؟

إن تحديدى لعام ١٩٩١ كنهاية للقرن القصير هو اختيار قمت به (وعلى أى حال كان من الأسر تحديد بدايته في عام ١٩١٤) ولم يكن ذلك هو الإمكانيّة الوحيدة عندما قمت بتأليف الكتاب في ١٩٩٤^(١)، وقد اخترت هذا التاريخ لأسباب تتعلق بمدى الملائمة والتوافق، و دائماً ما تكون التواريخ الدقيقة مسائل متصلة بمدى الملائمة من

(١) إشارة كتابه المرجعى المهم عن تاريخ القرن العشرين : age of Exteremes: The short Twentieth century 1914-1991 .

الناحية التاريخية أو التعليمية أو الصحفية ومثال ذلك الحرب في كوسوفا، فمن الممكن بكل تأكيد تحديد بدايتها مع مساء أول يوم قام فيه الناتو بإلقاء القنابل - ومع ذلك - فنحن نعلم أن أزمة كوسوفا ترجع إلى سنوات عديدة، وفي ١٩٩٢ علمنا بالفعل أنها ستغدو خطيرة وسوف تؤثر على مصالح الولايات المتحدة.

وأخطرت واشنطن يوغوسلافيا رسمياً بهذه المصالح ، وإضافة المزيد من الوضوح فإنها أرسلت قواتها إلى مقدونيا، وعندئذ فإن أزمة البوسنة أُلقت بظلالها على كل شيء، ولكن - مرة أخرى ، ومع نهاية تلك الأزمة - فإننا نستطيع إذن تحديد موعد انطلاق الحرب مع بدء "التطهير العرقي" الصربي ونشوب الثورة المسلحة بقيادة جيش تحرير كوسوفا.

ويقول آخر فإن تمييز أو اختيار موعد معين هو مسألة اصطلاحية وليس أمراً يكون المؤرخون على أهبة الاستعداد لخوض معركة من أجله.

وهناك مؤشر واضح وواحد فقط على نهاية النهاية للقرن القصير، فنحن نعلم أن الاقتصاد العالمي دخل منذ ١٩٧٣ مرحلة جديدة، وإذا كنت تؤمن - كما أنني أؤمن - بنظرية كوندرا تيف Kondratieff^(١) عن الموجات الطويلة التي كان من المُقدَّر أن تنتهي في وقت ما من التسعينيات، لكن متى على وجه الدقة ؟ ذلك لم يكن جلياً تماماً، وأعتقد أنه عند مستهل العقد فإن انهيار الاتحاد السوفيتي، الذي تزامن مع أزمة خطيرة تمثلت في الكساد الذي خيَّم على اقتصاد البلدان الغربية، شكَّلَ تاريخاً معقولاً لحدث تغيير في الحقبة، بيد أنه قد يكون من الجلي - أيضاً - أن الأزمة الاقتصادية اللاحقة التي سادت عامي ١٩٩٧ و ١٩٩٨ هي التي ميزت نهاية القرن، فمن الممكن - فقط - أن تعرف متى انتهت فترة ما ومتى قد انتهت لفترة طويلة من الزمن.

وعلى سبيل المثال، يمكن القول إنه طرأت على الاقتصاد العالمي فيما بين ١٩٤٥ وأوائل سبعينيات القرن تقلبات ضئيلة نسبياً، بينما وجدنا أنفسنا ثانية منذ ١٩٧٣

(١) كوندرا تيف (١٨٩٢ - ١٩٣٠) اقتصادي روسي أبرزت أعماله وجود دورات طويلة الأجل (٢٥ سنة) تشهد فيها البلدان الرأسمالية فترات تتلّو في الأسعار بين الارتفاع والانخفاض وذلك منذ القرن الثامن عشر. (م).

فى فترة اتسمت بصدمات وضربات قوية للغاية : أزمات (١٩٨٠ - ١٩٨٢) و (١٩٩٠ - ١٩٩١) و (١٩٩٧ - ١٩٩٨) . ومن الممكن أن يدخر لنا المستقبل اتجاهًا مماثلًا ؛ مما يجعل من الشاق تحديد تاريخ دقيق للانتقال من حقبة إلى تلك التى تليها، ومن الجلى كذلك أن آثار انهيار الاتحاد السوفيتى قد ثبت أنها خطيرة ودائمة.

وقد اعتقدت وكتبت أنها ستكون مشكلة ذات شأن بالغ، غير أننى - أيضاً - هونت من جسامتها وإذا كان على أن أعيد كتابة "the age of extremes" حالياً فسوف أكون أكثر حذراً وحرصاً فى التنبؤ بتوسع عالمى مفاجئ للاقتصاد الرأسمالى فى المستقبل القريب، ونتيجة لانهيار الاتحاد السوفيتى، فإن هذا التطور يمكن أن يتوانى بأكثر مما تتبأت به فى كتابى، وكل هذا يجعل من الشاق للغاية معرفة ما إذا كنا قد خرجنا بعد من القرن العشرين "القصير".

وعلى الرغم من هذا ففى ظنى أننا نعرف بالفعل شيئاً ما عما سوف تشبهه الحقبة الجديدة؛ لأن بعض قسماتها السياسية والاقتصادية جلية حقاً، ومن مناح عديدة نستطيع أن نزعج بلا أدنى ريب أننا نعيش فعلاً فى القرن الجديد، ومن حيث السياسة الدولية والإيديولوجيات فمن الواضح تماماً أن زوال النظم الشيوعية فى الشرق شكّل انكساراً تاريخياً، وعالم اليوم تتحكم فيه آثار تلك الأحداث، ومن ثم فإنه فى وسعنا أن نحاول قول شيء ما عن هذه الحقبة الجديدة.

- من أين يأتى هذا الاعتقاد فى التاريخ ؟ هذا الطموح فى أن تكون قادراً على قراءة المستقبل المتنبأ به من الماضى.

لقد جذبنى التاريخ - فى المقام الأول - من واقع قراءة كارل ماركس، وأعنى أن ماركس قد زودنى بالوعى بأنه أداة لا نستطيع بدونها أن نفهم ماذا يحدث فى العالم؛ لقد اقتنعت بفكرته القائلة إن التاريخ يمكن رؤيته وتحليله ككل ، وله لا أود أن أقول قوانين؛ لأن ذلك يذكرنا بالوضعىة قديمة الطراز إنما له بنية ونمط ، وتلك قصة تطور المجتمع الإنسانى عبر فترة طويلة من الزمن.

ويستعين على القول إن العلميين في فترة شيابلي لم يكن لديهم الاهتمام بهذا النوع من التاريخ. غير أنني بدأت دراسة هذا الفرع العلمي الذي ثبت أنه ملائم على نحو معقول في حد ذاته، ومن ثم فقد أخطت به..

كما استطلعت دراسة السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا - موضوعان يرتبطان كذلك بتطور المجتمعات - .

وأزعم أنني تعلمت الكثير من ميكائيل بوستان Michael postan ، مدرس في كامبريدج هاجر من أوروبا الشرقية؛ لأنه كان الوحيد الذي أَلَمَّ ببعض الشيء عن النقاش الذي كان دائرةً عن القارة والأدب الأوروبي القاري. كما كان على دراية يتعاليم أنالس، مثل ماركس والنورخين وعلماء الاجتماع الروسي. وبطبيعة الحال - ولكنه من اللاهجويين الروس - فقد كان معادياً للشيوعية بشراسة ولكنه كان يعرف مالهته . وفي السنوات العشر التي أعقبت الحرب، قُلِّتْ جيلتنا درس تاريخه في حلقات دراسية منتظمة أدارها مؤرخون أصدقاء وأعضاء في الحزب الشيوعي البريطاني أو ما يسمى بمجموعة المؤرخين الشيوعيين : كريستوفر هيل c. hill وموريس ديب m. dobb واثومبسون ep. Thompson ومؤرخ العصور الوسطى روني هيلتون r. Hilton وأنا وإنخوين، وفي أعقاب الحرب - أيضاً - دارت مناقشات مع مؤرخين كثيراً منهم من الفرنسيين ومن غيرهم، وقد تحاطفت كثيراً مع مدرسة الحوليات^(١) وإن اختلفت معها في أمر واحد إذ أمنت هذه المدرسة بالتاريخ الذي لن يتغير أبداً وبالهياكل والبنى الدائمة للتاريخ بينما أؤمن أنا من الناحية الأخرى بالتاريخ الذي يتغير.

لم تكف البتة عن الاعتراف بفضل ماركس. فعمَّ يتكون في نهاية الأمر التقدير الماركسي للتاريخ ؟

(١) فريق من المؤرخين الفرنسيين تجمع حول مجلة حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، أسسها في ١٩٢٩ كل من Bloch و Febvre . وقد رفضت هذه المدرسة التغيير للساند للتاريخ باعتباره سرد الوقائع والأحداث التاريخية وفضلت النظر على الماضي الذي البعيد والانفتاح على العلوم الإنسانية الأخرى كالجغرافيا والاقتصاد ثم الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا ووضعها في الاعتبار عند كتابة التاريخ، وقد امتمت في مرحلة لاحقة بتاريخ العقليات (م).

قبل كل شيء فإن التفسير الماركسى يفترض أن المجتمع البشرى ، وعلى أساس إدراك أن مرحلة تاريخية معينة ليست دائمة ، هو بمثابة بنية ناجحة؛ لأنه قادر على التغيير، ومن ثم فإن الحاضر ليس هو محطة وصوله النهائية، وثانياً فإنه يمكن للمرء أن يدرس طريقة عمل المجتمع *modus operation* أى سبل عمل نظام اجتماعى معين ، ولماذا ينتج أو يخفق فى إنتاج قوى التغيير. وعلى سبيل المثال، ولكى يمكن تحليل الاقتصاد الصينى عبر عدة قرون فالمرء يحتاج إلى فهم ما الذى حال فى هذا البلد دون التغيير أو إعاقته، وما الذى عمل على استقرار المجتمع بدلاً من زعزعة هذا الاستقرار، وذلك بالرغم العديد من عناصر التقدم الاقتصادى والتكنولوجى. بينما فى الغرب فإن المشكلة تتمثل فى أن تفهم عكس ذلك تماماً، وذلك هو السبب فى أن التاريخ الذى يهمنى هو تاريخ تحليلى، أى التاريخ الذى يشيد تحليل ما حدث بدلاً من إزاحة الستار عنه وكشفه، ولا أعنى بذلك أنه يمكن استخدامه لكى يفهم المرء تماماً لماذا تطور العالم بطريقة معينة، بل يستطيع إخبارنا كيف تجمعت واحتشدت عناصر شتى داخل مجتمع ما لكى تخلق ديناميكية تاريخية أو تخفق - على العكس - فى أن تحدث ذلك.

الفصل الأول

الحرب و السلام

- لقد انتهى القرن العشرون بحرب ، تماماً كما أن القرن القصير بدأ بكارثة الحرب، وكما لو أن الزمن لم يتغير فقد انفجرت المسألة القومية ثانية ووضعت القوى العظمى على المحك . وهكذا، فهل التاريخ يكرر نفسه ؟ وكيف انتقلنا من نهاية الحرب الباردة إلى عودة "الحرب الساخنة" وكيف يمكن أن يوجد الآن عدد من اللاجئين أكثر مما وجد في نهاية الحرب العالمية الثانية.

- من الحقيقي ومن بعض النواحي فإن الحرب في البلقان كانت حقاً وفعلاً حرباً بكل أمارات حقبة مضت وانقضت فهي استمرار لحروب البلقان - وبوجه أعم - فهي استمرار للحروب التي أفرزها نظام الدول في القرن العشرين ، وقبل ذلك في القرن التاسع عشر. ويمكن القول - إن أردت - إن حرب البلقان هي النتيجة الأخيرة والحصيلة الثانوية الأخيرة للحرب العظمى، حيث شهد هذا الصراع انهيار الإمبراطوريات السابقة على البورجوازية والمتعددة القوميات، وأفرزت نهاية إمبراطورية هابسبورج والإمبراطورية العثمانية الخريطة القومية لجنوب شرق أوروبا ، بينما حافظت ثورة أكتوبر على الوحدة التي كانت تمثلها إمبراطورية القيصرية .

ومع انهيار ذلك النظام أيضاً فإننا نشهد حالياً بروز نتائج مماثلة في تلك البقعة من العالم.

واعتقد أنه من الأكثر أهمية أن نحلل الكيفية التي تغيرت بها الطبيعة العامة للحرب والسلام مع انقضاء القرن العشرين، وتعد الطبيعة العامة للحرب مشكلة أكثر

دلالة ومغزى من أسبابها المحددة، وذلك - مثلاً - أكثر أهمية من التساؤل عما إذا كانت - أو لم تكن - حرب كوسوفا، حرباً عادلة حيث تبيّنت بوضوح كمشكلة ملحة وجسيمة بينما كانت أوار الحرب مشتتة في ربيع ١٩٩٩ . غير أنه بالنسبة لمؤرخى المستقبل، الذين سيدرسون الحروب فإن أسئلة أخرى سوف تلوح أكثر أهمية بكثير. لأنها تحدد القسّمات المميزة لنهاية هذا القرن، وتدل بقدر ما على القرن المقبل.

إن ما يهمنى أكثر من غيره هو كيف تغيرت الحرب بالمعنى السياسى والتكنولوجى على السواء؟ وهل ما زال من الممكن أن تنشب حرب بين القوى الكبرى فى العالم؟ والإجابة بلا ما دامت أمريكا هى القوة العظمى الوحيدة . ومن الممكن - إن عاجلاً أو آجلاً - أن تبلغ الصين القوة العسكرية التى تؤهلها لى تنافس الولايات المتحدة الأمريكية على نحو فعال، ولا أريد القول ما إذا كان ذلك سوف يحدث أو لن يحدث، غير أن ما يلوح مؤكداً هو أن نشوب حرب عالمية جديدة أمر غير محتعل إلى أن يحدث ذلك.

وثانياً: هل اندلاع حرب نووية ممكن؟ من ناحية إن عدم احتمال قيام حرب عالمية يجعل نشوب حرب نووية غير مرجح الحدوث، بيد أن استخدام الأسلحة النووية فى الحرب ما يبدو ممكناً وغير مستبعد لأن التكنولوجيا قد زادت بإطراد من إمكانية الحصول عليها ، وجعلت من الممكن إنتاجها على نطاق أوسع ونقلها على نحو أسرع، ومن ثم فإن استبعاد خطر نشوب حرب عالمية لا يستبعد مخاطر الحروب التى قد تستخدم فيها أسلحة نووية.

وثالثاً: هل ما زال ممكناً قيام حروب أكثر تقليدية بين الدول مثل تلك التى اعتدنا عليها؟ والجواب هو أن هذه الحروب لم تتوقف أبداً، إلا فى المناطق التى حدثت فيها مواجهة مباشرة بين القوتين العظيمتين، حيث كانتا حريصتين للغاية على تقادى خطر وقوع كارثة نووية . لقد وجدت صراعات فى جنوب آسيا بين الهند وباكستان ونشبت حروب فى الشرق الأوسط بين إيران والعراق، ومن ثم فإن الحروب استمرت حتى إبان فترة الكابوس النووى، ولذلك فإن إمكانية قيام حروب أخرى ليست بعيدة، ولكن هناك مناطق معينة فى العالم من غير المرجح إلى حد بعيد للغاية أن يحدث فيها ذلك،

ونميل إلى أن ننسى أنه توجد مناطق مثل أمريكا اللاتينية، حيث لم يعبر فيها أبداً أى جيش حدود دولة معادية على مدار القرن العشرين - اللهم - باستثناء الحرب التى دارت بين بوليفيا وباراجوى (١٩٣٢-١٩٣٥) وعرفت باسم حرب الشاكو chaco^(١) لقد حدثت كثرة من المذابح والحروب الأهلية لكن لم تنشب حروب بين هذه الدول، ولا نعلم إلى أى مدى سوف يصدق ذلك - أيضاً - على أوروبا فى القرن الحادى والعشرين . وعلى أى حال فإن هذا النوع من الحروب لا يمكن أن يكون وارداً فى عالم المستقبل ومع ذلك ربما لن تكون مهمة كما كانت فى القرن العشرين.

وأعتقد أن ما هو جديد فيما يتعلق بالوضع فى البلقان، هو أن الخط الفاصل الذى يميز بين الصراعات الداخلية و الصراعات الدولية قد اختفى أو فى سبيله إلى الاختفاء، مما يعنى أن الفرق بين الحرب والسلام - بين حالة الحرب و حالة السلام - قد تقلص أيضاً. والوضع اليوغوسلافى حالة نموذجية. وعلى الرغم من أنه ينبثق من خصومة وعداء ، وهو ما يعتبره الصرب مسألة داخلية، فقد حدث أيضاً تدخل خارجى، وهو أمر كان مستحيلاً تماماً فى القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب الباردة، وأعنى عبور الجيوش الأجنبية الحدود لكى تحل صراعاً داخلياً فى نطاق دولة ذات سيادة، وفى هذه الحالة فإن أحد طرفى النزاع رفض حتى الاعتراف بنشوب حرب ما .

ويلوح من المتعزز إنكار أن ضرب دولة أخرى بالقنابل يشكل عملاً حربيّاً، ومع ذلك لم يعلن رسمياً اندلاع حرب، ولذلك يزعم بعض الناس أنه لم توجد حالة حرب، وتلك هى الجدة المذهلة لهذا الوضع .

ومن الجلى أننا نتعامل مع إحدى نتائج نهاية الحرب الباردة وإبان تلك الفترة، فإن الاستقرار النسبى الذى شهده العالم نهض أساساً على القاعدة الذهبية للنظام العالمى، لا أحد يعبر حدود دولة أخرى ذات سيادة ، لأن النتيجة ستكون اختلال التوازن، ومنذ نهاية الحرب الباردة فقد شهدنا نهاية التحديد الذاتى.

(١) نسبة إلى السهل المنخفض الممتد على حدود كل من الأرجنتين وبوليفيا وباراجوى فى أمريكا اللاتينية (م-).

ومن غير الواضح تماماً ما إذا كانت الحروب التى دارت فى كل من وسط إفريقيا ويوغوسلافيا وكوسوفا و العراق هى حروب أم غير حروب، وفى الواقع فإن وجود نقاش واسع النطاق عما إذا كانت هذه الحروب عادلة أم غير عادلة، إنما يعبر بطريقة أخرى عن حيرتنا وارتباكنا فى مواجهة ظاهرة جديدة كلية، وكان الفيلسوف الإيطالى بوبيو Bobbio منطقياً تماماً بقوله إنه لا يريد حتى طرح هذا السؤال؛ لأن السؤال الحقيقى الذى ينبغى طرحه هو ما إذا كانت حرب كوسوفا قانونية طبقاً لقواعد الماضى والجواب بلا، فالقواعد القديمة للحرب و السلام التى ميزت بين الصراعات الداخلية والصراعات الدولية تآكلت، ولا يبدو من المحتمل على الإطلاق أنه سوف تتم استعادتها فى المستقبل القريب.

كما أنه ثمة اختلافات فى الطريقة التى تجرى بها الحرب، وتلك اختلافات جسيمة يمكن التنبؤ ببعضها ، ويصعب ذلك بالنسبة للبعض الآخر، وأولها تحول الحرب الذى أحدثته التكنولوجيا المتقدمة، وقد خشينا فى البداية من أن تكون سبباً فى نزاعات أكثر دموية وتدميراً.

ولكن علمنا - منذ حرب الخليج - أن التكنولوجيا المتقدمة تحدث قوة تدميرية أكثر دقة و تمييزاً، فالقنابل الذكية قادرة على انتقاء أهداف معينة و تفادى أخرى، وإذا نحينا جانباً الحوادث المرتبطة بالعمليات الحربية ومخاطر تيران الأسلحة التى تطلق خطأ، فإن هذه الحقيقة الجديدة لها أهميتها لأنها تستعيد التمييز بين المحاربين وغير المحاربين ، الذى اختفى فى القرن العشرين عندما كانت الحروب توجه باطراد صوب المدنيين ، مما أتاح لحلف الناتو القول إنه لم يكن يستهدف المدنيين فى حرب كوسوفا على سبيل المثال ، ولكنه يستهدف القوات المسلحة و منشأتها من حيث المبدأ على الأقل.

ومن ناحية أخرى فإن هذا الوضع يجعل من الممكن الاتجاه الأرعن المتكرر على نحو متزايد إلى التدمير، وإذا كنت تعتقد أنك قوياً بما يكفى لكى تستطيع أن تختار بدقة ما تبغى تدميره ، فقد يعزبك ذلك على حل مشاكلك باستخدام القنابل كما حدث فى العراق .

وبهذا المعنى فإن التكنولوجيا المتقدمة تزيد من مخاطر النزاعات المسلحة - على الأقل من قبل الدول المتوفرة لها - وفضلاً عن هذا فإنها تبخس قدر مخاطر ما يسمى بـ "الضرر الملازم أو المصاحب" ولا أعنى الأفراد الذين يقتلون عن طريق الخطأ، وإنما ذلك الضرر الجسيم الذى يصيب المرافق والبنى الأساسية التى تعتمد عليها جماعة معينة فى معيشتها وإنتاجها. و بالنظر إلى عدم وجود خطر بقتل أعداد كبيرة للغاية من البشر فقد يتبادر إلى ذهنك أن تلك طريقة متحضرة للغاية فى شن حرب ما، بيد أنه ثمة تقديرات بأن الاقتصاد الصربى عانى خلال أسابيع قليلة تدميراً أكبر مما عاناه طوال الفترة التى استغرقتها الحرب العالمية الثانية، ولم تقتصر الآثار على الاقتصاد الصربى وحده : فتدمير الجسور الواقعة فوق نهر الدانوب - مثلاً - أضر ضرراً بالغاً باقتصاد المنطقة بأكملها، والتى تمتد من جنوب ألمانيا إلى البحر الأسود وما ورائه.

وأخيراً، فقد نشأ تباين جسيم - على مستوى أدنى - بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون الحصول على التكنولوجيا المتقدمة بين الحرب التى تشنها الطائرات على ارتفاع خمسة عشر ألف قدم مستخدمة قنابل متطورة للغاية وبين الحرب البرية، حيث يقتل الناس بعضهم بعضاً باستخدام المدى والسكاكين ، كما حدث فى إفريقيا الوسطى وهو ما اتضح بجلاء فى كوسوفا حيث دارت الحربان المختلفتان فى وقت متزامن دون أن يوجد أى تلاحم بينهما. وفى الماضى كان يتسلح رجال "حرب العصابات" بالبنادق والرشاشات ، أما الآن فلهيهم قاذفات الصواريخ والأسلحة المحمولة المضادة للطائرات، وذلك إفراز آخر من إفرازات الحرب الباردة ، التى غمرت العالم بقدراتها على إنتاج الأسلحة. وبرغم أنه لم تنشب حروب فعلية بين الدول فى تلك الفترة ، فإن صناعة الأسلحة كانت تعمل بكامل طاقتها، كما لو كانت هناك حالة تعبئة فعلية. ومن الواضح أن نهاية الحرب الباردة أتاحت على الفور تلك الترسانة المهولة وجعلتها فى المتناول وعلى سبيل المثال، فإن انتهاء الحرب الأهلية فى السلفانور طرحت فجأة كميات ضخمة من البنادق الأوتوماتيكية فى الأسواق والتى كان يمكن شراؤها على الحدود بحوالى مائة دولار لكل قطعة سلاح، ثم تنقل إلى كولومبيا لإعادة بيعها.. بخمسمائة دولار، وكانت تلك تجارة رابحة لبعض الناس. والعالم الآن ملئ بالأسلحة؛ مما يخلق وضعاً جديداً

تظهر فيه جماعات مسلحة حرة طليقة أو "مرتزقة" لا تكون مرتبطة بالضرورة بحكومة ما، لكنها على أتم الاستعداد للقتال.

واعتبر ذلك علامة تغير أخرى : أى العلاقة الناشئة التى تربط الحروب بين الدول أو الحركات المنظمة بالحروب الخاصة بين الأفراد أو المنظمات الخاصة، وينطوى ذلك على إمكانية حدوث تغير أساسى و جوهري، وقد افترض إبان القرن الذى انقضى أن النزاعات المسلحة - مع استثناءات قليلة - جرت بين دول أو من قبل منظمات شبه حكومية (حركات المقاومة فى إيطاليا أو يوغوسلافيا) المؤتمر القومى الإفريقى ، حركات التحرر القومى وهى لم تنظمها هيئات أو مؤسسات خاصة ، كما حدث فى إيطاليا (خلال القرنين الرابع عشر والسادس عشر) إبان عصر condottieri (قادة المرتزقة)^(١) أو بمعرفة قادة جيوش المرتزقة. وكان فى استطاعة الدول الأوروبية حتى القرن السابع عشر أن تستأجر الجيوش، وفى حرب السنوات الثلاثين كان والنشتين wallenstein آخر المقاولين الذى أجر جيشه للدول المتصارعة^(٢).

ونشهد اليوم عودة إلى المشروع الخاص فى الحرب، وذلك جلى تماماً فى بقاء العالم التى تتحلل فيها الدول - كما فى إفريقيا - وحيث تستخدم عصابات المرتزقة حيناً من قبل الفصائل المتحاربة وحيناً آخر بمعرفة الحكومات.

(١) قادة المرتزقة الذين كانت تستخدمهم المدن الإيطالية أو الأمراء فيما بين القرنين ١٤ و ١٦ ثم بدأوا يعملون لحسابهم حالما قويت شوكتهم وشرعوا يستولون على الأراضى. وقد شرع هذا النظام فى الاختفاء مع بدء القوات الأجنبية واستخدام أساليب جديدة فى الحرب فى أواخر القرن ١٥ (م) (١)

(٢) حرب الثلاثين عاماً دارت رحاها فيما بين ١٦١٨ - ١٦٤٨ وشملت عدة دول أوروبية، السويد وفرنسا ثم هولندا وإيطاليا وشبه جزيرة إيبيريا. وكان مسرحها الرئيسى ألمانيا، وبدأت بالصراع الذى نشب بين الأمراء الألمان البروتستانت الذين شكلوا الاتحاد الإنجليزى فى ١٦٠٨ من جهة والسلطة الإمبراطورية الكاثوليكية ممثلة فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة وآل هابسبرج من جهة أخرى، وانتهت بعقد صلح وستفاليا وأصفرت عن تمزيق ألمانيا و اضمحلال الإمبراطورية الرومانية المقدسة وآل هابسبرج. وخرجت فرنسا أقوى دولة فى أوروبا وكان والنشتين (١٥٨٢ - ١٦٣٤) رجل أعمال وواحد من كبار القادة العسكريين فى تلك الحرب. جند جيشاً وضعه فى خدمة الإمبراطور فرديناند ٢، وقد جعل من الحرب شبه مشروع خاص، وانتقل من معسكر لآخر مغيراً تحالفاته. وقد اتهم بالخيانة العظمى ومات مقتولاً بأيدى أحد ضباطه، ويأمر من الإمبراطور الذى تخلص منه خوفاً من طموحه. (المترجم).

و فضلاً عن هذا ، علينا أن نضيف الاتجاهات الأخيرة فيما يتعلق بالحروب ذات صلة مباشرة بالحكومات ، مثل تلك النزعة الدائمة إلى إلغاء التجنيد الإلزامى العام حتى فى بلدان يعتمد جيشها حتى الآن على الخدمة الوطنية، ويرمى الاتجاه العام إلى التركيز على استخدام عسكريين محترفين مؤهلين للغاية، و مما لا ريب فيه أن هذه العملية تفسح المجال أمام المشروعات الخاصة، وحتى فى أكثر البلدان تقدماً هناك الآن منطقة رمادية حيث يعمل جنباً إلى جنب عسكريون متخصصون للغاية وشركات أعمال خاصة توفر خدمات الأمن. وفى بريطانيا العظمى يحصل الجنود من وحدات الكوماندو (1) عند تقاعدهم على وظائف مماثلة فى الشركات التى توفر الخدمات الاستشارية والعملياتية للحكومات فيما يتصل بالنزاعات المسلحة ومقاومة الإرهاب .

وهناك بالفعل دراسات عديدة عن الاحتمالات المتوقعة للقوات المسلحة الخاصة فى حروب المستقبل ، مثل تلك التى أصدرها معهد الدراسات الاستراتيجية فى لندن ، ويعتقد البعض أن هذه الاحتمالات ليست كبيرة خاصة ، وإن تلك الخدمات لا يمكن التعويل والاعتماد عليها. ولكننا لاحظنا - من ناحية أخرى - فى حالة حرب الخليج ، الاستخدام الواسع النطاق للمشروع الخاص فى تقديم الدعم اللوجستى اللازم للنزاع الحربى.

وهو ما يشبه - إلى حد ما - ما حدث فى القطاع المدنى إبان الفترة التى حكمت فيها تاتشر، حيث خضعت الخدمات التى كانت تقدمها الحكومة من قبل لعطاءات خارجية، وأعتقد أن المخاطر والأعتدة الحربية والمؤن والملابس اللازمة للقوات الحربية سوف تعرض أكثر فأكثر على الشركات الخاصة لكى تقوم بتوفيرها.

- كما حدث فى مقدونيا حيث تآتى شركة أمريكية فى أعقاب قوات الناتو لكى تقدم الخدمات اللوجستية.

- تماماً. وتلك ظاهرة جديدة تتعلق بالقرن العشرين، وهى حالة نمونجية لحقبة جديدة نشأت من التفكك النسبى لقوة النولة فى بعض بقاع العالم، وقد بعثت من الرقاد

(١) القوات الجوية الخاصة البريطانية.

شخصية "لوردات الحر" التى لم توجد فى أوروبا منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد كان لدى هؤلاء الأشخاص القدرة على التأثير على الأحداث السياسية؛ لأنهم قاموا بإنشاء وتنظيم الجيوش الخاصة بهم.

وهو ما يذكرنى بالوضع فى الصين لمدة خمسين عاماً خلال الفترة الواقعة بين انهيار الإمبراطورية وقيام الثورة ، حيث لم توجد حكومة فعلية وإنما هناك سلطان أو نفوذ كفلته جيوش لوردات الحرب، وكان بعضهم من قطاع الطرق السابقين مثل شان تسولن chan tso lin الذى حكم منشوريا وحول نفسه إلى قائد عسكري (جنرال). إننى أشعر أن الوضع الراهن - وهو مزيج من الحرب الخاصة والحروب بين الدول - يعنى أن هذه الظاهرة ستكون محتملة أيضاً فى المناطق التى تتفكك فيها الدولة على نحو ملحوظ .

ويتدعم ذلك بعامل جديد آخر: الثروة الهائلة المتاحة حالياً للكيانات الخاصة. ويستطيع اليوم الأفراد أو الشركات امتلاك أقوال كثيرة مثل تلك التى تمتلكها الدول، ويرجع ذلك جزئياً إلى نمو التجارة غير المشروعة مثل الاتجار فى المخدرات وتهريبها. وفى حدود علمى فإن جيش تحرير كوسوفا لم تموله أى حكومة، وهو ما يرجع فى اعتقادى إلى آخر ما تريده الحكومات الغربية هو إنشاء دولة مستقلة فى كوسوفا، ولا أعتقد أن الحكومة الألبانية قد ساعدت فى ذلك على نحو مهم؛ لأنها ليست فى مركز يتيح لها منح أى مساعدة مالية لأحد، ولذلك فمن المؤكد - تقريباً - أن جيش تحرير كوسوفا جرى تمويله من جانب التجارة غير المشروعة التى تمارسها المافيا الألبانية والكوسوفية ، كما حدث فى الشيشان، ولا أقول إن هذه الأموال أنفقت على قضية غير عادلة، غير أننى أود أن أقول إن هذه الجماعات - التى ما كان يمكن لها أهمية سياسية بخلاف ذلك - قد اكتسبت هذه الأهمية بالجوء إلى موارد لم تكن متاحة فى الماضى ، وهو ما يتضح بجلاء فى كولومبيا ؛ حيث فقدت الحكومة عملياً السيطرة على مناطق شاسعة من البلاد ؛ لأن الجماعات التى تهيمن على هذه المناطق لديها التمويل الكافى للقتال والمقاومة، ولا يوجد فعلاً نقص فى الموارد فى العالم فى الوقت الراهن.

وإننى أرى أن هذه القسمات سوف تتزايد أهميتها فى حروب المستقبل ومن اليسير لمليشيا جيدة التسليح مكونة من ثلاثمائة فرد ، ولا تخضع نظرياً لأى حكومة أو دولة أن تسيطر على مساحات شاسعة تنهب ما فيها وتطهرها من "الأعداء". وكما رأينا فى كوسوفا فلن تحتاج إلى كثير من الرجال لحرق المنازل والقرى وإجبار سكانها على الفرار، وكلما كانت النزاعات المسلحة أقل تنظيماً وخضوعاً للدولة كلما أصبحت أكثر خطورة على السكان المدنيين، ومن هنا العدد الهائل من اللاجئين فى عالم اليوم.

وقد اخترتني سيدة من بين أولئك الذين عملوا لسنوات مع الأمم المتحدة فى السودان ، الذى تمزقه حرب أهلية منذ أمد طويل إنه كان يتعين عليهم فى البداية أن يمتثلوا لأوامر قادة حركة التحرر ؛ ليتمكنوا من القيام بالأعمال الإنسانية فى مناطق الجنوب، ولكن بعد برهة من الزمن فإن الأراضى التى كانوا يسيطرون عليها تفتت إلى ولايات أو إمارات يحكمها جنرالات أفراد أصبحوا - أيضاً - سادة يتحكمون فى مصير اللاجئين، ويتعين على الأمم المتحدة الآن أن تتفاوض مع كل واحد منهم على حدة لتتمكن من مساعدة اللاجئين.

ولحسن الطالع - آنذاك - كان لدينا التليفزيون ؛ لكى يطلعنا على معاناة اللاجئين.

لا يمكن أن يكون هناك أدنى ريب فى أن الدور الجديد للرأى العام يعد حاسماً فى تغيير طبيعة الحرب، وهو ما يمكن أن نحدده أو نسميه بـ "تأثير (القناة الإخبارية) cnn"، حيث تصبح الأخبار المختارة مما حدث و وقع متاحة على الفور ومباشرة، وتلك نتيجة أخرى من نتائج انتهاء الحرب الباردة ، الآن السيطرة الحكومية ورقابتها على المعلومات أقل بكثير مما كانت فى الماضى بل مستحيلة أحياناً، ولم يكن الأمر كذلك أثناء حرب فيتنام ، وظل أقل إبان السنوات التى أعقبتها مباشرة . إن السيطرة الهائلة للتليفزيون قد جعلت من المستحيل فى الوقت الحالى على الحكومات إدارة الأزمات الدولية بالطريقة التى كانت معتادة عليها، غير أنه أداة - أيضاً - تحت تصرفها تستخدمه فى تعبئة الرأى العام بسرعة لم تكن تخطر على البال فى غابر الأيام.

ولننظر فى كمية الوقت التى استغرقها حدث مثل غرق الباخرة lusitania أو حادثة خليج تونكن^(١) لكى يكون ذلك داعياً إلى إغلاق الحرب.

ويمكن رؤية ذلك فى الطريقة التى سمح بها كل من صدام وميلوسيفيتسن لفرق التليفزيون المنتمية إلى البلدين التى كانا فى حرب معها أن تقيم وتصور ما أراد أن يطلع عليه ويشاهده الرأى العالم الغربى ، بينما كان رد الفعل الطبيعى من قبل هو التعقيم بالطريقة الستالينية المعهودة وهو ما ترك آثاره المهمة على سياسة الحرب.

- لقد وصفت الخصائص الجديدة التى تنزع الحرب إلى أن تتسم بها فى نهاية القرن القصير، بيد أن هذه الخصائص تشمل بروز مفهوم "الحرب العادلة" و"الحرب غير العادلة"، فهل من العدل فى رأيك أن تشن الدول الديمقراطية الحرب على الديكتاتوريين باسم حقوق الإنسان العالمية ؟

تنتابنى هنا بعض الشكوك . إذ لا يبدو لى أن الحكومات تخوض حرباً؛ لأنها عادلة أو غير عادلة، ومن الطبيعى أنها تحاول تبرير ذلك بغرض حشد مساندة عامة يزعمها أنها عادلة، ومن الأهمية إقناع الرأى العام، ومن الأمور الحاسمة تقديم الحرب بطريقة يتصور بها الناس أنها مشروعة وعادلة، غير أنه من العسير للغاية أن نجد أمثلة تاريخية لحكومات شنت حرباً لسبب آخر غير مصالحها القومية.

ومن الجلى أنه ثمة استثناءات لذلك ، ومنها النظم الثورية أى تلك التى جاءت تعبيراً عن ثورة والتى قد تخوض - أحياناً - حرباً لأسباب أخرى قوامها المثل الأخلاقية أو الأيديولوجية أو التحرر الوطنى، لكن حتى هذه النظم ما أن تحقق الاستقرار حتى

(١) Luai tamia سفينة بريطانية أغرقها غواصة ألمانية قبالة سواحل إيرلندا فى ٧ مايو ١٩١٥ وكان على متنها ١٢٠٠ جندي من بينهم ١٢٠ من الأمريكيين، واكتفى ولسون بتوجيه احتجاجات إلى ألمانيا. واقتضى الأمر وقوع أحداث مماثلة واشتعال حرب الغواصات وما استتبع ذلك من مضاعفات اقتصادية لكى تدخل الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى، أما حادث خليج تونكن فقد تمثل فى هجوم السفن الحربية الفيتنامية على المدمرات الأمريكية الموجودة فى الخليج، وكان ذلك فى عام ١٩٦٤ أى قبل أن تبدأ الولايات المتحدة حربها فى فيتنام (المترجم).

تتبنى سياسات خارجية مماثلة تماماً لسياسات الدول وتشرع فى العمل على أساس من المصالح القومية.

وفى هذا الصدد علينا أن نتذكر دائماً أن الولايات المتحدة الأمريكية تمثل - إلى حد ما - قوة إيديولوجية نشأت - مثلها مثل الاتحاد السوفيتى - من ثورة ولهذا تشعر بالحاجة إلى أن تقود العالم بما يتمشى مع مبادئها، كجزء رئيسى من سياستها الخارجية.

ويمكن أن يكون ذلك بالغ الخطورة . ولا ينتابنى أدنى شك فى أن الولايات المتحدة تود أن تغير العالم وإن حماية حقوق الإنسان جزء من طموحاتها، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يمكن أن يتبادر إلى ذهنى - ولو مرة واحدة - أن - الولايات المتحدة ذهبت إلى الحرب مدفوعة فقط بفعل الخير دون أن يكون ذلك منظوياً على مصالح قومية مهمة.

واليوم يدور جدل أصيل - بلا أدنى ريب - حول أهمية حقوق الإنسان من أجل تأكيد إلى أى مدى يمكن ضمان الدفاع عنها باستخدام القوة المسلحة، لكننى مازلت مقتنعاً بأنه لا الولايات المتحدة ولا حلف الأطلنطى (الناتو) فكراً جيداً فى خوض الحرب كلية على أساس من المبادئ والقيم الأخلاقية، بل إنه حتى الحرب العالمية الثانية لم يتم خوضها من أجل هذه المبادئ . وحقا كان الحلفاء على صواب وأنقذ انتصارهم العالم من النازية، ولكن هتتر هو الذى جر الديمقراطية الغربية والاتحاد السوفيتى إلى هذه الحرب كما جرت اليابان الولايات المتحدة.

لقد مرت بتجربة معاداة السامية فى ألمانيا، بسبب أصلك اليهودى، وبالنسبة لك لم يكن يوم ٢٠ يناير ١٩٩٢ هو - فقط - اليوم الذى أصبح فيه هتتر مستشار الرايخستاج ؛ لأنك تتذكره أيضاً بوصفه "أصيل شتاء فى برلين" عندما كنت فى سن الخامسة عشرة عائداً إلى المنزل مع شقيقتك الصغرى من المدرسة فى wilmersdorf ، وشاهدت أثناء سيرك فى الطريق عناوين الصحف، وأنت مازلت تستطيع قراءة هذه العناوين ، كما لو كانت حلماً تقريباً" فهل تشعر أيضاً مثل Elie wiesel^(١) أنه لابد من وقف الكراهية

(١) كاتب أمريكى معاصر حاصل على جائزة نوبل للسلام ومن أشد الأنصار المتحمسين لدولة إسرائيل - المترجم.

العنصرية (الإثنية) حتى ولو اقتضى ذلك استخدام القوة ، قبل أن يستفحل ضررها ؟
هل تعتقد أن " التطهير العرقي " لملوسيفيتسن يشكل جريمة إبادة جماعية ، تقارن
بالمحرقة (الهولوكست) ؟

لا أظن ذلك، فقد أفرط في استعمال تعبير "الإبادة الجماعية" ولذلك فقد بعضاً من
معناه، كما حدث شيء مماثل لكلمة "الفاشية"، فالإبادة الجماعية عبارة عن خطة
لاستئصال جماعة إثنية (عرقية) بكاملها وعلى نحو ما فهي امتداد منطقي ومتطرف
للتطهير العرقي، وعلى سبيل المثال، برزت معلومات - حالياً - تشير إلى أن التطهير
العرقي في سريريمنتشيا قارب الإبادة الجماعية. ومع ذلك، فثمة خلاف جوهري بين
إقصاء الناس وإبعادهم عن أرضهم وأن تخبرهم : "اذهبوا بعيداً إلى مكان آخر" وبين
ممارسة القضاء التام عليهم، لقد قتل النازي الرجال والنساء والأطفال اليهود وما حدث
في التطهير العرقي هو ترحيل النساء وكبار السن من الرجال والأطفال وانتفاء من هم
في سن القتال من أجل سجنهم والقضاء عليهم جسدياً، وهذا لا يقلل بأي حال من
الأحوال الخطورة الأخلاقية للتطهير العرقي، غير أنني أعتقد أنه يتعين علينا أن نكون
قادرين على إجراء هذا التمايز في التحليل، فالتطهير العرقي ظاهرة تحدث بدرجات
متفاوتة من الخطورة ويمكن أن يصل إلى حد الإبادة الجماعية، وهو عمل خسيس
وحقير في حد ذاته بحيث لا يحتاج إلى جعله أسوأ عن طريق اعتباره مماثلاً أو مطابقاً
للإبادة الجماعية، والحق أن الجنرالات والسياسيين - وإن كان لا يود أحد مناقشة
ذلك علناً - لا يترددون في أن يؤكدوا في أحاديثهم الخاصة أن التطهير العرقي
قد ساعد تاريخياً - في أحيان كثيرة - على تبسيط المشاكل، وهذا سبب آخر يجعلني
أتشكك في البواعث الأخلاقية للحرب في كوسوفا، وإذا لم يكن الألمان قد طردوا من
سلوفينا فهل كان من الممكن أن يكون هذا البلد هو المكان الهادئ المسالم الذي نعرفه
اليوم ؟ وفي النهاية فإن النزاع في البوسنة انتهى إلى فصل السكان المختلفين الذين
عاشوا في بقاع مختلفة من هذا البلد، وأعتقد - من الناحية الشخصية - أنه كان من
الخطأ السماح بحدوث هذا ، حتى ولو كان الأمر مسألة مبدأ، ولا ينبغي حتى مناقشته
باعتباره حلاً نظرياً أو ممكناً، ولكننا نعيش في عالم عنيف للغاية ، وقد يحدث.

وإذا لم يكن يوجد واجب أخلاقي يدفع حلف الأطلنطي للقيام بذلك فما هي المصلحة - إذن - التي دفعت البلدان الأعضاء في الحلف إلى ضرب صربيا بالقنابل ؟

لقد كان الهدف بالنسبة لبعض بلدان الحلف عدم فقد المصلحة مع الولايات المتحدة.. وكان ذلك وضع بلدان مثل بولندا التي ليس لها أى مصلحة محددة في كوسوفا، ومن المؤكد أنها لم تفكر أن عليها أن تشارك في حرب بعد أن انضمت إلى الحلف، وبلدان أخرى كثيرة كانت لديها جداول أعمال (برامج) معينة مثل إيطاليا وفرنسا. وبالنسبة لبريطانيا العظمى فإن المبدأ التقليدي لسياستها الخارجية الذي تتمسك به وتفكر بمقتضاه، هو أن عليها أن تظل منحازة مائة في المائة إلى الولايات المتحدة، ولم أقل أن الباقي كان رياءً ونفاقاً؛ لأن هناك من يعتقدون بإخلاص فيما يقولون، لكن من المؤكد أنه ليس دافعاً جدياً للحرب.

وفيما يتعلق بالأمريكيين فإن الحرب في كوسوفا مسألة أكثر تعقيداً بكثير، وبداية فإن الأمريكيين اهتموا بالبلقان ، لأن أوروبا أخفقت على نحو دراماتيكي في جلب الاستقرار إلى المنطقة في مستهل تسعينيات القرن الماضي، ولذا تعين على الأمريكيين أن يتدخلوا؛ لأنهم فهموا في ذلك الوقت - بوصفهم القوة العظمى الوحيدة - أنه لا يمكن أن يظلوا بعيداً عن تطورات الأحداث وذلك لأن جزءاً - على الأقل - من البلقان يعد منطقة استراتيجية لها أهمية بالغة من الناحية الجغرافية لبنية حلف الأطلنطي بحيث لا يمكن تجاهلها، وفي الحقيقة كان الأمريكيون أول من أرسل قوات مسلحة إلى مقدونيا منذ عام ١٩٩٢ ، وأعربوا صراحة في عهد بوش (الأب) عن مصلحتهم الاستراتيجية في يوغسلافيا بما في ذلك مصير كوسوفا، وفعلوا ذلك لأسباب عديدة ليس أقلها إدراك أن الأمم المتحدة لن تكون قادرة على مجابهة أزمة البوسنة وإيجاد حل لها، بما أنها ليست قوة مستقلة وإنما تنص على أساس السلطة التي تخولها إياها القوى العظمى، وهكذا وجدت الولايات المتحدة نفسها بعد انتهاء حرب البوسنة في وضع لا تستطيع أن تتحلل منه ، وإن كان لا يمكنها أن تتصرف بمفردها دون مساندة الحلف. وفي رأيي أن الولايات المتحدة رأت - أيضاً - في أزمة البوسنة فرصة متاحة؛ لكي تخلع على حلف الأطلنطي بوراً جديداً ، وتمنحه غاية ومغزى جديدين عقب انتهاء الحرب الباردة ،

وهو طموح لم أفهمه وأتبينه تماماً بعد، واليوم تعتبر الولايات المتحدة نفسها قوة تقع عليها مهمة تحقيق استقرار العالم وأن تلجأ - عند الضرورة - إلى عمليات الشرطة الدولية وبذلك عليها أن تثبت أن قوتها تستطيع - إذا لزم الأمر - التدخل فى أى بقعة على الكرة الأرضية؛ لى تقهر الأعداء المحتملين خارج منطقة الناتو.

إن مستقبل حلف الأطلسى هو السبب الحقيقى لتدخل الحلف فى الحرب، ولا يجب أن يغرب عن البال أنه عندما عدّ كليتتون الأسباب التى دعت إلى اتخاذ قرار حرب صربيا بالقنابل، كان أولها هو الدفاع عن مصداقية الحلف والوثوق به وبالتالي بالولايات المتحدة، ولا أعتقد أنه تصرف تصرفاً حسناً للغاية وحق نتائج باهرة ، غير أنه من الجلى أن الحلف شعر بضرورة أن يعمل شيئاً ما، ولكى يمكن حل الأزمة الإنسانية فقد كانت توجد أفعال أخرى كثيرة كان يمكن القيام بها.

- وما الذى يمكن عمله لوقف ديكتاتور يستطيع أن يأتى ما يشاء بشعبه هل يستبعد مسبقاً التدخل العسكرى ؟

- هناك استثناءات بطبيعة الحال، ومن الواضح أن البوسنة تمثل حالة وثيقة الصلة بالموضوع، ومن الناحية الأخرى ثمة عدة معايير يتعين اتباعها، وهناك مثالان مهمان على التدخل العسكرى الذى أوقف بنجاح جرائم ضد الإنسان ، وطرد حكماً ديكتاتوريين متوحشين، المثال الأول هو غزو فيتنام لكمبوديا للإطاحة بنظام بول بوت ، والمثال الثانى هو تدخل تنزانيا فى أوغندا عندما كان يحكمها عيى أمين، وأعتقد أن هذين التدخلين كان لهما ما يبررهما، لكن السبب الحقيقى الذى لا يجعلنى أبدي أية تحفظات على هذين الحربين هو نجاحهما وفعاليتهما فى تحقيق أهدافهما وفى فترة وجيزة نسبياً، وأحد التحفظات لدى على التدخل فى كوسوفا، هو أنه لم يتم بهذه الطريقة؛ لأنه كان واضحاً منذ البداية أن إسقاط عدة قنابل على صربيا سوف يعمل على أن تسوء أوضاع اللاجئين وتتفاقم أحوالهم، وعلى أن أضيف أن الولايات المتحدة والصين استمرت لسنوات - بعد قضاء فيتنام على نظام حكم بول بوت - فى تقديم مساعدة لقوات الديكتاتور، مما يبين بوضوح أيضاً أن سياسات الدول والقوى لا تحدها

فى المقام الأول الاعتبارات الأخلاقية ، وبالطريقة نفسها فإننى أرى أن التدخل الإنسانى فى البوسنة لم يتم تصوره وإدارته بالفعل على هذا النحو، وبذلك لم يكن فعالاً، فقد أعلنوا أنهم سوف يحمون المقاطعات أو الأقاليم المحصورة ، لكنهم لم يتخذوا أى إجراء يمكن أن يكفل تحقيق هذا الهدف.

وإننى أعتقد أن التدخل فى الشئون الداخلية لدولة ما، وعلى وجه التحديد لسبب الاندماج الجديد بين السياسة الداخلية والسياسة الدولية، يجب أن يستجيب لقواعد ومعايير محددة بوضوح تام، ويستلزم الأمر إجراء نقاشين حول هذا الموضوع، وما هى القواعد الجديدة لنظام القوى الدولى؟ ونحتاج إلى العودة إلى وضع لا يستطيع فيه أحد أن يقوم بعمل عسكري دون وجود توافق واسع النطاق ودون أن يستند إلى مبررات جادة ولا يستطيع العالم أن يسير ويعمل إذا ما كان فى وسع أحد أن يقول فقط : "إننى قوى بما فيه الكفاية لكى أفعل ما أريد ، ولذلك سوف أقوم به".

- لقد حارب الصرب دفاعاً عن سيادة الدولة القومية (الأمة - الدولة) وتمرد ألبان كوسوفا؛ لأنهم ينتمون من الناحية العرقية (الإثنية) إلى أمة أخرى، ومن المفترض أن العولة بشرت بنهاية الدولة القومية ، ومع ذلك فهى موجودة - أيضاً - تلفها على نحو متزايد كذلك غلالة من التبريرات العرقية والدينية ، ترجع جذورها التاريخية إلى العصور الوسطى. فماذا يحدث ؟

- يتعين علينا أن نميز بين معنيين لمصطلح الدولة القومية (الأمة - الدولة) وهى تعنى فى التعريف التقليدى دولة ذات أراضى إقليمية يتمتع الشعب الذى يعيش فيها - الأمة - بسلطة سيادته، ذلك هو معنى القومية (الأمة - الدولة) الذى انبثق من الثورة الفرنسية وجزئياً من الثورة الأمريكية، وذلك تعريف سياسى للدولة ولا يعد تعريفاً عرقياً أو لغوياً :

فالشعب هو الذى يختار حكومته ويقرر العيش بدستور معين و قوانين معينة، وبالمقارنة فإن المعنى الآخر الذى اتخذ هذا المصطلح أكثر حداثة، ويتكون من الفكرة القائلة: إن كل دولة إقليمية تنتمى إلى شعب معين ، تحدده خصائص وسمات معينة

عرقية ولغوية وثقافية وهو ما يشكل الأمة، ووفقاً لهذه الفكرة فإن أمة واحدة - فقط - هي التي تعيش في الدولة القومية ويعتبر الآخرون أقليات تعيش في المكان نفسه لكنهم لا يشكلون جزءاً من الأمة، ويعيش كلا النوعين من الدولة القومية في أزمة ، غير أنه يتعين علينا أن نميز بينهما، وما نجده في يوغوسلافيا هو انهيار دولة تعايشت فيها أمم شتى بالمعنى الإثنى للكلمة، حيث نشهد تحولها إلى دول عديدة تعمل كل منها على إقصاء الأمم الأخرى وحرمانها التمتع بحق المواطنة.

ويقدر ما أستطيع أن أرى هناك إمارات ضئيلة للغاية فعلاً من الضغط الجماهيري من أسفل؛ لكي يتحقق انتهاء الدول المتعددة القوميات - على الأقل - في ظروف عادية، وقد رأينا ذلك مؤخراً في حالة إسكتلندا وويلز، فهذان الشعبان يشعران بوضوح بعدم انتمائهما إلى الإنجليز وإن يجيزا اعتبارهما كذلك ، لكن حتى الآن ومع وجود حركات قومية الطابع وقوية وحتى مع وجود انفصاليين في هذين البلدين ، فما زالت هذه الحركات منتشرة بين أقلية من سكانها، وحتى اليوم لا أعتقد أنه يوجد مثال واحد على انفصال تقرر بموجب تصويت ديمقراطي أصيل، ولا أقول إن ذلك من المستحيل ألا يحدث، وإنما أقول إنه برغم كثرة الحديث عن حق تقرير المصير فلم يحدث في الواقع أبداً، وعندما نتحدث عن حق الشعوب في تقرير مصيرها علينا أن ندرك حقيقة أننا لا نتحدث عن حركة قوية من أسفل (شعبية). ومن الطبيعي أنه حالماً يحدث انفصال في الواقع ومهما كانت أسبابه التاريخية فمن اليسير أن تجد أغلبية مناصرة له ، بل أغلبية كبيرة أحياناً، وحالماً تنقسم الدول متعددة القوميات وتتحطم فعندئذ - وعندئذ فقط - تضطر الجماعات الإقليمية إلى أن تجد ارتباطات جديدة وتختار ولاءات جديدة.

ويوغوسلافيا خير مثال على ذلك فقد كانت دولة متعددة القوميات، ولم يوجد أي مبرر معقول - في رأيي - يدعو إلى الاعتقاد بأنها كانت سوف تتفتت نتيجة للضغط السياسي الذي تمارسه مكوناتها القومية ، كما لم يوجد أي مبرر للاعتقاد بأن الاتحاد السوفيتي كان سوف ينفجر بسبب الضغوط الداخلية للقوميات، وحتى في حالة إمبراطورية هابسبورج لم يوجد خطر حقيقي للتفتت التام، على الأقل ليس قبل اندلاع الحرب نفسها.

وإن أكثر ما يمكن قوله إنه وجدت ضغوط تحررية وجدوية^(١) للانفصال والانضمام إلى أمة أخرى بالنسبة لبضع قوميات كانت تضمها الإمبراطورية، وعلى سبيل المثال فيما بين الأقليات الإيطالية والرومانية التي شجعها القرب الجغرافي من الدول التي تنتمي إليها قوميتها، والحقيقة إنه عندما تنزول الإمبراطوريات - لأي سبب كان - فإن القوميات تضطر إلى أن تبتدع الحلول البديلة، لمجرد أن تجد تبريراً لما حدث.

كيف اخترع التاريخ مبررات قومية، لكي يخلق توافقاً وإجماعاً من حول نظام معين؟ وكيف يمكن لهزيمة عسكرية في القرن الرابع عشر أن تتحول إلى أسطورة مؤسسة لقومية حربية جديدة بعد ستة قرون؟

تعد الأساطير القومية مجالاً آخر يتعين عليك أن تميز فيه بين ما يأتى من أسفل وبين ما يفرض من أعلى، فالأساطير القومية لا تنشأ عفويًا من الخبرات والتجارب الفعلية للشعب ولكنه يكتبها من أشياء أخرى أو أشخاص آخرين: من الكتب ومن المؤرخين ومن الأفلام وحاليًا من أولئك الذين يصنعون التليفزيون، وهى لا تشكل بوجه عام جزءاً من الذاكرة التاريخية أو الموروث الحى، باستثناء بعض الحالات الخاصة، حيث يكون ما قد يصبح فى نهاية الأمر أسطورة قومية هو ثمرة من ثمار الدين، وهناك حالة اليهود، حيث يشكل الطرد من أرض إسرائيل والعودة المؤكدة إليها جزءاً من الممارسة الدينية والأدب، وضمن حدود معينة فإن هذا يصدق - أيضاً - على الصرب لأن خسران الدولة الصربية فى العصور الوسطى أصبح جزءاً من الطقوس الدينية الأرثوذكسية وأضحى جميع أمراء الصرب - تقريباً - رموز الإيمان الأرثوذكسى، وتلك حالة خاصة، ولكن هنا أيضاً فإن الأمر لا يتعلق بشعب يتذكر دائماً، فهو يتذكر لأن هناك من يذكره باستمرار.

والمثال المتطرف - وهو تصوير بارع لهذه العملية - هو حالة إسرائيل ولا يمكن أن يوجد أدنى شك فى أن الأسطورة التاريخية للطرد من فلسطين وحلم العودة إليها

(١) إشارة إلى مبدأ سياسى ينادى بتحرير المقاطعات المتصلة تاريخياً أو عرقياً بوحدة سياسية ما (والتي تخضع فى حينها لوحدة أخرى) وجمعها فى نطاق هذه الوحدة الطبيعية (م).

لم يتم تصورها كبرنامج سياسى قبل نهاية القرن التاسع عشر، والحق أنها تأسست بمعزل عن المصائر التاريخية للشعب اليهودى، ولم تعتبر العودة إلى إسرائيل - بقرون - هدفاً عملياً ، لأن اليهود اعتقدوا أنهم لن يعودوا إلى القدس قبل أن يأتى المسيح وبطبيعة الحال فإن اليهود اعتقدوا ومازالوا يعتقدون أن المسيح لم يأت بعد، والحق أنه فى ١٩٦٧ فقط - وللمرة الأولى - وجد اتجاه داخل الديانة اليهودية لقبول دولة إسرائيل ، على أساس أن الانتصارات التى تحققت فى حرب الأيام الستة تتسم بطابع إعجازى للغاية ، بحيث تشير إلى أننا ندخل فعلاً فى الفترة التى سبقت فيها المسيح، وقد كانت أحداث التاريخ التى جاءت مصادفة هى التى جعلت من الممكن للإيمان التقليدى (الأرثوذكسى) أن يتقبل ما كان يرفضه كليةً حتى ذلك الوقت.

وفى الواقع أن الصهيونية قد عارضتها دائماً وبشراسة الديانة اليهودية التقليدية (الأرثوذكسية). وعلى أى حال فإن إسرائيل وجد اليوم، وإن إسرائيل ليس لها أى أساس تاريخى، وعلى النقيض تماماً فهى تتعارض مع مجمل تاريخ الشعب اليهودى ، بدءاً من الإمبراطورية الرومانية حتى نهاية القرن التاسع عشر، وإن التاريخ الوحيد الذى تستطيع إسرائيل أن تستخدمه لتبرير نفسها هو التاريخ الذى يبلغ عمره ألفى عام على الأقل، وكل شىء آخر حدث فى غصون ذلك يجرى حجه والتغطاى عنه؛ لأنه لا يبرر الأساس الذى تقوم عليه إسرائيل والحروب التى خاضتها تلك الدولة. وحقيقة أن المعبد أقيم فى القدس قد تحولت إلى حقيقة سياسية حديثة؛ لكى يمكن زعم أن القدس كانت يوماً مركز الديانة اليهودية وبالتالي عاصمة الشعب اليهودى (وفوق ذلك لا معنى للحديث عن العواصم فى فترة سابقة على الإمبراطورية الرومانية ، لكن تلك مسألة أخرى) وعلى أى حال فقد استخدم اليهود حجة المعبد؛ لكى يبرروا ليس فقط الأساس الذى تقوم عليه دولتهم ، بل قيام القدس كعاصمة لهم.

إن هذه الحجة تماثل بدرجة أو أخرى تلك التى استخدمها الصرب فى كوسوفا، وبهذه الطريقة يتم تبرير وضع سياسى راهن بما لا علاقة له بالحاضر، لكنه كان حقيقياً منذ ستة قرون أو ألفى عام، ويستخدم لإعادة ترتيب كل ما حدث فى الفترة

المتخللة بينهما، وبذا يخلق تاريخ مناضل وبطولى على نحو كاف، وهو ما كان مناسباً لإسرائيل فى ١٩٤٥ أو لصربيا اليوم، وأفضل مثال على ذلك هو ما أصبح نوعاً من الشعيرة أو الاحتفال التاريخى ومحوره صخرة أو قلعة المسادا (مسدة) masada^(١) ووفقاً لعلماء الآثار القوميين فإن مسدة هى المكان الذى قاوم فيه تسعمائة يهودى الحصار الرومانى حتى النهاية، مفضلين الانتحار الجماعى، وقد تحولت هذه الحادثة إلى شعيرة قومية يشارك فيها كل شاب إسرائيلى فى مكان يزوره السياح الأجانب، وقد أنجزت هذه العملية عبر الزمن وعلى وجه الإجمال مع إخفاء تلك الجوانب من القصة التى لا تلاءم الهدف القومى، وإسرائيل مجرد مثال واحد ، وإن يكن مثلاً دالاً، إن علم الآثار الإسرائيلى الذى اصطبغ بصبغة سياسية باللغة منذ البداية ، قد أهمل - تقريباً - جميع الجوانب الأخرى المتعلقة بالآثار المحلية بغرض التركيز على تبرير الأسس والدعائم التى تنهض عليها إيديولوجية وطنية قومية.

ويصدق الشيء نفسه على اليونان القديمة، وعندما أصبحت مستقلة فلم تكن أثينا عاصمتها بأى حال من الأحوال، ولم تصبح فى واقع الأمر عاصمة لليونان على الإطلاق، وقد كانت مدينة مهمة للغاية فى العصور الوسطى القديمة الكلاسيكية، بيد أنها اختيرت كعاصمة من قبل أولئك الذين احتاجوا - كما حدث فى إسرائيل - العودة إلى ماضٍ جديد له صلة محدودة بالواقع التاريخى، وفضلاً عن هذا فإن ٥٠٪ من سكان أثينا كانوا من الألبان، وقد غدت ما قد أصبحت عليه عندما أعاد تشييدها الملك البافارى الجديد فى أسلوب نيو كلاسيكى ، بحيث يمكنها البداية فى التشبه بما زعموا أنها كانت عليه يوماً : عاصمة اليونان قديماً الموحدة، ويقول آخر فإن الماضى أعيد تصميمه ، على نحو يشبه قليلاً تصميم الأزياء الفاخرة؛ لكى يمكن إضفاء هدف سياسى معين

(١) قلعة المسادا تقع فى فلسطين بالقرب من البحر الميت لجأت إليها طائفة يهودية بعد استيلاء الرومان على أورشليم، وقد حاصرها الرومان لمدة عامين. وفضل سكانها الانتحار الجماعى على الاستسلام، وعندما دخلها الرومان وجدوا سبعة أحياء فقط، وقد أصبح هذا المكان مراراً سياحياً. وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن هذه المجموعة عبارة عن عصاة من القتل عرفت بلجونها إلى الاغتيال السياسى وقد تم طردهم على أيدي اليهود أنفسهم وهلكوا فى أعلى المسادا. (٢) عام ١٨٢٠ م.

فى ملبس أنىق بحيث تستطيع الصفوات والأقليات المثقفة التى تحكم فرص رؤيتها للتارىخ والأدب على بقية الشعب.

ووقت الاستقلال (١٨٢٠) لم يفكر اليونانى العارى البتة فى فكرة اليونان الحديثة كورث لليونان القديمة وأثينا وبيركليس، ولم يشترك اليونان فى القتال لاستعادة العصور القديمة الكلاسيكية وإنما على الأرجح؛ لأنهم شعروا أنهم كانوا يقاتلون دفاعاً عن العقيدة الأرثوذكسية ضد الأتراك ومن أجل الإمبراطورية البيزنطية ضد من أوقعوا بها الهزيمة، وكانت بيزنطة والعقيدة الأرثوذكسية هما الموروث الحى الحقيقى لليونان.

وبطبيعة الحال عندما تنشأ دولة جديدة بنظام تعليمى جديد فإن الشعب يتعلم إن عاجلاً أو آجلاً، ويتأثر إلى حد ما بعملية الاستعادة والتعمير التاريخية هذه، وفى حالة اليونان فقد حاولوا إيجاد لغة أدبية جديدة أقرب إلى اللغة الكلاسيكية.

وهناك عامل آخر قوى صالح فى كل مكان وليس فقط عند تأسيس الدول الجديدة ، وهو الاحتياج إلى "الدائم" و "الأساسى" أو "الأصلى" ويكتسب ذلك أهمية سيكولوجية عظمت عند الأفراد والجماعات على السواء ، ولا سيما فى النصف الأخير من القرن العشرين ، حقبة التغير وعدم الأمن المطرد وحتى فى المناطق التى لا يمكن العيش فيها فى انعزال ، مثل الولايات المتحدة حيث تأتى موجة وراء موجة من القادمين الجدد بغرض الاستقرار، فإننا نستطيع أن نرى بروز الحاجة إلى أن تكون لك الأولوية أو الأسبقية ، وأن تكون قادراً على القول نحن هنا، وتلك أرضنا، ولا آخرين أتوا لاحقاً أو بعدنا، فنحن الذين كنا هنا دائماً وأبداً وذلك نوع من الرواية الدنيوية للأبدية.

وهو ما يذكرنى بالمثال الفريد للحركات السياسية للهنود الأمريكيين، ويتفق دارسو ما قبل التاريخ عامةً على أن الجنس البشرى وصل إلى أمريكا عن طريق وصول المحيط الهادى من شمال شرق آسيا إلى ألاسكا ، ثم استعمر القارة تدريجياً، وحدث ذلك مؤخراً نسبياً ، أى منذ حوالى مائة ألف سنة. وبالنسبة للنشطاء فى حكومة السكان

الأمريكيين الأصليين^(١) فإن هذا يعد لبعض الأسباب نظرية غير مقبولة تماماً ، لأنها تجعلهم أحدث أو أصغر سنًا أكثر مما ينبغي، وهكذا من الممكن أن تجد خبراء يقولون "نحن لأنهم بما يقولوه ما قبل التاريخ، فقد كنا هنا دائماً ونحن هنا قبل أى أحد آخر فى العالم" وتوحى إلى عدم معقولية هذا الزعم بأنه لا بد وأن تكون له جاذبية عاطفة صادقة وقوية للغاية، وهو ما يصدق بصفه خاصة على أولئك الذين ليس فى وسعهم - لأسباب أخرى - أن يكونوا متأكدين من فرادتهم الاستثنائية أو من بقائهم دائماً حيث هم ، لأنهم تعرضوا لامتزاج متواصل وتحركات مستمرة حول الكرة الأرضية.

ويعتبر - لبعض الأسباب - ميزة من زاوية علم النفس الاجتماعى - أن يكون فى وسعك أن تتباهى بتاريخ ممتد، ولهذا السبب فإن النزعة القومية برغم كونها ظاهرة حديثة تزعم دائماً أنها قديمة للغاية، وذلك لأن العصر القديم المهيّب يشبع الحاجة الديمومة وحقوق التقدم والسبق على الآخرين، وبناء عليه فتلك ظاهرة بالغة التعقيد ، ولا نستطيع تفسيرها إلا من خلال عمليات التقريب ولا توجد تفسيرات وحيدة مقنعة.

(١) ابتداء من الخمسينيات استخدام مصطلح native بدلاً من الهنود الأمريكية وأصبح سائداً منذ سبعينيات القرن الماضى، ويفضله البعض باعتباره أكثر دقة للدلالة على السكان الأصليين لأمريكا وربما كان أكثر تحديداً من مصطلح الهنود الأمريكيين (م).

الفصل الثانی

انحطاط الإمبراطورية الغربية

إن الانفجارات ذات الطابع القومي - التي حلتها آنفاً - رافقتها - مع ذلك - انحلال الدول في بقاع كثيرة من العالم وانتهيار المؤسسات والنظم القانونية والاستعاضة عنها بحكم العصابات العنيفة والجماعات الإثنية (العرقية). وعلى النقيض - مما سبق - فإنه يمكن أن يستعاض عنها ببساطة ، كما في حالة الملاذات الضريبية بمجالس إدارية للرأسمالية الكونية. فما هو مستقبل الدولة بوصفها مؤسسة في القرن القادم؟

- أعتقد أننا نواجه عكس العملية التي امتدت لقرون الموجة التاريخية الطويلة التي تحركت صوب التشييد والدعم التدريجي للدول الإقليمية أو الدول القومية (الأمة - الدولة) بالمعنى السياسى لهذا المصطلح، وهو اتجاه هيمن على العالم المتقدم على أقل تقدير منذ القرن السادس عشر إلى حوالى - فلنقل - ستينيات القرن العشرين. والأمر المثير للاهتمام أن هذه العملية تطورت كليةً في معزل عن الطابع الأيديولوجى للدول، خاصة منذ القرن الثامن عشر، وانطبق ذلك على جميع نظم الحكم ، بغض النظر عما إذا كانت الدولة ليبرالية أو محافظة أو فاشية أو غير ذلك، وغدت الدولة قادرة أكثر فأكثر على تحديد المنطقة التي تحكمها والسكان الذين تحكمهم، وتزود بقدر هائل ومتزايد يوماً من المعلومات المتصلة بسيادتها ، وأضحت أكثر فعالية في أداء واجباتها الإدارية. ويقول آخر، اكتسبت مسؤولياتها ومجالات تدخلها، وعندما بلغت هذه العملية أوجهاً في منتصف القرن القصير، لم يبق إلا النذر اليسير لم يكن خاضعاً لسيطرة الدولة.

ولعلك تتذكر نظرية المواطنة التي قدمها توماس مارشال عالم الاجتماع الإنجليزي، إذ تأتي في المقدمة المواطنة المدنية والقانونية ومواطنة الحقوق ، ثم المواطنة السياسية التي تنطوي على المشاركة، وأخيراً تأتي المواطنة الاجتماعية، وبالنسبة للدولة فهذا يعنى أنها تولت احتكار القانون وحولته إلى قانون دولة، ثم أصبحت السياسة سياسة قومية وخضعت لها جميع الأشكال الأخرى للسياسة أو غدت تعتمد عليها. وأخيراً وسعت الدولة مجال نشاطها.

بدءاً من فرص سيطرتها على جيشها ، منذ القرن السابع عشر على الأقل وانتهاءً بإدارة الصناعات ، وتخطيط الاقتصاديات بأكملها بحث لم يظل أى شيء - تقريباً - خارج نطاق سيطرتها، ولا أشير هنا إلى نظام الحكم الشمولى ولو كانت المملكة المتحدة أكثر دولة ليبرالية فى مستهل القرن الثامن عشر بالغة القوة فعلاً، ليس فقط فيما يتعلق بمعرفة ماذا كان يحدث داخل أراضيها، بل أيضاً فى إدارتها والتحكم فيها.

وحتى القرن التاسع عشر لم يكن فى استطاعة أى دولة أن تضطلع بإجراء تعداد دقيق للسكان، وقبل ذلك كان من المستحيل فعلياً وجود نظام فى وسعه أن يراقب عملياً سكان الريف. حتى أنه كان من الصعب معرفة الأوضاع الدقيقة للحدود الإقليمية للسيادة القومية، وبالرغم من وجود جبال البرانس التى تشكل حداً فاصلاً بكل وضوح ، فلم يتم ترسيم الحدود بين فرنسا وإسبانيا على نحو تفصيلي إلا بموجب معاهدة ١٨٦٨م، وهذا الاتجاه لدى الدول الإقليمية لزيادة تدقيقها ومعارفها وقدرتها التكنولوجية وسلطانها وطموحها استمر دون انقطاع - تقريباً - حتى أثناء الفترة التى سادت فيها الاقتصاديات الحرة التى رفعت شعار "دعه يعمل"، وتواصل إلى نهاية عقد الستينات.

ومثالان على ذلك : أحدهما هو النجاح الفائق الذى حققته الدول الرئيسية فى العالم إبان القرن التاسع عشر فى مجال نزع سلاح شعوبها، وبمعنى آخر منحت وكالاتها وهيئاتها احتكار وسائل القهر والقمع، وقبل ذلك كان نزع سلاح الفلاحين أيسر من نزع سلاح النبلاء، وقد ناقش مكيافيللى هذه المشكلة باستفاضة.

وفى القرن التاسع عشر، فإن مقدرة غالبية الدول على منع السكان من التجوال مسلحين جديرة بالملاحظة حقاً، وتعد الولايات المتحدة من الاستثناءات النادرة، حيث اختارت ألا تفعل ذلك، برغم أنها كانت تستطيع القيام به، وهو ما فعلته كندا مثلاً، والمثال الآخر هو الحفاظ على النظام العام، الذى يعد جزءاً من الظاهرة نفسها. وكان مستوى النظام العام فى البلدان المتقدمة فى أوروبا حدثاً تاريخياً خارقاً للعادة تماماً.

وهناك عامل آخر لم يتحقق مع مقدم الديمقراطية بقدر ما تحقق مع انغماس الناس العاديين فى العملية السياسية، وهذا العامل هو الولاء التطوعى وخضوع المواطنين لحكوماتهم، وهذا الولاء ليس للنبلأ أو الأرستقراطيين وإنما للدولة والأمة، والحروب التى قامت على أساس التجنيد ما كان ممكناً أن تفشى دون هذا الولاء.

وربما نتذكر ما كتبه توماس هوبز "إن الأمر الوحيد الذى لا تستطيع أى دولة، ولا حتى الطاغية الديكتاتورية، أن تقوم به هو أن يجبر الناس على القتل وأن يكونوا راغبين فى أن يقتلوا" ومع ذلك، فإن الدول الحديثة تمكنت من أن تفعل هذا على وجه الدقة وأن تقوم به مراراً وتكراراً.

وعلى الرغم من أنها فعلت ذلك مراراً عن طريق التجنيد، فإنها نجحت فى ذلك - أيضاً - عن طريق مناشدة المواطنين وإقناعهم بأنه إذا كان عليهم أن يتحلوا مع الجماعة فعليهم أن يكونوا مستعدين للقيام بذلك الفعل السامى وهو التخلّى عن حريتهم وحياتهم.

واعتبرت الطاعة الاختيارية للدولة عنصراً أساسياً فى المقدرة على تعبئة السكان، وأيضاً فى تحقيق الديمقراطية. لقد تطورت هذه العملية عبر القرون وبلغت أوجهها فى ستينيات القرن العشرين، حالاً جرى تنظيم جميع البلدان - بما فى ذلك أكثرها رأسمالية - كدول تتمتع بسلطات ضخمة. وهو ما صدق على الولايات المتحدة أيضاً أكثر من غيرها.

ويبدو أن هذا الاتجاه بدأ يتوقف، ولست أدري ما إذا كان قد ارتد على أعقابهِ وإن كان من المؤكد أنه فقد زخمه منذ ستينيات القرن العشرين. ولكن واضحاً في هذا الصدد، إذ لا يعنى أن سلطة الدولة غدت مقيدة محدودة نظرياً على أقل تقدير. والحق أن مقدرتها على أن تكتشف ما يحدث داخل أراضيها - وإن تراقبه - مازالت أعظم مما كانت في أى وقت مضى، فالدولة الآن قادرة على التصنت على أى محادثة بالفعل، حتى ولو كانت على قمة جبل، ونحن نشهد نمواً هائلاً في استعمال كاميرات الفيديو التى تعمل طوال الوقت وبلا توقف، وتراقب كل مكان عام، وأصبحت درجة المراقبة الممكنة حالياً أكبر وأكثر تغلغلاً ونفاذاً مما كانت في أى وقت في التاريخ، ولذلك لا أستطيع القول إن الدولة فقدت سلطتها.

ومع ذلك فقدت الدولة إلى حد ما، على سبيل المثال احتكارها لوسائل القمع. وهو ما يرجع - جزئياً - إلى التيسير الهائل في بعض أنواع الأسلحة حالياً، كما يرجع أيضاً إلى تضائل عزوف المواطنين عن الاستخدام، وهو ما أعتقد أن له أهميته الخاصة. وبقول آخر، فإن التغيير يتمثل في أن المواطنين أصبحوا أقل استعداداً لطاعة قوانين الدولة مما كانوا عليه في الماضي، ومن أهم الأمثلة على هذه الظاهرة أحداث ١٩٦٨ . وإذا ما تمت المقارنة بين سلوك الطلبة من اليسار الجديد والرايكياليين في المحاكم الأمريكية وبين الموقف السابق للمدعى عليهم من الشيوعيين، فإننا نلاحظ إنه برغم أن الأخيرين رفضوا تقديم معلومات عن أنفسهم استناداً إلى المادة الخامسة المعدلة من الدستور الأمريكي (التي تتيح رفض الإدلاء بالشهادة المسيئة إلى النفس - المترجم) فإنهم تصرفوا بما يتمشى - تقريباً - مع القوانين السائدة التى قبلوها في مال الأمر، ولكن اليسار الجديد - من الناحية الأخرى - لم يتمش مع القوانين السائدة، رافضاً الإجراءات بكاملها، وتصرف كما لو لم يعد يعترف بالمبادئ الأساسية التى تنظم إدارة الشؤون العامة، والتى اعتبرت من قبل واجباً على كل مواطن.

ومثال آخر هو النظام العام، ففي سبعينيات القرن العشرين أبلغ قادة الشرطة البريطانية الحكومة أنه لم يعد ممكناً ضمان السلم الداخلى والنظام العام اللذين جرى

الحفاظ عليهما وكفالتهمما حتى الآن، وكانت المظاهرات التى نظمت ضد حرب فيتنام مثلاً آخر: حيث غدت أشبه بالانتفاضات منها بالمظاهرات السلمية، وقد بلغت قوة الدولة الحديثة ذروتها عندما كان الاحتجاج الاجتماعى يتم فى نطاق مؤسسى بطريقة أو أخرى كجزء من العملية السياسية العادية، كما لو كان شعيرة تقريباً. وقد انتهى ذلك أيضاً فى أوروبا فى السبعينيات من القرن العشرين.

وتمثل الدليل الواضح على هذه الظاهرة فى عدم المقدرة - عبر فترات طويلة من الزمن - على التخلص من القوى المسلحة المنظمة الموجودة داخل الأراضى الإقليمية التابعة للدولة القومية حتى فى ظل وجود حكومات قوية وعلى سبيل المثال فإن منظمة "IRA" الأيرلندية مثلت لمدة ثلاثين عاماً التعايش فى أيرلندا الشمالية بين إدارة حكومية عادية وعناصر لحكومة إقليمية خاضعة للسيطرة، وحدث هذا برغم حقيقة أن منظمة "IRA" يتوفر لديها عتاد ورجال أقل إلى حد بعيد مما هو متاح للدولة، ويمكن أن يكون هذا الأمر ظاهرة مؤقتة غير أن ما هو مؤكد أنه تقوى منذ السبعينيات من جراء تشبع الحكومات بعقيدة لاهوتية تؤمن بتفوق الأسواق الحرة، التى ينصب اهتمامها بوضوح على معاداة الدولة بغرض إضعافها مع العمل على عكس الاتجاه التاريخى عن عمد والمتمثل فى الدور المتزايد فى قوته للدول فى المجال الاقتصادى ومسئوليتها الأخرى بالحاجة.

ولا يعنى هذا تحلل الدول، وعلى الرغم من أنه قد تعين على بريطانيا العظمى أن تعيش فى وضع يشبه - تقريباً - الحرب الأهلية بين فصائل مختلفة لمدة ثلاثين عاماً فإن سلطتها لم تتحلل برغم أنها يمكن أن تكون قد ضعفت. بيد أنني أود أن أؤكد على حدوث تغير فى العلاقة بين الدولة وبين الأنشطة غير الخاضعة لدولة والتى تتم داخل حدودها الإقليمية.

ويتمثل الجانب الآخر للمشكلة فى تلك المناطق التى تتجه فيها جميع أشكال الدولة إلى زوال وتوجد الآن (وهو أمر جديد تماماً على ما أعتقد) مناطق شاسعة فى إفريقيا وأجزاء ضخمة فى وسط آسيا وغربها، حيث يتعذر من الناحية العملية الحديث عن دولة وظيفية، وربما يصدق ذلك على البلقان. ومن غير الواضح إلى أى مدى نستطيع أن

نتحدث اليوم عن دولة وظيفية فى ألبانيا . والتباين صارخ، لأنه وجدت دولة فى ألبانيا حتى نهاية الشيوعية تماماً كما وجدت فى شمال القوقاز، وإن لم يعد لها وجود، وأعتقد أن هذا الانعكاس فى عملية تقوية الدولة القومية (الدولة - الأمة) التى امتدت لقرون عديدة والتحلل والزوال العملى لبعض الدول إنما يرتبط بفقدان سياسة الدولة على الاحتكار الفعلى لقوة القهر والقمع، وفى بعض الأحوال لم يعد للدولة وجود كما فى أفغانستان، وحل محلها العداء المستحكم بين الفصائل المسلحة بدرجات مختلفة والتى ترتبط بدرجة أو أخرى بملاك الأرض والأرستقراطيين، وتتفائل هذه الفصائل بغية التوصل إلى نوع من التوازن كما حدث مع إقطاع القرن الخامس عشر. وفى أماكن أخرى، كما فى إفريقيا مثلاً، لم يصل الوضع إلى هذا النحو.

وأعتقد أن تحلل الدول فى هذه المناطق من العالم يعد بصفة أساسية ثمرة انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية ونهاية الحقبة التى سيطرت فيها القوى الأوروبية الكبرى على قطاعات واسعة من العلم، حيث وجدت مجتمعات غير محكومة بدول عليها قدرًا من النظام الداخلى والخارجى، وهو ما يسرى - أيضاً - على الأراضى التى فتحتها روسيا بعد ١٨٠٠ م، كما فى القوقاز، وقد اتضح الآن أن هذه العملية لم تكن فى حالات قليلة فقط أكثر من مجرد عملية فرص من الخارج، وفى ألبانيا مثلاً، حيث لم تقم دولة قبل ١٩١٣، بسبب عدم وجود ألبانيا، فإنه لا يمكن أن يوجد أدنى شك فى أنه نهضت دولة وظيفية فى ظل الحكم الشيوعى، حتى ولو كانت ثمرة حل وسط فيما بين قوى لا يضمها إطار دولة ما، لكن حالما زال هذا القطاع فى الواقع، ارتدت ألبانيا إلى نظام أشبه بحرب العشائر، كما حدث فى الشيشان.

ويلوح لى أن ما حدث فى هذه البقاع من العالم يماثل من بعض النواحي ما حدث فى أوروبا عقب سقوط الإمبراطورية الرومانية، فلم تعد توجد أى سلطة مركزية وتوفرت فى بعض الأحوال سلطات محلية تمكنت من أن تمارس مهامها، وفى أحوال أخرى حدث غزو من قبل جماعات جاءت من الخارج تمكنت من ترسيخ وجودها، بيد أن مناطق شاسعة فى أوروبا افتقرت فى واقع الأمر إلى وجود هياكل دائمة وعامة يستلزمها وجود الدولة، وامتد ذلك لفترة طويلة من الزمن. وأعتقد أن هذا هو ما يحدث

ثانية فى بعض البقاع العالمية، مما يخلق مشاكل جادة وخطيرة فى قيام علاقات مع البقاع الأخرى من الكرة الأرضية التى لم يحدث فيها مثل ذلك: أوروبا وأمريكا وشرق آسيا، وهو ما يثير مسألة التفاعل بين العالم الذى توجد فيه دول والعالم الذى لا توجد فيه دول.

ويصعب القول ما إذا كان العالم سوف يغزو أكثر صعوبة فى تدبير شئونه أو كذلك بسبب المشكلة المشار إليها آنفاً، أى طاعة الشعوب لحكوماتها، وقد وجد افتراض عام فى معظم فترات التاريخ بأن المواطنين سوف يدينون بالطاعة لحكومة فعلية مهما كانت نوعيتها ويغض النظر عما إذا كانوا يرتضونها أم لا. والحق أنه تم قبولها فى بعض الحالات بسبب قوتها، وفى حالات أخرى جرى قبولها على أساس الفكرة التى أبداهها هوبز، وفحواها إن أى حكومة فعلية أفضل من لا حكومة على الإطلاق، وعلى سبيل المثال عندما فتح البريطانيون الهند تمكنوا من حكم هذا القطر فترة طويلة للغاية بما يربو قليلاً على بضعة عشر ألف رجل بما فيهم الجنود. وإذا سلمنا بأنهم كانوا يحكمون قطراً يتجاوز سكانه مئات الملايين، فقد كان يتعذر تحقيق ذلك ما لم تقرر غالبية السكان الموافقة على نظام الحكم، وقد قبل الهنود الآخرين فى الماضى وكانوا من الأجانب أيضاً، وارتضوا بهم هذه المرة كذلك. وذلك هو السبب فى النجاح الفائق لأغلبية الدول الإفريقية فى حكم إمبراطوريات استعمارية ضخمة، وفى النهاية فإن حفة ضئيلة للغاية من البشر التى قاومت، وبكل تأكيد ليس أولئك الذين تعوبوا بالفعل على العيش فى ظل قيام حكومة من نوع أو آخر. وإن أولئك الذين عاشوا فى مجتمعات بدون دولة هم - فقط - الذين رفضوا الخضوع، كما فى حالة أفغانستان أو المجتمعات القبلية التى عاشت فى غرب الولايات المتحدة الأمريكية أو الأكراد أو بربر المغرب، والشعوب التى قاومت هى أساساً الشعوب التى كان يمكن أن تقاوم أى شكل من أشكال الحكومة، سواء أكانت حكومتهم أو حكومة أجنبية، وما أعنيه أن أغلبية الشعوب فى العالم ارتضت فكرة أن تكون محكومة.

والوضع الجديد فى ختام القرن القصير وعقب تعبئة الشعب من أسفل (لأن هذا القرن كان قرن عامة الناس، بالنظر إلى اضطلاعهم بدور أساسى فى إدارة الشؤون العامة)

يتمثل في أنه لم يعد من الممكن أن يؤخذ هذا الاستعداد لتقبل سلطة عليا كقضية مفروغ منها، وعلى نحوها فإن المقاومة أثناء الحرب العالمية الثانية في أوروبا تعتبر متقدمة لهذه الظاهرة، وتمثل رد الفعل التقليدي في حكومة بيتان أو حكومة فيشي (التي قامت بعد احتلال النازية لفرنسا) نحن خسرنا الحرب وهم كسبوا وعلمنا أن نتقبل الوضع الجديد وربما كان هذا رد فعل عقلاني، بيد أن حركة المقاومة رفضت رفضاً تاماً أن تتوافق مع هذا الوضع الجديد وكان ذلك إيذاناً ببدء عملية التغيير.

ولهذا السبب يبدو لي أن الحل الواضح الذي طبق في القرن التاسع عشر في تلك المناطق في العالم التي شهدت تحول الدول والذي تمثل في تحويلها إلى مستعمرات، لم يعد صالحاً للتطبيق. وهو مكلف للغاية ونتائج غير مضمونة، ولناخذ المثال الذي قدمته في كتابي "عصر التطرف" فيما يتعلق بالصومال وقد واجه البريطانيون والإيطاليون دائماً مشاكل في إدارة هذا البلد، غير أنهم لم يصادفوا في أي وقت مصاعب جديدة في حكمه كمستعمرة. بل إنه لم يقترح أحد أنهم يتعين عليهم الانسحاب. وفي تسعينيات القرن العشرين تدخلت الولايات المتحدة لأسباب إنسانية وقبل أن يتاح لها الوقت للتعرف على مواقعها وتحديد اتجاهاتها تم طردها بالفعل، ولم تعد الشعوب في بلدان كثيرة مستعدة لقبول هذا المبدأ القائل إنه لا تجدر مقاومة جيوش الاحتلال.

ويصدق ذلك أيضاً على البلقان، وكانت الحجة السائدة في الماضي إنه عندما يواجه بلد صغير التفوق الكاسح والجلي لخصمه فلا بد إنه يقول إن أجلاً أو عاجلاً: "حسناً، ليس هناك الكثير مما يمكن عمله لوقف تقدمه" وكان هذا معقولاً جزئياً، غير أنه تصادف أن ذلك لم يعد يحدث بهذا القدر من السهولة، ولهذا سيغدو صعباً أكثر فأكثر معرفة ماذا يمكن القيام به في هذه المناطق، لأن التدخل الفعلي سيقترض الحشد الدائم لقوات قد تكون بلدان قليلة على استعداد للإبقاء عليها، أو قد تفعل ذلك في حالة ما إذا كان بقاؤها عرضة للخطر. وعلى سبيل المثال، فإن بريطانيا العظمى لن تحشد الموارد اللازمة نفسها للقيام بعمل ما في كوسوفا مثل تلك المستخدمة في أيرلندا الشمالية، لأنه ليس لها الأهمية نفسها. وإذا تمت المقارنة بين تكلفة حكم البوسنة بعد الحرب وبين تكلفة حكم إحدى المستعمرات فإن الفرق يتجاوز كل الأبعاد

والنسب، وأعتقد أنه وجد ٦٤٠٠٠ جندي في البوسنة الصغيرة وهو ما يضاهاى - تقريباً - العدد الذى احتاجته بريطانيا لحكم شبه القارة الهندية وللحفاظ على النظام العام.

تعد مشكلة وسط وشرق أوروبا التى لم تجد حلاً بعد محور الأزمة الأوروبية، والتى سرعان ما تفجرت حالما تمزقت الغلالة الرقيقة التى كانت تغلف الإمبراطورية السوقيتية أثر سقوط حائط برلين، ولقد سبق لك القول إنه لم توجد عندما ولدت سوى ست دول من بين الثلاث والعشرين دولة التى تظهر على الخريطة حالياً فيما بين ترستا والأورال، وإذا أخذنا شخصاً ما فى مثل عمرك، حيث جاء مولده فى المدينة المعروفة حالياً باسم LVIV^(١) وقد عرفت باسم lwow و leMBERG لكان من الممكن أن يعيش فى ظل أربع دول، دون احتساب فترة الاحتلال أثناء الحرب، فهل تحيط الشكوك إذن بمصير هذه الشعوب وهذا الجزء من أوروبا، ويظهر أن محاولة التعايش فى ما بين القوميات المتعددة التى شرع فيها ستالين فى الاتحاد السوفيتى وتتوفى فى يوغوسلافيا لم تترك أثراً واحداً فى وعى هذه الشعوب.

لا نعرف بعد ما هى الآثار بعيدة المدى لهذه النظم على الشعوب التى تحكمها، برغم أنه من الواضح أنه ستوجد آثار طويلة الأجل، وعلى سبيل المثال، فنحن نرى أى حركة فى وسط الفلاحين الروس للعودة إلى المشروع الخاص فى الزراعة، ولو أن القطاع الخاص فى الزراعة كان يمثل الجنة للفلاحين الروس قيل تطبيق نظام الملكية الجماعية فى العشرينيات من القرن العشرين، وهناك آثار أخرى امتدت لأجيال عدة، وقد قرأت مؤخراً مقالاً عن اليهود الروس فى إسرائيل تشير إلى أنهم يزعمون أنهم وصلوا إلى إسرائيل - خلافاً لبقية اليهود - دون أى شعور بالانقص، ولم يتأثروا

(١) الاسم البولندى ثم الاسم الألمانى على التعاقب. وهى مركز ثقافى وصناعى مهم تقع فى أوكرانيا قريباً من الحدود البولندية. أصبحت فى ظل الحكم التمسائى ابتداءً من ١٧٧٢م عاصمة غاليسيا وتم التنازل عنها لبولندا عقب الحرب العالمية الأولى ثم الاتحاد السوفيتى فى ١٩٣٩م وقد احتلها الألمان أثناء الحرب وقد قام بابا روما أثناء زيارته الأخيرة لأوكرانيا بإقامة أكبر صلاة له أجراها أثناء زيارته لهذه المدينة (المترجم).

بالأعراض المريضة التي تزامنت مع الهولوكوست، وقد عبروا عن موقفهم قائلين "لقد حاربنا هتلر وهزمناه" وذلك برغم معاناتهم "معاداة السامية" فى روسيا، وفضلاً عن هذا فإن هؤلاء اليهود كانوا أكثر علمانية من غيرهم، لقد وجدت تأثيرات دائمة ومستمرة على الشعوب التي عاشت فى ظل هذه الأنظمة لعقود طويلة.

بيد أنه لا تتوفر لدينا البحوث الملائمة، لكى نحدد ما هى هذه الآثار وماذا سيكون مداها الأبعد.

ولطبيعة الحال فإن عودة ظهور العداوات القومية المأساوية فى هذه البلدان يصعب تفسيرها من بعض النواحي، خاصة أنه يبدو أنها زالت واختفت - تقريباً - بفعل العدد الكبير من حالات الزواج المختلط، لا سيما فى المدن. ومن المخرج أن هذه الظاهرة كانت منتشرة فى وسط الفئات المتعلمة بدرجة أكبر منها فى القطاعات الأفقر فى هذه المجتمعات، لكن انتشارها وحجمها كانا على درجة كبيرة إلى حد أنه لم يكن من المتوقع حدوث هذا الفصل الجديد وتلك التفرقة والتمييز بين الجماعات العرقية.

لقد تحدثت فى كتابي "عصر التطرف" عن عامل قد يساعدنا على الفهم، فنظم الحكم الشيوعية كانت نظاماً نخبوية عمداً وقصداً، إن لم يكن لسبب آخر غير الإصرار على الدور القيادي للحزب. ولم يكن غرض هذه النظم هداية الشعب، إذ لم تكن عقائد دينية كما للكنائس الرسمية، ولهذا السبب فإن غالبية الشعوب التي خضعت لهذه النظم لم تكن مسيحية بصفة أساسية. ولم تدخل الشيوعية فى حياتها بالمعنى الذى دخلته الكاثوليكية - مثلاً - فى وعى شعوب أمريكا اللاتينية عقب الاستعمار. والشيوعية شئء تتوقع منه نتائج جديدة أو سيئة ولكنها - على وجه العموم - لم تندمج فى نفوس البشر بحيث تصبح مبدأ هادياً، وإن كان قد حدث استثناء واحداً، حقا يتعلق بروسيا الكبرى أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد لا يوجد شك فى أن ستالين تمكن من تحويل نفسه إلى قائد قومى حقيقى، لأنه أدار حرباً أدرکها الشعب مشاعر صادقة بوضعها حرباً قومية، حيث اشترك فيها بالفعل كل روسى، ولهذا السبب فإنه مازال يتعين إملأ قدر كبير من الاهتمام لتجربة الحرب عند طرح أسئلة عن موروث الشيوعية فى روسيا.

وعلى أى حال فعندما انهارت هذه الدول - كما حدث تماماً حالما تجزأت الإمبراطورية الأخرى عقب الحرب الأولى - تعين على كل منها إيجاد ارتباطات مختلفة وأشكال تضامنية مغايرة وحتى أولئك الذين لم يكونوا راغبين فى القيام بذلك، وأينما وجدت من قبل أشكال من القومية وربما لم تكن معادية للسوفيت - بالضرورة - فإنها اضطرت بحكم التاريخ إلى الاضلاع بدور جديد أكثر قوة وأكثر برزاً. ومن المفارقات قبول الشيوعيون للمعايير القومية المتعلقة بالأراضى والأقاليم "التي تنتمى إلى" أمة محددة عرقياً ولغوياً، ومن ثم تكونت الإمبراطورية فى الأراضى المتعددة القوميات - وبصفة رسمية - من اتحادات فيدرالية من مثل هذه "الأمم" وعندما تحطمت فإنها تصعدت على طول الخطوط المتصاعدة المكونة بالفعل، وربما كان انبعاث القوميات شيئاً قد جرى تسجيله فى الشفرة الوراثية لهذه المجتمعات، ومن الممكن أن تكون التقسيمات القومية واصلت عملها فى مستويات أعمق بكثير مما افترضنا، ومع ذلك فلا أستطيع أن أعتقد أن التعايش السلمى الذى ساد بين شعوب يوغسلافيا لمدة خمسين عاماً يرجع بكامله وحصراً إلى سلطة الحزب الشيوعى اليوغسلافى.

هل علينا أن نقلق على عالم لم يعد يحكمه أى نظام بولى للدولة كما عرفناه منذ القرن الثامن عشر ؟

إذا تكلمنا من الناحية المثالية فقد نفضل نظاماً مختلفاً، كما أنه من الحقيقى أن التقدميين لا يتفقون على طريقة موحدة لتنظيم الدول والوحدات السياسية، ويمكن أن توجد تنظيمات أخرى غير تلك التى تعودنا عليها بالفعل ولكن نعم يتعين علينا أن نقلق أيضاً، لأن العمولة عملية لا يمكن تطبيقها فى سهولة ويسر على السياسة، ومن الممكن قيام اقتصاد معولم وقد نطلع إلى وجود ثقافة معولة، ومن المؤكد أنه لدينا تكنولوجيا معولة وعلم عالمى وحيد، ولكن إذا ما تحدثنا من الناحية السياسية فإننا نجد أن عالمنا مازال يتسم فى الواقع بالتعددية - فضلاً - عن انقسامه إلى دول إقليمية، والحق أن جميع هذه الدول ليست سواء، ويوجد ما يقرب من مائتى دولة على وجه البسيطة، وبعضها يعد ملاذات ضريبية، ولا يوجد فى واقع الأمر ما يبرر وجودها سوى فائدتها للاقتصاد العالمى، ومع ذلك فإن ثلاثة أرباع سكان العالم يعيشون فى قرابة خمس وعشرين دولة يسكن كل منها أكثر من خمسين مليون نسمة.

وبينما يمكن نظرياً وجود تشكيلة من المؤسسات العالمية، فإننى لا أعتقد أنه من الممكن للسياسة أن تعمل فى مثل هذا الفراغ، والواقع أنه لا توجد مؤسسات سياسية كونية، وربما كانت أقربها إلى ذلك هى الأمم المتحدة، التى تستمد سلطتها أو قوتها من الدول القائمة، وفى الوضع الراهن فإنه يوجد إذن تعايش بين نظامين مختلفين: نظام للاقتصاد ونظام للسياسة، وإنه فى هذا السياق عليك أن تسأل نفسك ماذا سيكون تأثير إضعاف الدولة القومية (الدولة - الأمة) وهل هو أمر جيد أم سيئ - وسنرى - غير أنه من المؤكد أن الدولة - الأمة لا يمكن تجاهلها، ولا يمكن النظر إلى العلم كما لو كانت غير موجودة أو غير مهمة، لأنه فى مجال السياسة لا يوجد شئ بجانبها، وإمكانية وجود سلطة كونية وحيدة تضطلع بدور سياسى وعسكرى مؤثر وفعال غير متاحة حالياً.

هل تأسف لزوال البنية الثنائية التى كانت مكونة من الدولتين العظيمتين اللتين راقبتا مجالات نفوذهما وتصرفتا كما يتصرف رجل الشرطة؟ وماذا تصورت عندما تفكك الاتحاد السوفيتى، مع تسليمنا بأنه كان لاعباً على المسرح الدولى واعتبرته دائماً عنصراً تحريراً واستقراراً؟

لقد تمتلكت مشكلة الحرب الباردة فى أن العالم عاش بصفة مستمرة تحت ظلال كارثة مميتة هى اندلاع حرب نووية عالمية، وبينما ظلت الحرب الباردة قائمة، ولفترة طويلة، فإن احتمالات وقوع تلك الكارثة كانت قوية للغاية لسبب أو آخر، وليس أقلها عن طريق الصدفة (مثل وقوع حادثة ما) وأنت تعرف قانون مورفى الذى يرى أنه إذا كان من الممكن لأمر سىء أن يحدث فمن المؤكد - تقريباً - إنه سوف يحدث أجلاً أو عاجلاً. وبرغم حقيقة التهديد بنشوب حرب نووية مع استمرار الحرب الباردة فإنها لم تقع ولا ينفى ذلك وجود لحظات كان يمكن أن تنشب فيها هذه الحرب (أزمة الصواريخ الكوبية، ومطلع الثمانينيات فى رأى) بيد أننا تفادينا ذلك، وعلينا أن نعترف بأن الحرب الباردة قد خلقت الاستقرار فى العالم أو على الأقل فى بقاع شاسعة فيه، للأفضل أو للأسوأ حسبما ترى، إذ تعتبرها غالبية البلدان الأوروبية أمراً جيداً، ولست أدرى ما إذا كان يمكن قول الشئ نفسه بالنسبة لأجزاء من آسيا، وعلى سبيل المثال لست أدرى ما إذا

كان من الأمور الحسنة ذلك الاستقرار الذى شهدته أنونيسيا لمدة ثلاثين عاماً فى ظل حكم سو هارتو. ولا أحد ينكر أنها خلقت الاستقرار فى العالم. ولم تجعل الحرب مستحيلة، ولكنها وكما حدث فى القرن التاسع عشر على وجه الدقة، جعلت بعض أنواع الصروب ممكنة على أقل تقدير. وبما أن هذا الوضع لم يعد قائماً فعلياً أن نسأل أنفسنا ما الذى يمكن أن يحل محله.

وفى الوقت الراهن حل محله عدم يقين تام، لأنه لم يتم تدمير الاتحاد السوفيتى تماماً فحسب، بل دمر - أيضاً - كامل نظام العلاقات الدولية الذى اعتاد عليها العالم أو أوروبا على الأقل، منذ القرن الثامن عشر. وقد نهض هذا النظام عملياً على وجود عدد معين من اللاعبين، أى وجود بلدان اضطلعت بدور رئيسى وكانت معروفة للجميع ومواقفها معلومة أيضاً، وشمل ذلك روسيا التى كانت تشغل منذ مطلع القرن الثامن عشر تقريباً حجم الأراضى نفسها. وفوق ذلك عرف الناس قواعد اللعبة التى وجدت منذ نهاية حرب الثلاثين عاماً ومعاهدة وستغاليا، التى أبرمت فى ١٦٤٨ أى منذ ما يزيد على ٣٥٠ عاماً، وقد جرى الاعتراف باستقلالية وسيادة البول كل على حدة وعرف الناس متى يغزو ممكناً التدخل فى شئونهم وما الذى يمكن أولاً يمكن عمله فى مجال السياسة الدولية، وقد زال الآن هذان العنصران.

لقد تحدثنا آنفاً عن تاكل القواعد والمقاييس، مثل الفرق بين الحرب والسلام، مبدأ عدم التدخل حظر عبور الحدود إلا فى أوقات الحرب (لأن القاعدة الأساسية ليست أنك لا تستطيع بكل بساطة أن تشن حرباً بل عليك أن تعلن الحرب).

لكن يتمثل جانب آخر للمشكلة فى زوال القوى القديمة، مما ترك فراغاً هائلاً، وما زالت روسيا تواصل تطلها بوصفها دولة، وهو ما لم يحدث منذ منتصف القرن السابع عشر، ومنذ مستهل القرن الثامن عشر وجد كيان واحد بين بولندا والمحيط الهادى، وربما تكون قد صادفته مشاكل كثيرة وقدر هائل من حروب عدم اليقين فى مناطق آسيا الوسطى لكنه ظل وحدة واحدة يمكن تبين معالمها ولم تعد موجودة اليوم، وقد فقدنا هذه الفكرة حتى من الناحية المفهومية. ولم يعد فى وسعنا أن نقول - مهما حدث

فى المستقبل خلاف لذلك - إن روسيا ستغدو أحد اللاعبين الأساسيين على المسرح الدولى، وحتى بعد الهزائم المأساوية التى حدثت فى ١٩١٨ و ١٩٤٥ كان فى استطاعتنا فقط أن نقول : "حسناً، إن ألمانيا منهوكة القوى راکعة على ركبتىها غير أنه من الجلى أنها سوف تصبح إن أجلاً أو عاجلاً لاعباً رئيسياً مرة أخرى" ولا يمكن أن نقول الشىء نفسه حالياً عن روسيا ومؤسساتها عظيمة لدرجة أنه حتى وجودها فى المستقبل موضع تساؤل، وإن الحجم الحقيقى لهذه الكارثة تمت الاستهانة به إلى حد خطير.

لقد حدثت ثلاثة انكسارات فى تاريخ القارة الأوروبية خلال القرن العشرين: عقب الحرب العالمية الأولى وأثناء الحرب العالمية الثانية وفى أعقابها، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى. وأعتقد أن الحدث الأخير هو الذى سترك أعرق الآثار بعيدة المدى، ولا نعلم بعد ماذا ستكون عليه. وعلى سبيل المثال. فإن المستقبل السياسى للدول التى أعقبت الاتحاد السوفيتى مازال غير مؤكد، وبعد حوالى عشر سنوات منذ سقوط الاتحاد السوفيتى فإن تحللها مازال مستمراً، وانقسمت إلى جماعات متناحرة على نحو متبادل، كما فى آسيا الوسطى، وبينانها فيهم للغاية. فما المستقبل السياسى لطاجيكستان غير واضح على الإطلاق على غرار جارتها أفغانستان التى تشتعل فيها أوار الحرب الأهلية منذ سنوات عديدة، ويواصل الاتحاد الروسى التحلل نفسه إلى مناطق مستقلة عملياً أو تتمتع باستقلال ذاتى. وهكذا فإن المصير السياسى لذلك الجزء من العالم الذى تمتد حدوده من رومانيا إلى الصين غير مؤكد إطلاقاً، وهو ما لم يحدث فى أعقاب الحربين العالميتين. والسؤال المطروح على القرن الجديد هو ماذا يمكن أن يكون البديل الفعلى لنظام الدول القديمة الذى ساد العالم من قبل.

ربما تكون أمريكا. فقد سمي القرن الذى انتهى بالقرن الأمريكى، ويظهر الآن أن الولايات المتحدة تتولى مهمة إدارة النظام العالمى على نطاق الكوكب الأرضى بأسره، حيث تستخدم حلف شمال الأطلسى بوضعه الذراع العسكرية لتحقيق هذا الطموح، وفى حالة كوسوفا زعمت أنها تعمل بعيداً عن المصالح الإستراتيجية المحضة وعلى أساس الاعتبارات الإنسانية البلاغية، فهل نحن نتجه نحو قرن أمريكى آخر، سيكون هذه المرة "أخلاقياً" كذلك؟

هذا أمر ممكن، غير أنى أشك فى ذلك ويتهيا لى أن القرن الأمريكى ارتكز قبل كل شىء على التفوق الهائل لاقتصاد الولايات المتحدة وديناميكيته وحجمه، وهو من الضخامة بحيث لا يمكن مقارنته باقتصاد الدول الرأسمالية الأخرى، وعلينا أن نتذكر أن الاقتصاد الأمريكى فى عقد العشرينيات من القرن العشرين مثل ٤٠٪ من جملة الطاقة الإنتاجية الصناعية فى العالم، وفقد جانباً من هذه الميزة إبان فترة الكساد الكبرى واستعاد عافيته عقب الحرب العالمية الثانية لدرجة أنه مثل فى فترة ما نصف القوة الاقتصادية لجميع البلدان الأخرى معاً، وأعتقد أن ذلك الوضع سوف ينتهى، وإذا ما تحدثنا فإن أمريكا ستكون أصغر من الناحية الديموجرافية وغدت تمثل بالفعل نسبة أقل من الطاقة الإنتاجية العالمية، وسوف تستمر بطبيعة الحال مهيمنة على قدر كبير من الاقتصاد الكونى، سواء من الناحية السياسية أو من خلال هيمنة النموذج الأمريكى فى مجال التجارة والأعمال وتنظيم العمل، وعلى الرغم من هذا فإنه تساورنى بشدة الشكوك فى أن تستطيع أمريكا الاستمرار من أن تكون المحرك الصناعى للعالم، على الأقل الطريقة نفسها التى كانت خلال الجزء الأكبر من القرن العشرين - تماماً - مثل بريطانيا العظمى التى كفت فى فترة معينة من تاريخها عن أن تكون القوة الرأسمالية الكبرى، لأنها لم تكن كبيرة بما يكفى لتبقى كذلك. ومع انتشار التصنيع فى بقاع شاسعة من العالم فإن القوة النسبية لأمريكا كنظام إنتاجى سوف تتدهور.

وتمثل السبب الثانى لسيادة القرن الأمريكى فى هيمنته الثقافية، وخاصة من حيث الثقافة الشعبية، مما أتاح لأمريكا فرصة أفضل لتخليد نفسها وقد تدعم ذلك بفضل الدور المتزايد الذى تضطلع به اللغة الإنجليزية وانتشار تكنولوجيا الحاسب مما عمل على توحيد استخدام الإنجليزية، والذى تركز على نحو مكثف فى أمريكا، وهكذا سوف تدوم لفترة بكل تأكيد. بيد أن الهيمنة الثقافية لها حدود، ولنتأمل فى سيطرة إيطاليا على الموسيقى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد كانت تامة فى حين أنه لم يكن لها أى دعم سياسى أو عسكرى أو اقتصادى، وقد اختفت فى نهاية الأمر ويمكن أن ننظر مثلاً فى الهيمنة الثقافية البريطانية فى القرن التاسع، ومن الناحية العملية، فإن أى رياضة تمارس فى العالم اخترعت فى الأصل ومورست فى بريطانيا العظمى.

ونشأت موضة الرجال فى إنجلترا، وتمارس رياضة كرة القدم حالياً فى جميع بقاع العالم ويرتدى الرجال الملابس بالطريقة الإنجليزية، ومع ذلك فإن بريطانيا العظمى لم تعد هى القائدة لا فى مجال كرة القدم ولا فى مجال الموضة، ومن ثم نستطيع تصور هذه الظاهرة كحدث تاريخى وليس كحدث جار ومتداول.

بيد أن هناك فرقاً : فأمريكا - خلافاً لبريطانيا العظمى فى القرن التاسع تعد قوة ثورية - ارتكزت على إيديولوجية ثورية، وعلى غرار فرنسا الثورية وروسيا السوفيتية فإن أمريكا ليست دولة فقط، فهى أيضاً دولة أوقفت نفسها على تحويل العالم بطريقة ما، وبهذا المعنى فإن الهيمنة الثقافية الأمريكية تنطوى على بعد سياسى لم يتوفر أبداً للهيمنة البريطانية، ولم يحاول البريطانيون البتة حتى أوج قوتهم هداية العالم، ومن الناحية الأخرى فإن هذا الطموح - هذا الاتجاه لى تصبح نموذجاً كونياً - متأصل فى النظام الأمريكى. وخلاصة القول فإن حقيقة أن أمريكا تستظل القوة العظمى بكل وضوح لا يعنى فى حد ذاته أن القرن الجديد سيكون قرناً أمريكياً، ولن يكون قرن أى أحد آخر، لأن الشيء الوحيد الذى يبدو شديد الوضوح هو أن العالم أصبح بالغ الضخامة والتعقيد بحيث لا تتمكن دولة واحدة من السيطرة عليه.

ولعلك تتذكر الحجة التى استخدمها بوبيو فى مناقشة موضوع الحرب فى كوسوفا عندما زعم أنه كانت توجد دائماً قوة مهيمنة، وهى أمريكا فى الوقت الراهن وذلك أمر حسن، لأن أمريكا تقف فى الجانب السليم، وأنا لا أعتقد أنه وجدت دائماً قوة مهيمنة، وأولاً وقبل أى شىء فإن الهيمنة الكوكبية لم تكن واردة بكل بساطة حتى القرن الثامن عشر، وحتى بعد ذلك فلم يمارس أى بلد مثل هذا الإدعاء قبلما يفعل الأمريكيون فى الجزء الأخير من القرن العشرين، والهيمنة البريطانية التى كانت فى غاية القوة اقتصادياً وثقافياً وعسكرياً من بعض النواحي (إذ كان أسطولها الحربى أضخم من كل الأساطيل فى العالم مجتمعة) لم تكن أبداً على النحو الذى يدفع بريطانيا العظمى لتنظيم العالم، وفعل البريطانيون ما استطاعوا لتنظيمه وفقاً لمصالحهم الخاصة وليس للسيطرة عليه؛ لأنهم أدركوا أنهم ليسوا أقوياء بما يكفى للقيام بذلك، أو حتى للحفاظ على أئمن موجوداتهم: الأسطول. وقد أدركوا أنه يمكن أن توجد فى نهاية الأمر بلدان أخرى ثرية

وقوية بما يكفي لكي تضمن لنفسها تحقيق سيطرة عسكرية مساوية على البحار، إن أمريكا إذن هي البلد الوحيد في التاريخ التي احتلت مركزاً يسمح لها بأن تدعى لنفسها حمل لواء الهيمنة العالمية.

وحتى الهيمنة الإقليمية نادرة للغاية، وباستثناء الصين في الشرق الأقصى فإنها لم تدم طويلاً في معظم الحالات، وقد كانت فكرة الهيمنة الأوروبية حلاً لم يدم طويلاً في جميع الأحوال، ونادراً ما عمرت أكثر من سنوات قليلة، ولم توجد هيمنة إسبانية في القرن السادس عشر؛ لأن فرنسا كانت دائماً منافساً محتملاً، ولم توجد هيمنة فرنسية في القرن السابع عشر برغم أن لويس الرابع عشر اقترب من ذلك. وفي عهدي نابليون وهتلر، سيطرت دولة قوية في حالة حرب على القارة لكن هذه السيطرة لم تدم أكثر من سنوات قليلة، وإنني أعتقد بصفتي مؤرخاً أن فكرة وجود دولة وحيدة - مهما كانت عظيمة وقوية - في مقدورها السيطرة على السياسية العالمية فكرة خاطئة. وقد حاولت أمريكا أن تفعل هذا وما زالت تحاول، وهو ما يرجع بادئ ذي بدء إلى تطلعاتها الثورية في تغيير العالم والتي نونت في تاريخها منذ نشأتها، كما يرجع - أيضاً - إلى صدفة تاريخية وجدت فيها نفسها في عالم ليس في وسع دولة أخرى أو تحالف ما أن يشن حرباً ضدها، وتلك مقامرة بل اعتبرها - من جانبي أنا - مقامرة خطيرة، وبكلمات أخرى هناك مخاطر تكمن وراء طموح أمريكا في أن تصبح شرطى العالم أو أن ترسى نظاماً دولياً جديداً.

هل يمكن تطبيق أخلاقيات النزعة الفردية المؤيدة لمبادئ الحرية في الفكر والعمل التي تحفز الأسواق على السياسة الخارجية؟ وقد تأسست على أولوية الأفراد على الجماعة التي ينتمون إليها. ولذلك فهي تعد ليبرالية على نحو أصيل وهل يمكن أن تمثل دواءً ناجحاً لجميع الإيديولوجيات، بما في ذلك انحرافها ذات الطابع القومي والإثني؟

أعتقد أن النزعة الفردية المؤيدة لمبادئ الحرية في الفكر والعمل لا تعد أساساً مناسباً لسياسة الدولة؛ لأنها تتعارض أساسياً مع السياسة الجماعية، ويمكن تعبئة الناس على أساس القومية أو الوطنية أو أي أرضية جماعية أخرى، لكن إذا زعمت

أن مصالح الأفراد هي الأسمى منزلة فعندئذ يصعب إقناعهم بإخضاع تلك المصالح ولو جزئياً لمصالح الآخرين. ويتفق منطق النزعة الفردية الناصرة لمبادئ الحرية في الفكر والعمل تمام الاتفاق مع السوق الحرة، لكنى لا أظن أنه يتفق ومتطلبات السياسة الدولية، ولا أعتقد أن عليها هذا المثل الأعلى.

وتجسدت الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يعمل بها هذا المبدأ المغرى في الطريقة التي استعملتها أمريكا إبان الحرب الباردة، عندما زودت الحكومة شعبها برسالة فحواها إن عقيدتنا في النزعة الفردية ومذهب الحرية تهددها قوة خارجية ولذلك علينا أن نتصرف دفاعاً عن النفس، وتلك استراتيجية إضفاء المشروعية على السياسة الخارجية، لكنها ليست سياسية خارجية في حد ذاتها. وإذا سلمنا بأنها كانت سياسية ناجحة فمن الممكن أن تحاول الولايات المتحدة استخدامها مرة ثانية، وفي الواقع وبعد انتهاء الحرب الباردة التي استبعدت أكبر عدو للقيم الأمريكية، فقد يعتبر بعض الناس في أمريكا قوى ثقافية أخرى، مثل الأصولية والاستشراق، بمثابة تهديدات خارجية ينبغي العمل على مقاومتها. لكن لا يبدو أن هذه حجة مقنعة كثيراً؛ لأن قوة الحرب الباردة وتبريرها تمثلها في حقيقة أن المعتدى المحتمل أو الممكن للمصالح والمثل العليا الأمريكية هو دولة عظمى هائلة وحقيقية.

ومن المحتمل إذا ما أصبحت الصين بالفعل قوة عظمى خطيرة فإن هذا المبدأ المغرى قد يعمل ثانية، غير أنه يتعين على أن أقول إننى لا أستطيع أن أفهم الانبهار الشامل بهذه الحجة وهي مقصورة تماماً على البلدان الغنية، ومن الجلى إنها حجة قد لا يكون لها الأثر نفسه في معظم بلدان العالم الثالث، ولهذا فإننى لا أعتقد أن النزعة الفردية الناصرة للحرية في الفكر والعمل تعد ترياقاً سياسياً، انظر إلى حالة كوسوفا فأنت لا تستطيع بالاستناد إلى هذا المبدأ أن تطلب من أى شخص التضحية بحياته، والنظرية السائدة في الولايات المتحدة التي تقول إنك يمكن أن تفعل أى شيء فيما عدا أن تسأل جنودك أن يذهبوا لقتل أنفسهم تتفق تماماً مع الاعتقاد بأن الحقوق الفردية هي الأسمى، بيد أنه لا يمكن في الواقع شن حرب بهذه الطريقة بنى حال من الأحوال، وأنت تستطيع أن تضرب بالقنابل بهذه الطريقة لكن لا تستطيع أن تحارب، وفي بعض الأحوال فإن الضرب بالقنابل قد يكون غير كاف بالغرض.

لكن أليس من الأسلم للعالم أن توجد قوة عظمى وحيدة ؟

تتمثل المشكلة فى فهم ماهية حدود القوة العظمى الوحيدة. ما الذى تستطيع أو لا تستطيع أن تفعله، وقد قلنا آنفاً أنه ليس فى وسعها تحديد ما يحدث فى العالم، غير أنه يمكنها اتخاذ بعض التدابير لتخفيف حدة الصراعات وتحقيق استقرار الوضع الدولى، وقد يكون مفيداً هنا عقد مقارنة بين الهيمنة البريطانية فى القرن التاسع عشر وبين الهيمنة الأمريكية فى القرن العشرين، فقد يعتبر بعض الناس فى أمريكا قوى ثقافية أخرى، مثل الأصولية والاستشراق، بمثابة تهديدات خارجية جديدة ينبغى العمل على مقاومتها، لكن لا يبدو أن هذه حجة مقنعة كثيراً لأن قوة الحرب الباردة و تبريدها تمثلتا فى حقيقة أن المعتدى المحتمل أو الممكن الصالح والمثل العليا الأمريكية هو دولة عظمى هائلة و حقيقية.

ومن المحتمل ما إذا أصبحت الصين بالفعل قوة عظمى خطيرة فإن هذا المبدأ المغررى قد يعمل ثانية، غير أنه يتعين على أن أقول إننى لا أستطيع أن أفهم الانبهار الشديد بهذه الحجة وهى مقصورة تماماً على البلدان الغنية، ومن الجلى أنها حجة قد لا يكون لها الأثر نفسه فى معظم بلدان العالم الثالث، ولهذا فإننى لا أعتقد أن النزعة الفردية المناصرة للحرية فى الفكر والعمل تعد تريباً سياسياً. انظر إلى حالة كوسوفا، فأتت لا تستطيع بالاستناد إلى هذا المبدأ أن تطلب من أى شخص التضحية بحياته، والنظرية السائدة فى الولايات المتحدة التى تقول إنك لا يمكن أن تفعل أى شىء فيما عدا أن تسأل جنودك أن يذهبوا لقتل أنفسهم تتفق تماماً مع الاعتقاد بأن الحقوق الفردية هى الأسمى. بيد أنه لا يمكن فى الواقع شن حرب بهذه الطريقة بأى حال من الأحوال، وأنت تستطيع أن تضرب بالقنابل بهذه الطريقة لكن لا تستطيع أن تحارب.

وفى بعض الأحوال فإن الضرب بالقنابل قد يكون غير كاف بالغرض.

— لكن أليس من الأسلم للعالم أن توجد قوة عظمى وحيدة ؟

تتمثل المشكلة فى فهم ماهية حدود القوة العظمى الوحيدة، ما الذى تستطيع أو لا تستطيع أن تفعله: وقد قلنا آنفاً أنه ليس فى وسعها تحديد ما يحدث فى العالم،

غير أنه يمكن اتخاذ بعض التدابير لتخفيف حدة الصراعات وتحقيق استقرار الوضع البولي، وقد يكون مفيداً هنا عقد مقارنة بين الهيمنة البريطانية فى القرن التاسع عشر وبين الهيمنة الأمريكية فى القرن العشرين.

وعلى سبيل الاستطراد فإن الهيمنة البريطانية فى القرن التاسع عشر مثلت النموذج الذى حاول الأمريكيون اقتضاء أثره فى القرن العشرين بل إن تعبير السلام الأمريكى نفسه "pax Americana" هو صدى لتعبير السلام البريطانى "pax Britannica" وقد كان أيضاً هو صدى تعبير السلام الرومانى "pax Romana".

وأعتقد أن البريطانيين أدركوا وجود حدود لما يستطيع أن يفعله بلد متوسط الحجم وعرف البريطانيون - مثلاً - أنه ثمة مناطق فى العالم من الأسوأ التدخل فيها بدون قوة عسكرية، وقد اقتنعوا بهذا مبكراً نوعاً ما، فى القرن التاسع عشر، وعلى سبيل المثال فإنهم استتبعوا جميع التدخلات العسكرية فى أمريكا الجنوبية، حتى برغم اشتباكهم فى صراعات مع إسبانيا، وكان واضحاً للبريطانيين أنه لا يتعين عليهم أن يتدخلوا فى دول القارة الأمريكية ضد الولايات المتحدة الأمريكية، وقبلوا مبدأ مونرو (وهو المبدأ الذى وضعه الرئيس مونرو فى ٢ ديسمبر ١٨٢٣ وقوامه أن الولايات المتحدة تعارض كل تدخل أوروبى فى شئون نصف الكرة الغربى) لا لأنهم كان عليهم أن يقبلوا ذلك، إذ من المسلم به أن البريطانيين لم يكونوا على وجه اليقين أضعف من الولايات المتحدة الأمريكية. ووقع - مثلاً - نزاع على غينيا البريطانية (غويانا) حله الأمريكيون بطريقة مرضية لبريطانيا العظمى، ومع ذلك قبله البريطانيون؛ لأنهم فهموا فى نهاية الأمر وجود حدود على ما يمكن إنجازه فى العالم، كما أنهم لم يحاولوا البتة إرساء شكل من أشكال السيادة والتفوق داخل أوروبا، حيث اهتموا - فقط - بوقف أى قوة أخرى على أن تفعل ذلك من أجل الحفاظ على ميزان القوى.

وركز البريطانيون دائماً وأبداً على السيطرة على البحار واحتلال المواقع التى تعد حيوية لتحقيق هذه الغاية، وقد نجحوا تماماً فى القيام بذلك، وقد تأسست الإمبراطورية على جزر صغيرة جرى ضمها من قبل البريطانيين لأغراض إستراتيجية: جبل طارق ومالطة وجزر الفوكلاند وغيرها الكثير والتى مازالت حتى الآن خاضعة للسيطرة المباشرة.

ومن الناحية الأخرى، فإن الإمبراطورية الأمريكية ارتكزت على هيمنتها على دول تابعة لها، وهو ما لم يحاول إطلاقاً أن يفعله البريطانيون، ما لم يكن هناك بديل لا محيص عنه للاستعمار: وهو ما فعلوه مع الهند وغرب إفريقيا وإلى حد كبير الشرق الأوسط، لكن فقط عندما أصبح الاستعمار مستحيلاً. وابتداءً من عام ١٨٠٠ لم تفكر الولايات المتحدة إطلاقاً في الاستعمار خارج أمريكا الشمالية. وجاء احتلال بورتوريكو والفلبين صدفة تاريخية وربما بمثابة تسليم بالنمط الاستعماري في ذلك الوقت، وتمثلت فكرة الأمريكيين في الوصول على عدد كبير من الدول - خاصة في أمريكا اللاتينية - تكون مضطرة إلى أن تعمل ما يرغبون هم أن تقوم به.

ومن ثم فإنني أعتقد أن البريطانيين عرفوا حدودهم وأن الأمريكيين أصابهم نوع من جنون العظمة، لأنهم ظنوا أنهم في استطاعتهم فعل أى شيء يريدونه في نصف الكرة الغربى، وهو ما يرجع جزئياً إلى أنه لم توجد سياسة عالمية في معظم القرن التاسع عشر، بل سياسة في نصف الكرة في أقصى الأحوال، وقد أعرب الأمريكيون حتى عن هذا الرأي. ففي عام ١٨٩٥ أعلن وزير الخارجية الأمريكية بعد حل الخلاف الحدودى بين فنزويلا و غينيا البريطانية قائلاً: تعد الولايات المتحدة حالياً هي صاحبة السيادة عملياً على هذه القارة وأمرها هو القانون الذى يخضع له الرعايا، حيث يقتصر على الولايات المتحدة حق التدخل... لماذا؟

... لأنه بالإضافة إلى جميع المبررات الأخرى، فإن مواردها اللانهائية مجتمعة إلى عزلتها تجعلها سيدة الموقف ويتعذر المساس بها عملياً من قبل جميع القوى الأخرى وما كان ممكن لأى وزير خارجية بريطانى ولا حتى بالمرستون، أن يقول مثل هذا القول فى بقعة من بقاع العالم : نحن قوة عالمية ولا يستطيع أحد أن يتدخل، وإذا قررنا أن نفعل شيئاً ما نستطيع القيام به.

وأعتقد أن الخطر الذى مثله الأمريكيون تمثل فى أنهم مواءوا وجهة النظر هذه إلى العالم قاطبة، وذلك خطر جسيم؛ لأنه من الجلى حالياً أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تتصرف بون وجود حلفاء، إن لم يكن فقط لوجود قواعدهم العسكرية فى معظم

الحالات فى بلدان أخرى. فلو قررت إيطاليا - من الناحية النظرية - عدم توفير مطاراتها الحربية لشن الحرب على يوغوسلافيا فإن ذلك كان سوف يتسبب فى حدوث ارتباك شديد للقوة الأمريكية، وأعتقد أنهم كثيراً ما تساءلوا - سواء بصدد العراق أو البلقان مثلاً - عما كان يمكن أن يفعلوه لولا وجود قواعدهم العسكرية فى البلدان الحليفة، ويمكن أن يكون فى استطاعتهم فقط القيام بعمل ما بواسطة حاملات الطائرات أو الطيران المستمر بدون توقف انطلاقاً من الولايات المتحدة، فالولايات المتحدة لابد أن يكون لها حلفاء، لابد من وجود من يكون على استعداد لمساعدتها.

وفى المقام الثانى، فإن أقوى أسلحتها - وهى من أرفع مستويات التكنولوجيا المتقدمة - لا تعد كافية دائماً لتحقيق النصر فى الحروب، وبالتالي يلوح لى أنه سوف يتعين على السياسة الأمريكية أن تتواءم مع هذا الواقع فى القرن الجديد، بما يقرب من اتجاهات السياسة البريطانية فى الماضى وعليها أن تتكيف مع حدود الممكن إنجازه وستظل قوة عظمى لزمان طويل، وطويل جداً، ولا أستطيع حتى أن أرى نهاية تلك الحقبة بقدر ما يتعلق الأمر بالتكنولوجيا العسكرية، ولكن حتى هذا لن يكون كافياً، وقد يكون كافياً إذا كان تهديد التفوق الهائل كافياً لجعل الخصوم يقولون: "لا يمكن عمل أى شىء، وعلينا أن نستسلم" وتلك كانت معضلة العراق وكوسوفا، وكلما عجلت الولايات المتحدة فى الاعتراف بذلك كلما عجلت برسم سياسة تصلح لدولة عظمى، فاستعراض القوة لا يعد كافياً لحكم العالم.

ويصدق ذلك - حالياً - على القوى العظمى والقوى الإقليمية؛ لأن شعوب البلدان الضعيفة لم تعد راغبة فى الخضوع لها، وقد أتيحت لها مؤخراً الفرصة لمناقشة مشاكل وسط إفريقيا مع بعض الدبلوماسيين البريطانيين، الذين بحكم عملهم المهنى على إلمام بهذه الأوضاع، فالسياسة الإفريقية بكاملها قد دمرها رفض بلدان هذه المنطقة التصرف بطريقة سليمة حسب القواعد والأعراف، وقد جاء وقت إذا بساءت فيه الأوضاع فى دولة إفريقية مستقلة أرسل الفرنسيون فرقة من جنود المظلات للقيام باستعراض عسكري فى المدينة الرئيسية، للتباهى بقوتهم العسكرية فيهرب المتمردون وتجرى إعادة

الرئيس السابق إلى منصبه أو يتم تثبيت الرئيس الجديد، وبذلك يتم إرساء النظام كلية، ولم يعد من الممكن القيام بذلك، وما حدث في رواندا هو أن الفرنسيين كانوا موجودين وعلى استعداد للعمل وراغبين في وقف مذبحة التوتسى، وقد كانوا في واقع الأمر حلفاء للهوتو، لكنهم لم يريدوا حمام الدم وفعلوا ما في وسعهم ليثبتوا أنهم لم يبيعوا ذلك، ولكن بون جدوى، وقال الهوتو لأنفسهم أن الفرنسيين لن يستطيعوا فعل شيء واستمروا في قتل جيرانهم تحت أعين الفرنسيين تقريباً.

وفي النهاية فإن كل منطقة وسط إفريقيا الشاسعة تغيرت كلياً، ولكن ليس بفعل بعض القوة أو تنظيم دولي، وقد اشترك الجميع : باريس، وواشنطن والأمم المتحدة محاولين التوسط، وقد وجد - في مرحلة معينة كما قيل لي - أكثر من ثلاثة عشر وسيطاً مختلفاً في رواندا، بيد أنه ثبت أن كل ذلك غير كاف، وقد اشترك في الحرب حوالى سبع دول إفريقية إضافة إلى زائير ورواندا وبوروندى وأوغندا، وأى تدخل خارجي قد يكون - لا أود أن أقول إنه باهظ التكلفة - ولكنه يمكن أن لا يحقق النتائج التى تتناسب مع الجهد الذى قد يبذل فيه، وهذا النوضع يصدق أيضاً على الولايات المتحدة، حتى ولو كانت غنية بما يمكنها من تحقيق الالتزام بتقديم موارد ضخمة، وثمة أشياء كثيرة فى العالم لا يمكن ببساطة القيام بها.

- ما هى القوة العظمى التى يمكن أن تظهر فى القرن الجديد ؟

من المرجح للغاية أن تصبح الصين قوة عظمى - حتى بالمعنى العسكرى - ومن المؤكد أنها الدولة الوحيدة التى يمكن أن تتطلع إلى التنافس مع الولايات المتحدة فى المستقبل، بيد أننى أعتقد حالياً أنه من غير المرجح إلى حد بعيد أن نراها تتنافس مع أمريكا من الناحية العسكرية فى المستقبل المتطور؛ فتفوق الولايات المتحدة بالغ الضخامة، ولا أعتقد أن ذلك يستبعد إمكانية حدوث مواجهة نووية، لأن ذلك لم يركز أبداً على التعادل، ولكن ببساطة على حقيقة أن أحد الطرفين لديه رادع كاف لكى يهدد بإحداث ضرر لا يحتمل للطرف الآخر، وعلى أى حال علينا أن نعتبر كون الولايات المتحدة ستظل لزمان طويل للغاية أكبر قوة عسكرية بمثابة حقيقة ثابتة وعلاوة على ذلك،

فإن أى نزاع بين الولايات المتحدة والصين فى القرن الحادى والعشرين قد يتخذ أشكالاً مختلفة عن الماضى، وهو ما يرجع أساساً إلى أن الصين تعد دولة برية بشكل رئيسى، وهذا ضرب من التخمين ومن الخطر الشديد بالنسبة لمؤرخ أن يتمارى فى هذا الاتجاه.

وفيما يتعلق بالهند فإننى أعتقد أن أسلحتها النووية موجهة إلى باكستان واهتمامها إقليمى فى الأساس، والهند قوة إقليمية ومن غير المرجح أن تصبح أكثر من ذلك فى الخمسين سنة القادمة. وعلى نحو ما، فالهند لها مستقبل واعد للغاية ويرجع ذلك أساساً إلى توفر ميزة لها غير متوفرة فى الصين: درجة من الأصالة الحققة فى ميادين التكنولوجيا والبحوث النظرية والفكرية ليس من السهل أن تتوفر فى الشرق الأقصى فى المنطقة الكونفوشيوسية؛ وذلك لأسباب تاريخية، فالتراث الهندى - مثلاً - فى الميادين الفلسفية والرياضية مهم للغاية. ومن الناحية الأخرى، فإن مدى توفر تراث فلسفى لكل من الصين واليابان - بالمعنى الأوروبى على أقل تقدير - هو موضوع فيه نظر، وفى مجتمع حديث عماده التكنولوجيا فإن الأصالة الفكرية تنطوى على إمكانات هائلة، وتتمثل مشكلة الهند الكبرى فى أن الدولة ضعيفة للغاية من حيث بنيتها وقدراتها الإدارية ونظامها السياسى، لكن من الناحية الاقتصادية والثقافية فإننى أعتقد أن أمام الهند مستقبل رائع أكثر من أى بلد آخر فى الشرق الأقصى.

لقد أعرب البابا صراحة عن عدم اتفاقه مع سيطرة القوى العظمى الأمريكية، وبعد أن صب همومه على الشيوعية فإنه يلوح الآن أنه قد اختار الرأسمالية فى شكلها الأمريكى المتطرف كخيار له، فما هو تقديرك لجان بول الثانى كشخصية تاريخية ؟ وهل هو آخر الثوريين على ظهر البسيطة ؟ أم إننا إزاء نسخة حديثة معدلة من الصراع بين البابوية والإمبراطورية؟

لا أظن إننا إزاء صراع بين البابوية والإمبراطورية، وأعتقد أنه علينا أن نميز بين سياسة البابا وعلم اللاهوت، فبابا روما من أنصار النزعة التقليدية الكاثوليكية، ويتمسك هذا العهد البابوى بالعودة إلى نظرة أكثر تقليدية للكنيسة من تلك النظرة الكاثوليكية

الليبرالية نسبياً التي سادت في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، ولو افترضنا أنني أنا البابا فمن المحتمل أن أفعل الشيء نفسه، لأنه إذا كان الدين مستقبل فإنه يتمثل - عندئذ وعلى وجه الدقة - في عدم التغير مع الأزمنة المتغيرة وفي البقاء بعيداً عن الموضوعات لكنني لست متديناً، ولذلك فإن هذا الموضوع لا يعنيني مباشرة.

بيد أنني أظن أن هذا المشروع الاستعدادي سوف يصادف مصاعب بالغة الخطورة، وقد لا يمكن التغلب عليها، لأنه كما أن الدولة لم تعد تستطيع السيطرة كلية وتاماً على مواطنيها فكذلك الكنيسة الكاثوليكية لم يعد في وسعها أن تتحكم في ولاء المؤمنين بها، ومشكلة دين سلطوى مثل الكاثوليكية أنه يقوم على أساس القبول التطوعي للاهوت، وأعتقد أنه منذ أن كفت نساء أوروبا الكاثوليكية عن التقبل الآلى للتعاليم الأخلاقية أو أوامر الكنيسة، فإن إمكانيات التحكم في المسيحية بأسرها قد تضاعفت بشكل بالغ، ومن المتعين أن تنتقل من البلدان المتقدمة إلى العالم الثالث، لكن العالم الثالث لن يتقبل بكامله ذلك الوضع، حيث برز في القرن العشرين ضعف الكنيسة في أمريكا اللاتينية، كما أن الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا ليست ذات مناعة من العلمنة وتراجع الدين الجماهيري التقليدي، ومنذ منتصف ستينيات القرن الماضي فإن قبضة الكنيسة على المؤمنين بها قد تراخت وضعفت إلى حد خطير.

بيد أن هناك أمراً مهماً فيما يتعلق بهذا البابا، وهو ما يذكرنا بكبار البابوات في أواخر القرن التاسع عشر والتأثير الذي أحدثته *Resum Novarum*^(١) فهو آخر المتطرفين العقائدين العظام الذي انتقد الرأسمالية على حقيقتها، وربما كان ذلك صدفة تاريخية، لأنني أعتقد أن اليسار العلماني سيعود إلى وجهة نظره النقدية للرأسمالية، وفي السنوات العشرة الأخيرة كان من الرعب للغاية القول إن الرأسمالية شر أخلاقى،

(١) إشارة إلى الرسالة الباباوية التي وجهها البابا ليون الثالث عشر في ١٥/٥/١٨٩١ عن العدالة الاجتماعية وضرورة إقرار مبدأ "الأجر العادل" والتدخل لوضع تشريع اجتماعي يكفل حق التنظيم العمالي والنقابي وذلك تحت تأثير الفكر الاشتراكي في نهاية القرن التاسع عشر وسميت "الميثاق الكاثوليكي الاجتماعي". (م).

وأعتقد أنه سوف يبدأ تكرار وترديد هذا القول مرة أخرى ومع ذلك، وفي الوقت الراهن فإن البابا هو الشخص الوحيد ذو الأهمية العالمية الذي يرفض الرأسمالية بصفة منتظمة، ومن المؤكد أن هذا الموقف يمثل خروجاً عن مركز الفكر الملتزم الغربى وإجماع الفكرى والسياسى السائد، وتلك ظاهرة مثيرة للاهتمام.

- كثيراً ما نشهد - كما فى الحرب فى كوسوفا - تحالفاً غريباً تحت راية البابوية بجمع بين اليسار المتطرف واليمين المتطرف، بحكم العداء لأمريكا، ألا يزعجك ذلك ؟

- لا يزعجنى ذلك على الأقل من حيث المبدأ، إذ يمكن أن تجد العديد من التحالفات غير العادية عبر التاريخ، وأكثرها غرابة فى القرن العشرين ذلك التحالف بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى مواجهة ألمانيا النازية، وحقيقة قيام تحالفات غريبة لا يعنى أنها تصبح دائمة، ومن الأكثر أهمية ملاحظة أن الانقسام فى حالة كوسوفا يحدث وفقاً للخطوط التقليدية للانقسام بين اليمين واليسار والتقاطع مع الحدود القومية والإيديولوجية، وكان اليسار مقسماً بكل تأكيد، وقد اتخذت مجموعات مختلفة من اليسار مواقف قوية دفاعاً عن الحرب أو اعتراضها عليها، وحدث الشيء نفسه من جهة اليمين برغم إننى أعتقد أنه انتقد الحرب منطلقاً بصفة أساسية من وجهة نظر المهارة المهنية الحربية؛ لأنها نفذت بطريقة سيئة.

وفيما يتعلق بالبابا فإن إدانته للحرب لم تكن على وجه التعيين لأسباب سلمية، وعموماً فأننا لا نعتقد أن غالبية أولئك الذين انتقدوا الحرب فعلوا ذلك بدافع من النزعة السلمية، فهم عارضوا هذه الحرب المعينة كحل لهذه المشكلة المعينة بيد أنه من الحقيقى أن النزعة المعادية لأمريكا والشكوك التى تحوم حول طموحات الهيمنة لدولة واحدة كل ذلك يعتبر العامل الذى جمع بين تشكيلة واسعة من المواقف السياسية، ولا يتعلق الأمر بسعادتى فى هذا الشأن ولكنى أنوه بالكيفية التى تسير بها الأمور وأن الحرب فى كوسوفا قوت لدى هذا الشعور.

الفصل الثالث

القرية الكونية

- لقد كانت البسمة المميزة للعقد الأخير من القرن العشرين عولة الاقتصاد، فهل تعتقد أن العالم أصبح بالفعل وحدة كونية، وحدة اقتصادية واحدة؟

- لم يصبح بعد ولكن من المؤكد أننا نعيش في ظل اقتصاد كونى واحد بالمقارنة مع ثلاثين عاماً مضت، وإن كنا نستطيع القول بكل تأكيد - أيضاً - إننا سنكون أكثر عولة كذلك فى عام ٢٠٥٠ وأكثر فأكثر فى عام ٢١٠٠ ، فالعولة ليست ثمرة فعل وحيد مثل إضاءة النور أو إدارة محرك السيارة، فهي عملية تاريخية تسارعت - بلا أدنى ريب - تسارعاً هائلاً فى السنوات العشرة الأخيرة، لكنها عملية تحول دائم ومطرّد، وذلك ليس من الواضح على الإطلاق فى أى مرحلة نستطيع القول إنها بلغت مقصدها النهائى ويمكن اعتبارها مكتملة، وهو ما يرجع أساساً إلى أنها تنطوى بصفة رئيسية على التوسع عبر كون مختلف بحكم طبيعته ذاتها من الناحية الجغرافية والمناخية والتاريخية، ويفرض هذا الواقع بعض القيود والتجديدات على الكوكب بأسره، بيد أننا نتفق جميعاً على أن العولة - وخاصة الاقتصاد العولى - قد أحرزت هذا التقدم المذهل بحيث لا نستطيع اليوم أن نتحدث عن التقسيم العالمى للعمل كما فعلنا قبل سبعينيات القرن العشرين.

- ومع ذلك يلوح أن العولة - برغم نجاحاتها - لا تزال مقيدة بوجود الدول وسلطتها، فكيف يمكن أن نفسر بطريقة أخرى المحاولة غير الناجحة التى تمت عن طريق " الاتفاق المتعدد الأطراف المتعلق بالاستثمار " بغرض إعطاء الشركات العابرة

الحدود القومية من طرف واحد فى أن تقاضى الدول التى تلحق الضرر بأرباحها ؟
ولماذا يظل هذا العداء؟

- أعتقد أن هذا يحدث لأن العولة ليست عملية عالمية شاملة تمتد إلى جميع
ميادين النشاط الإنسانى بالطريقة نفسها.

- ماذا تعنى إذن بالعولة على وجه الدقة ؟

والإجابة العامة تشير إلى عاملين : التقليل أو الإلغاء التام للحواجز الجمركية بين
الدول وتحديد أسواق رأس المال بما يتيح لها الذهاب إلى أى مكان يحقق لها عائداً
أكبر، ومع ذلك فإن العالم عرف - فعلاً - هاتين الظاهرتين : وإذا لم أكن مخطئاً
فإن الرأسمالية توفرت لها هاتين الخاصتين قبل الحرب العالمية الأولى، فما هو الجديد
إذن حقا ؟

أولاً : لا أعتقد أنه يمكن تحديد العولة - فقط - من حيث إيجاد اقتصاد كوني،
برغم أن ذلك يشكل بؤرتها وأبرز ملامحها، وعلينا أن نطلع فيما وراء الاقتصاد،
فالعولة تركز أساساً على إزالة العقبات التقنية بدلاً من العقبات الاقتصادية، فهى
إلغاء المسافات والزمن، وعلى سبيل المثال، فقد كان من المستحيل أن نعتبر العالم وحدة
واحدة قبل أن نبحر حول العالم فى نهاية القرن الخامس عشر وبالطريقة نفسها فإننى
أرى أن التقدم التكنولوجى الثورى فى وسائل الاتصال والمواصلات منذ نهاية الحرب
العالمية الثانية كان مسئولاً عن مكانية بلوغ الاقتصاد مستويات العولة التى تخفق
فعلاً، وجاء المنطلق من ذلك التسارع الهائل والسرعة الكونية فى نقل السلع. وقد اقتصر
استعمال السلع فى الماضى عملياً على مناطق إنتاجها، وحتى وقت قريب فإن التجارة
تأثرت دائماً من بعض النواحي بعدم المقدرة على نقل السلع القابلة للتلف عبر مسافات
طويلة مع بقائها على حالتها الطبيعية، وكنت تستطيع التجارة فى الحبوب
وليس فى الأزهار الفاخرة.

وجاءت نقطة التحول مع ظهور الشخص الجوى الحديث وأبسط مثال لاحظناه
جميعاً هو إلغاء الإنتاج الزراعى الموسمى، وأنت تستطيع حالياً استيراد الفواكه

الاستوائية أو الكرز أو الفراولة بغض النظر عن المواسم، وتحققت للنقل الجوى السرعة اللازمة لتقديمها طازجة على موائدنا، وهذا ما جعل من الممكن - للمرة الأولى في التاريخ الإنساني - تنظيم الإنتاج، وليس مجرد التجارة بطريقة عابرة للحدود القومية. وحتى سبعينيات القرن العشرين، إذا رغبت شركة في إنتاج سيارات في بلد غير بلدها الأصلي كان يتعين عليها بناء مصنع كامل؛ لكي يقوم بعملية إنتاج كاملة في الموقع الذي اختارته، وإن يكن في القليلين مثلاً، ومن الممكن الآن أن تختار الشركة المركزية إنتاج المحركات والمكونات الأخرى ثم تتولى تجميعها في أى مكان تفضله الشركة، ولأغراض عملية لم يعد الإنتاج ينظم داخل الحدود السياسية للدولة موطن الشركة الأم، وحتى هذا التطور ما كان ممكناً أن يذهب إلى مدى بعيد للغاية دون التقدم المذهل للغاية في نظم وشبكات المعلومات، التي جعلت من الممكن التحكم في عملية الإنتاج مركزياً في وقت متزامن تقريباً.

وهكذا، بينما اقتصر التقسيم العالمى للعمل سابقاً على تبادل المنتجات بين مناطق معينة، فإنه من الممكن اليوم الإنتاج عبر حدود الدولة والقارات، وذلك هو ما قامت عليه هذه العملية، وفي رأى أن إلغاء الحواجز التجارية وتحرير الأسواق يمثلان ظاهرة ثانوية، وذلك هو الفرق الحقيقي بين الاقتصاد الكونى قبل ١٩١٤ واليوم، وقبل الحرب الكبرى كانت هناك حركة عالمية شاملة لرأسمال والسلع والعمل، ولكن تحرير المنتجات الصناعية وأحياناً الزراعية من أماكن إنتاجها لم يكن ممكناً بعد، وعندما تحدث الناس عن الصناعة الإيطالية أو البريطانية أو الأمريكية فهم لم يقصدوا الصناعات المملوكة من مواطني هذه البلدان فحسب، إنما قصدوا - أيضاً - كل ما كان يحدث تقريباً في هذا البلد أو ذاك، ثم تجرى مبادلاته والإتجار فيه مع بلدان أخرى، ولم يعد الأمر لذلك. وكيف تستطيع القول إن فورد سيارة أمريكية، مع العلم أنها صنعت من مكونات يابانية وأوروبية وكذلك من أجزاء صنعت في ديترويت ؟ ومن ثم يبدو لى أنه لا جدال فى أن الاقتصاد العالمى كان قبل عام ١٩١٤ أكثر بدائية بكثير وإن أكبر عامل جعل - على نحو متناقض - الاقتصاد أكثر عالمية فى تلك الفترة هو حرية انتقال قوة العمل عن طريق الهجرة الضخمة، وما يثير الانتباه فى المرحلة الراهنة من الاقتصاد العالمى هو

أن هذا التطور يحدث فى ظل ظروف الرقابة على الهجرة والتحكم فيها من قبل جميع البلدان الرأسمالية الكبرى.

بيد أنه لى نشرح التمييز بين المظهر والواقع فأنظن أنه يلزمنا العودة إلى ما نعنيه بالعولة. وماذا تبقى أو تستطيع تحقيقه، ولنفترض لوهلة ماذا تشبه أكثر مرحلة تقدماً من مراحل العولة : وهو ما قد يتمثل فى وضع تتاح فيه لجميع سكان المعمورة السلع والخدمات وفى أى مكان فى العالم، مع افتراض أن تتوفر لهم الموارد والنقود نفسها التى ينفقونها، ويقول آخر فإن معيشة المرء فى القارة القطبية (انتاركتيكا) لا يمثل إشكالية أكبر من العيش فى روما أو نيويورك، ومع افتراض أنه من الممكن إنتاج السلع والخدمات بكميات تفى بمتطلبات الجميع، وأن تكون النتيجة عدم تأثر الأفراد بأوضاعهم الجغرافية، حسناً - لكن الأمر ليس كذلك - أولاً، لأسباب عملية، لأن الناس لديهم موارد مختلفة، بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء أو أن قوتهم غير متساوية، وبعضهم أحرار والبعض الآخر فى السجون، وليس لهذا علاقة بالبعد الكونى: فقد يحدث داخل بلد واحد أو مدينة واحدة، ولذلك لا يهمنا فى أغراض هذه الممارسة الأكاديمية، ومع ذلك هناك منتجات أو خدمات من المستحيل أن تكون متاحة تماماً للجميع، حتى فى ظل وضع يتسم بالعولة الكاملة. وقد درس علماء الاقتصاد هذه "السلع" POSITMOMAL GOODS^(١) التى تكون بحكم طبيعتها متاحة على نطاق ضيق أو حتى فى ظل أوضاع تتسم بفرادة تامة، ومن الممكن أن تضمن حصول كل فرد على الكوكاكولا، غير أنه يتعذر حصول كل فرد على تذكرة فى "LASCALA"^(٢) فتذكر الدخول محدودة العدد ولا يمكن زيادتها، وبطبيعة الحال يمكن حل المشكلة بطريقة أخرى من الناحية العملية عن طريق إتاحة أقراص مدمجة للجميع تتضمن تسجيلات لجميع الأوبرات التى يعرضها مسرح LA SCALA ، لكن هذا وضع مختلف سواء من الناحية النظرية أو الواقعية.

(١) السلع ذات العرض المحدود التى يزداد عليها الطلب فيما بعد ويرتفع ثمنها حالما يزداد الرضاء المادى. (م)

(٢) من أضخم المسارح الأوبرالية ذات الشهرة التاريخية العالمية فى ميلانو. (م)

وهكذا فإن العولة تتيح - من ناحية ما - لكل فرد إمكانية أكبر لا إمكانية متساوية، فى الوصول حتى إلى أكثر جوانبها تقدماً من الناحية النظرية، وبالمثل فإن الموارد الطبيعية يجرى توزيعها بطريقة غير متساوية، وتتمثل المشكلة فى العولة مع تطلعها إلى أن تكفل النزوع إلى الوصول المتساوى إلى المنتجات فى عالم متنوع وغير متساو بشكل طبيعى، فهناك توتر بين مفهومين مجردين.

ونحن نحاول إيجاد قاسم مشترك يكون فى متناول جميع البشر فى العالم؛ لكى يمكن الحصول على الأشياء التى لا تكون فى متناول الجميع بشكل طبيعى، والقاسم المشترك هو العملة أو النقود، أى مفهوم آخر مجرد، وفى الوقت نفسه فإن المسار التقنى للعولة يستلزم درجة عالية من التوحيد القياسى والتجانس، وسوف تتمثل إحدى المشاكل الكبرى التى ستواجه القرن الحادى والعشرين فى اكتشاف أين توجد الحدود المقبولة للتجانس، التى إذا ما تم تجاوزها فإنها قد تنتج حركة ارتجاعية، وإلى أى مدى يمكن أن تتألف هذه العملية فى التنوع العالمى، ومن الناحية التكنولوجية فإن الاتجاه صوب التجانس بالغ القوة، وإذا فكرنا - مثلاً - فى وسائل النقل، فعندما تهبط فى بعض المطارات الكبرى فى العالم يكاد أن يكون من المستحيل تقريباً أن تعرف فى أى بلد أو حتى فى قارة، أن توجد فآليات التشغيل جرى توحيدها، وتنظيمها عالمياً وتستخدم اللغة نفسها، الإنجليزية. وقد وقعت مؤخراً حادثة جوية خطيرة؛ لأن قائد الطائرة الكازاخستانية لم يستطع أن يفهم الأمر الصادر إليه بالإنجليزية من برج المراقبة فى دلهى، وإذا أرسلت - مثلاً - مصوراً؛ لكى يلتقط صوراً لجميع المكونات الداخلية فى جميع المطارات الكبرى فى العالم، ثم حاولت أن تميز بين الصور؛ فسوف تجد فى جميع هذه الأماكن المتاجر نفسها، والعلامات (الإيقونات) الإعلامية نفسها وأشكال الجماهير المزدحمة نفسها، وهناك تكييف هواء فى كل مكان بحيث يتعذر حتى ملاحظة الاختلاف فى المناخ، وبالطريقة نفسها فإن إجراءات الإنتاج الصناعى يتزايد توحيد مقاييسها وكذلك بالنسبة للإنتاج الزراعى، ومن ثم فإن المشكل - فى رأى - التى تبتدى فى عام ٢٠٠٠، سوف تتمثل فى التأكد من مدى شدة العقبات التى تواجه هذا التجانس المتنامى.

من بين التجديدات التى أشرت إليها، تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى الوقت الحقيقى ووفقاً لما قاله samuel Brittan - من الناحية الأخرى - فإن الإنترنت لا يعد أكثر أهمية من اختراع الكامل الممتد عبر المحيط الأطلنطى، الذى نقل على وجه السرعة أخبار الانهيار المالى فى قيينا إلى بورصة نيويورك ١٨٧٣ ، فما هو المغزى الحقيقى للتكنولوجيا الجديدة فى الاقتصاد الكونى؟

- نحن نعلم أن هذه التكنولوجيا غيرت الأسواق المالية الدولية، وأحدثت اختلالاً كاملاً بين الاقتصاد الحقيقى العلمى وإنتاج السلع والخدمات الحقيقية وطوفان الأدوات المشتقة والحقوق والمراهنات والصفقات المالية، التى تتم عبر شاشات كمبيوتر سماسرة الأوراق المالية، والمبالغ المتداولة فى هذه المعاملات المالية أكبر بكثير من مجمل الإنتاج الحقيقى العالمى، ويرجع هذا بوضوح إلى تكنولوجيا المعلومات، التى تجعل كل هذا سهلاً على نحو لا يصدق، بل تجعل من الممكن للناس العاديين، مثل أولئك الذين يسمون "التجار المؤقتون" دخول الأسواق وممارسة الشراء والبيع مع الوعد بالدفع، دون وجود أساس من النقود الحقيقية.

- هل نقف إذن على عتبة حقبة من "الرأسمالية الديمقراطية" تشارك فيها الشركات الكبرى وأرباب الأسر على السواء فى الوليمة ويقتسمون الأرباح ؟

- هذا هو الوضع فى الولايات المتحدة، لكن صلتة ضعيفة للغاية بالعملة، فانت تتساءل عن المدى الذى يمكن أن يقتسم به المواطنون العاديون الزيادة الهائلة فى الثروة الكونية، والتى سوف تواصل الزيادة ؟ وما هى السبل التى تمكن من حدوث ذلك؟ والطريقة الأمريكية تتمثل فى التوسع المطرد فى الملكية الشخصية للأسهم، ولا سيما أسهم الشركات التى يعتقد أنها ذات مستقبل عظيم مثل تلك التى تعمل فى الإنترنت، وهذه الشركات - كما تعلم - لم تحقق بعد أرباحاً فعلية، لكن من المأمول فيه أنها ستحقق ذلك فى يوم ما، وما زالت فعالية هذا النظام موضع مناقشات مستفيضة وهناك من يزعم فى أمريكا أن هذا هو حل دائم لمشاكل توزيع الثروة، ومن غير الواضح لى كم عدد الأمريكين الذين يستفيدون - فعلاً - من هذا التقسيم للعائد من النمو

القومى أو الكونى، وفضلاً عن هذا فمن الحقيقى - أيضاً - أن هذا الوضع لا يعد - خارج الولايات المتحدة - عاملاً مهماً جداً فى الاقتصاد.

ومع ذلك ثمة شىء واحد واضح، فإضفاء الطابع الديمقراطى على الرأسمالية حقق خطوات هائلة فى الولايات المتحدة فى السنوات الأخيرة، فالجمهور المستثمر أكبر بشكل لا يمكن مقارنته بما كان سائداً فى الأوقات التى اعتبرت بمثابة "الاهتمام الجماهيرى" بالبورصة، وحدث ذلك بطريقتين: عن طريق دخول الأفراد إلى سوق الأسهم ومن خلال صناديق الاستثمار الجماعية مثل صناديق الادخار، والتى من المحتمل أن تكون أكثر أهمية فى الأجل الطويل، ويمكن الزعم بأن هذه الصناديق باستثمارها الأموال لأولئك الذين قد لا يقومون بذلك بصفة شخصية، يمكن أن تغلو عنصراً ديمقراطياً مهماً حقاً فى توزيع الثروة، وفى الوقت نفسه فإنه من الجلى أن الشركات وكبار المستثمرين أحرزوا تقدماً أكبر مما حققه صغار المستثمرين، وفى بريطانيا فإن المستثمرين الأفراد أقل أهمية نسبياً مما كانوا عليه منذ عشرين عاماً مضت، برغم أن حكومة السيدة تاتشر بذلت جهوداً ضخمة لتمويل بريطانيا إلى أمة من المساهمين، وملكية الأسهم حالياً أكثر اختلالاً. وتلك طريقة أخرى للقول إن نمو الاقتصادات القومية والكونية شديد التفاوت فى توزيعه، وغدت الكعكة أضخم غير أن الأثرياء ينالون حصة متزايدة بشكل متسارع للغاية.

- كثيراً ما استخدمت الحكومة العولمة؛ لكى تعرب عن عجزها والتخلى عن جميع مسؤولياتها فى إدارة الاقتصاد، والتخلى عن الأسواق، وتونى بليز الذى عرفته - بقدر من القسوة فى رأى - بوصفه "تاتشر فى زى رجالى" يحرص بصفة خاصة على التمسك بهذه الطريقة، فهل حقاً هذا هو الوضع؟ وهل فقدت الدول بالفعل امتيازاتها؟ علماً بأن المفكر السياسى الألمانى Ulrich Beck يتحدث عن "الانتحار العام البهيج" الذى يرتكبه السياسيون الذين يمجدون السوق.

أعتقد أن هذا يعبر عن بعض الخلط بين شيئين مختلفين، فالعولمة لا رجوع عنها بكل تأكيد وتعد بشكل ما مستقلة عن تصرف الحكومات، وليس الأمر كذلك بالنسبة

للإيديولوجية التي تركز عليها العولمة، أى الليبرالية الجديدة أو "إيديولوجية السوق الحرة" أو ما أطلق عليه اسم "أصولية السوق الحرة" وتلك مسألة أخرى تماماً، فهذه الإيديولوجية تنهض على افتراض أن السوق الحرة تعظم النمو والثروة فى العالم وتحقق التوزيع الأمثل لهذا الازدياد فى الثروة، ومن ثم فإن جميع المحاولات التى تبذل للسيطرة على الأسواق وتنظيمها من المحتتم أن تفضى إلى نتائج سلبية؛ لأنها تقلص تراكم الأرباح التى يديرها رأس المال وتعرقل بالتالى بلوغ الحد الأقصى لمعدل النمو.

وفى رأى أنه لم يوجد أى تبرير معقول على الإطلاق لهذا الرأى، وربما أمكن القول إن السوق الرأسمالية الحرة تحقق معدل نمو أكبر من أى نظام آخر، لكن لا يزال يتعين طرح السؤال عما إذا كان توزيع هذه الثروة يتم فى صورته المثلى، وبقدر ما يتعلق الأمر بالسوق الكونية الحرة، فإن ما يهم هو مجموع الثروة المحققة والنمو الاقتصادى، دونما أى إشارة إلى الكيفية التى يتم بها التوزيع، واقتصاديو السوق الحرة لن يروا ضيراً إذا استطعت - مثلاً - أن تثبت أن سوقاً حرة تماماً أمكنها أن تنتج معدل نمو استثنائى فى مجال الإنتاج السينمائى، ويمكن أن يكون أعلى بكثير مما فى أى نظام آخر، لكن - فى الوقت نفسه - اقتصر إنتاج جميع الأفلام على هوليوود وليس فى أى مكان آخر، وخلاصة القول إن السوق الحرة تفترض أن التوزيع القائم للمزايا والمنافع سيبطل بلا تغيير، ولا يمكن تحسينه.

ومنذ ما يقرب من مائة وخمسين عاماً فإن المنظرين للسوق الحرة - وهم فى ذلك الوقت من البريطانيين - أبلغوا الألمان أن أفضل سياسة يجب اتباعها تتمثل فى زيادة إنتاجهم الزراعى وبيع المنتجات للبريطانيين واستيراد السلع الصناعية من بريطانيا العظمى، مادام فى وسعهم إنتاج فواكه ومواد غذائية أرخص من بريطانيا وفى وسع البريطانيين إنتاج سلع صناعية بتكلفة أقل من ألمانيا، وفيما لو اتبعت - فعلاً - هذه السياسة، التى تم الاعتقاد بأنها الترتيب الأمثل، لكانت قد أفرزت تطوراً اقتصادياً غير متوازن إلى حد بعيد، وعلى أى حال فإن هذا غير مرتبط بالموضوع لدى منظرى الليبرالية الجديدة.

وفضلاً عن هذا، فإن حجة أن الموارد يجرى توزيعها بطريقة مثلى عن طريق تحقيق أقصى معدل رأسمالى لم تكن مقنعة البتة، وحتى آدم سميث أعتقد أنه ثمة أشياء لا تستطيع السوق أولاً ينبغي أن تفعلها، ولذلك فإن الحكومات التى تتبنى إيديولوجية السوق الحرة لا تقول الشيء نفسه مثل أولئك الذين يعترفون - وأنا منهم - بأن العولة لا رجعة فيها، وثمة العديد من السبل التى يمكن أن تمضى بها العولة قدماً، دون أن تقتصر - فقط - على إزالة جميع العقبات التى تحد من تحقيق الربح، وإذا بحثت عن الأسباب التاريخية التى كفلت إيجاد تطور متوازن للصناعة على نطاق العالم فسوف تجد أن ذلك لم يتحقق بفضل التجارة الحرة، بل العكس تماماً، وقد أضحت الولايات المتحدة وألمانيا بلدين صناعيين فى القرن التاسع عشر بسبب عدم قبول التجارة والتمسك بحماية الصناعة فيها حتى أصبحتا قادرتين على التنافس مع الاقتصاد المهيمن، وكان فى ذلك الوقت هو الاقتصاد البريطانى. وفى القرن العشرين فإن التطور الضخم للصناعة فى العالم الثالث اتسم بطابع حمائى وباستثناء هونج كونج، فإن النمور الآسيوية نهجت النهج الحمائى وحتى تصنيع بلدان مثل البرازيل والمكسيك تحقق بفضل عدم قبول منطق السوق الحرة.

وفى الوقت الراهن، فإن حفنة ضئيلة من الحكومات هى التى لا تقبل هذا المنطق، وتعد موضة السوق الحرة الإيديولوجية من بعض النواحي ثمرة ثانوية للمرحلة النهائية من القرن القصير وتمثل قطيعة مع ما يسمى بالعصر الذهبى للنزعة الكينزية^(١)، بيد أن هذه الموضة سريعاً ما تصل إلى نهايتها إن لم تكن قد وصلت فعلاً، وعندما ينظر المؤرخون بعد انقضاء خمسين عاماً إلى حقبتها هذه فمن المرجح أن يقولوا إن الربع الأخير من القرن العشرين القصير انتهى بحدثين : انهيار الاتحاد السوفيتى وإفلاس أصولية السوق الحرة، التى هيمنت على السياسات الحكومية منذ نهاية العصر الذهبى، ويمكن أن تعتبر الأزمة الكونية لعامى ١٩٩٧-١٩٩٨ بمثابة نقطة تحول.

(١) كينز اقتصادى بريطانى شهير (١٨٨٣ - ١٩٤٦) نادى بضرورة توسع الدولة فى الإنفاق الحكومى على المشاريع العامة بغية القضاء على البطالة، وكان قد أرسى أسس ما يعرف بالاقتصاد الكلى Macraecomomis فى كتابه المعروف: النظرية العامة للعمالة والفائدة والتقدم، ١٩٣٦ (المترجم).

- لقد اتسع الآن نطاق النقد الموجه إلى النظرية الاقتصادية الكلاسيكية الجديدة التي قدمها Milton Friedman و von Hayek حتى من قبل المضارب الشهير جورج سوروس أو اقتصاديو السوق الحرة مثل Bhagurati و krugman .

- حقا، إن هذه الإيديولوجية تمر بأزمة، ولا يرجع ذلك - فقط - وبصفة رئيسية إلى أنها أحدثت اختلالاً في توزيع الثروة، ولكن أساساً بسبب تحطم النظام، ويلوح لى أن ما حدث في عامي ٩٧ و ٩٨ يمثل انهياراً له شأنه في الاقتصاد الرأسمالي الكوني، ويعتقد على نطاق واسع أن الانهيار حدث بصفة أساسية بسبب الافتقار إلى الرقابة على إجراءات الاستثمار والتدفق المالي والوولي، ومنذ ذلك الحين - ومنذ ذلك الحين فقط - بدأ ينتشر رفض أصولية السوق الحرة، كما أنها اكتسبت طابعاً درامياً من بعض النواحي، ليس فقط وليس أساساً بفضل الأزمة في الشرق الأقصى ولكن بفعل الكارثة الروسية، وقد شرع الرأسماليون الأنكباء في إدراك هذه الحقيقة منذ وقت مبكر بعض الشيء، وقد انتقد سوروس السوق الحرة منذ مستهل عام ١٩٩٦ ، قبل أن يفسح الزدهار المجال لحدوث انهيار في نصف العالم، والذي جذب حتى الاقتصاد الأمريكي إلى حافة الكارثة، ولعلك تتذكر أنه بفضل التدخل المحدد من الحكومة الأمريكية وبناك الاحتياطي الفيدرالي (federal Reserve) وبفضل هذا التدخل فقط أمكن إنقاذ صندوق الاستثمار المسمى long - term Capital Management juvesement fund مما كفل استقرار النظام المالي الأمريكي.

وقد ارتأيت في كتابي "عصر التطرف" أننا نتجه صوب توسع كوني ضخم، وقد جعلته عولة الصناعة ممكن الحدوث، ولا يتوقع أحد وقوع أزمة أخيرة للرأس مالية أو كارثة كونية ومع ذلك، فمن يستطيع أن يشك في أن ذلك كان أزمة كبرى؟ وفي الغرب، جرى التقليل من مدى جسامتها وخطورتها، وبما أننا نتكلم جميعاً عن العولة فعلياً أن ننظر إلى هذه الأزمة من منظور كوني، وألا نكتفى بالحكم على أثارها على الإيطاليين أو الأمريكيين، ومن منظور كوني، فقد كانت دراماتيكية.

وهناك بلدان في جنوب شرق آسيا وجدت نفسها في وضع خطير كما في أمريكا عقب أزمة ١٩٢٩ وهل تم التغلب على تلك الأزمة؟

وإذا كان الأمر كذلك ، فهذا لا يعنى أننا ينبغي أن نعود إلى الاعتقاد الكامل وبصورة غير انتقادية فى التوسع دون رقابة وسيطرة، وإننى ألاحظ - برغم لغة السوق الحرة الطنانة - عودة إلى النزعة الحمائية مع بروز النزاعات المتصلة بذلك بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وكذلك بين الولايات المتحدة و الصين، ومما له دلالة البالغة أن هذه النزاعات تمثل عكس سياسة السوق الحرة التى تنهجها الولايات المتحدة منذ الحرب، ولا أعتقد أنها وجدت مواجهة منذ ثلاثينيات القرن الماضى بين الولايات المتحدة والبلدان الأوروبية مثل تلك التى نراها فى الوقت الراهن، بما يصاحبها من تهديدات حروب تجارية وفرص تعريفات جمركية جزائية، وأود أن أشير أن ذلك يمثل جديداً فى الاقتصاد الكونى، ولا سيما بالنسبة للولايات المتحدة التى من المتوقع أن تساند السوق الحرة مائة فى المائة.

- ومع ذلك فإنه يستحيل الحط من شأن الثروة والعمالة التى حققتها العولة لعدد كبير من البشر الذين كانوا سابقاً فقراء وفى مسيس الحاجة، وإذا كنا نصاب بالهلع من عمالة الأطفال لم يكونوا يحصلون على هذا الدخل الهزيل، الذى يوفره لهم استغلالهم.

- ومن الطبيعى أن يكون للتغير العميق الذى أحدثته العولة فى حياة البشر تأثيره العميق فى القرن الجديد، ولا أقصد - فقط - التجديدات التكنولوجية، ذات الطابع الثورى الواضح الجلى ، ولكن أيضاً فى مجال أبسط مثل إمكانية انتقال وتحرك البشر، ولننظر إلى السياحة والسفر مثلاً، ففي ١٩٩٧ بلغ عدد الليالى التى قضاها البشر فى الخارج ٦٣٠ مليون ليلة، ويمثل ذلك من الناحية الإحصائية ليلة واحدة لكل تسعة أشخاص، ومدى التغير الذى يمكن أن يحدثه السفر حول العالم هو أمر لا نقدره حق تقديره تماماً، وقبل اندلاع الحرب الأخيرة فكان عدد الأمريكيين الذين زاروا أمريكا الوسطى (المكسيك وجزر الكاريبي) لم يتجاوز ١٥٠٠٠٠ شخص سنوياً، وأقل من هؤلاء قاموا بزيارة ديزنى لاند يومياً. والحركة المذهلة للبشر، على غرار المنتجات والمعلومات، هى حركة غير مسبوقة وما هى حدودها ؟ ربما لم تصل بعد إلى حدها الأقصى، لكن هناك حدوداً - بكل تأكيد - حدود مادية على أقل تقدير، ولديكم المشكلة نفسها فى إيطاليا.

فكم عدد أولئك الذين فى وسعهم الذهاب إلى فلوريدا أو البندقية سنوياً؟ لقد أضحى العالم ثرياً ثراءً فاحشاً، وعدد أولئك الذين تتوفر لديهم الموارد الدنيا للقيام بما كان مقصوراً قديماً على الأثرياء قد ازداد بما لا يقارن بما كان عليه من قبل.

- دعنا ننظر إلى حالة روسيا، ولقد كتبت قائلًا إنه ربما كانت البلد الوحيد فى العالم حيث أفضى اختبار النظرية القائلة إن الشيء الوحيد الذى يحتاجه اقتصاد ما هو السوق الحرة - إلى الدمار والخراب، وقد قرأت مؤخراً أن أرباب المعاشات فى هذا البلد يعيشون على دخل شهرى يتراوح بين عشرة دولارات و مائة دولار وإن نصف العملة المتداولة هى عملة أجنبية، وقد أشار فيكتور زاسلافسكى إلى أنه يمكن لنا أن نقرر حجم المشكلة الروسية إذا وضعنا فى الاعتبار أن سبع عشرة مليون نسمة فى ألمانيا الشرقية احتاجوا إلى مساعدة قدرها ٩٠٠ مليون دولار للخروج من المأزق.

- حقا إن روسيا تمثل حالة خاصة ويعتقد الاقتصاديون - نظرياً - فى الانتصار الكامل لإيديولوجية السوق الحرة، لكن من حيث الممارسة العملية فإنه لم يوجد بلد حاول قطع الشوط كله حتى النهاية، وهو ما يرجع جزئياً إلى معوقات سياسية، ولم تستطع أية دولة - حتى الولايات المتحدة - أن تسمح بحرية الهجرة إليها، وهكذا، فإن روسيا هى الحالة الفعلية الوحيدة التى قررت بين عشية وضحاها أن تطبق بالكامل منطق السوق الحرة للرأسمالية، وأسفرت النتائج عن كارثة كلية، وإذا تمت المقارنة بين الآثار الإيجابية لانتهاء الاتحاد السوفيتى ونظامه السياسى وبين الآثار السلبية، فإنه يمكن القول إن الآثار الأخيرة أعظم وأكبر على وجه اليقين، ويصدق ذلك بكل تأكيد على غالبية الروس، ويقول الكثير من كبار السن إنهم يفضلون العودة إلى سبعينيات القرن الماضى فى عهد بريجنيف، ومما يدل على ضخامة الكارثة الروسية أن يعتبر الروس عهد بريجنيف عصرًا ذهبيًا.

ومدى الكارثة البشرية التى ألمت بروسيا هو أملاً لا نستطيع نحن أن نفهمه فى الغرب، وكان ذلك بمثابة انقلاب كامل الاتجاهات التاريخية: حيث انخفض متوسط عمر الرجال بعشر سنوات عما كان عليه فى العقد الماضى وانخفض القدر الأكبر من

النشاط الاقتصادي؛ لكى يصبح اقتصاد الكفاف الزراعى. وأعتقد أنه لم يوجد مثيل لهذا فى القرن العشرين، وقد يتساءل المرء عما إذا كان ذلك يرجع بكامله إلى تطبيق قوانين السوق الحرة، وأعتقد أن ذلك يتطلب فيما يتطلب - ولو لم يكن لسبب آخر غير تلك القوانين الخاصة بالسوق الحرة - حتى بعد تعديلها - نوعاً معيناً من المجتمع، وإذا لم يوجد ذلك فى المجتمع فالنتيجة هى الكارثة، وإخفاق جوربا تشيف كان محتملاً سلفاً.

ويكاد يكون الوضع فى روسيا دون حل، وذلك لأن المنظمة الوحيدة التى مازالت قائمة وتواصل العمل هى الحزب الشيوعى الذى كان - أيضاً - أكبر عقبة حالت دون تحقيق الإصلاح، ومع ذلك فإن تدمير المنظمة الوحيدة فى المجتمع السوفيتى التى كان فى استطاعتها أن تفعل شيئاً - وهو ما فعله جوربا تشيف - دمر فعلياً الاتحاد السوفيتى، وقد أدانته روسيا حتماً وفعلاً. وإذا ما عقدنا مقارنة بين روسيا والصين حيث وجد كل منهما اقتصاد اشتراكى، فإننا سنجد أنه كان واضحاً منذ ستينيات القرن العشرين أنه يتعين عليهما - إذا ما رغبا فى الاستمرار والبقاء - تطبيق بعض عناصر السوق وأن تؤخذ بعين الاعتبار مطالب المستهلكين، ومنذ تلك الستينيات حاولت المجر وتشيكوسلوفاكيا وروسيا نفسها إدخال إصلاحات تسير فى الأساس فى هذا الاتجاه. وكان واضحاً المسار الذى يتعين اتخاذه، وما إذا كان ذلك يمكن أن يكون متوافقاً مع إبقاء هيكل الدولة الاشتراكية هو مسألة أخرى.

بيد أننا إذا قارنا الصين بالدول الاشتراكية التى انهار نظام الحكم فيها عقب انتهاء الاتحاد السوفيتى، فمن الجلى أن الصين لم تنهار بل على العكس اتخذت إجراءات منظمة لإدخال الإصلاح الاقتصادى بما يتمشى مع اقتصاد السوق، ونجح الصينيون فى هذا، برغم المشاكل الاجتماعية والاقتصادية الجسيمة التى واجهتهم، أساساً بسبب عدم تخلى الحزب والنولة عن مسؤولياتهما، وقد رأوا ما حدث فى الاتحاد السوفيتى وبذلوا كل الجهود التى فى استطاعتهم لتفادى ذلك، وذلك هو المغزى الحقيقى فى رأى الظاهرة التى عرفت باسم الميدان السماوى Tianan men. وقضلاً عن هذا فإنهم أدركوا تمام الإدراك ضرورة تنظيم عملية الانتقال، مما يعنى أنه لا يمكن بكل بساطة

التخلي عن قطاعات الاقتصاد غير الفعالة للسوق الحرة، بل يجب أيضاً أخذ الاحتياطات اللازمة بشكل أو آخر لضمان مستقبل الصناعات الحكومية الضخمة التي لا يمكن إقفالها، لأنها لا تحقق ربحاً، وبما أن الصين تمكنت من إبقاء سيطرتها على هذه العملية فقد استطاعت الدولة - بطريقة أو أخرى - أن تتحمل مسؤوليتها لمواجهة المشاكل المترتبة على فترة الانتقال، وبعد انقضاء عشر سنوات على حادثة الميدان السماوي فإن هذا البلد يتمتع باقتصاد قوى يواصل نموه بل يعد بالأحرى ومن مناحى عديدة اقتصاداً رائعاً، ومن الواضح أنه يواجه مشاكل خطيرة، لا يمكن مقارنته ولو مقارنة واهية ضعيفة بالوضع الراهن للاتحاد السوفيتي السابق.

- ثمة تناقضات لفظية عديدة في مدرسة الحرية الاقتصادية (دعه يعمل) فالسلع ورءوس الأموال يجري تداولها بحرية، ولا ينطبق ذلك على القوى العاملة، وفي اقتصاد يركز على المنافسة ما أكثر عمليات الدمج التي تتم على نطاق ضخم، بهدف خلق مراكز احتكارية في السوق وبينما تتحدث النظرية الكلاسيكية الجديدة عن ضرورة الإبقاء على "معدل طبيعي للبطالة" لكي يمكن تفادي التضخم، فإن حكومات اليوم تهتم بمقاومة الانكماش وتقديم الدعم الحكومي للعمالة فما هي صلة ذلك بعملية العولة ؟

- وما هو أكثر طبيعية من ذلك اتجاه الاقتصاد القائم على المنافسة إلى الاحتكار، وذلك هو جوهر تحليل ماركس بالمنافسة الرأسمالية تقضى إلى تركيز رأس المال، وفي الأوضاع الراهنة فإن ذلك يحدث بسرعة، لكنه حدث يوماً.

ويتصرف كثير من الإيديولوجيين والسياسيين كما لو أن هذه العملية لا يمكن التحكم فيها، كما لو أن الحكومات ليس لديها القدرة على مقاومتها، وإنه يتعين عليها أن تدعن لها وتتكيف مع حقيقتها، وهذه العملية لها حدودها التي لا يمكن التغلب عليها، وترجع بصفة أساسية إلى المقاومة السياسية التي يبديها السكان المعنويون، كما في حالة الحدود المفروضة على هجرة العمالة الرخيصة، ومن وجهة نظر منطق السوق الحرة فإنه ينبغي وجود حركة حرة - تماماً - لجميع عناصر الإنتاج، ومع ذلك، فقد ثبت أنه يكاد يكون من المستحيل ضمان وجود حركة حرة، حرية كاملة لأحد عناصر الإنتاج : ألا وهي قوة العمل ولأسباب سياسية وعملية - وعلى الرغم من كل الأحاديث

الدائرة عن أسواق العمل المرنة - فلا توجد حكومة تعتقد بجدية أنه يتعين عليها أن تنهج مثل هذه السياسة عن طريق تخفيض مستويات الأجور البريطانية أو الإيطالية لتكون في مستويات الأجور الصينية أو الكمبودية؛ لأن الآثار السياسية والاجتماعية لن يمكن تحملها، أو اعتبرت هكذا على أقل تقدير.

وفكرة أن العولة لا يمكن التحكم فيها خاطئة وأنت تعلم أنه من الممكن التحكم فيها على الرغم من بعض الجوانب أكثر صعوبة في السيطرة عليها، ونعلم أن التحكم فيها أحياناً لأن الحكومات قامت بذلك أحياناً وبنجاح. واليوم هناك حركة حرة لانتقال الأيدي العاملة أقل مما كان في العالم قبل عام ١٩١٤ عندما لم توجد حدود مفروضة على الهجرة سواء إلى الولايات المتحدة أو إلى أمريكا الجنوبية، ولا يوجد بلد حالياً - في حدود معرفتي - ينجح سياسة هجرة مماثلة : لا الولايات المتحدة ولا الاتحاد الأوروبي، الذي يعمل عموماً في اتجاه الحيلولة بون الهجرة، وإن كان بدرجة أقل.

ويرجعنا هذا إلى السؤال الكبير عن الصراع بين قوى الرأسمالية التي تناصر إزالة جميع العقبات، والقوى السياسية التي تعمل بصفة أساسية من خلال الدولة القومية (الدولة - الأمة) وهي مضطرة إلى تنظيم هذه الإجراءات وضبطها أو أنها تختار عن عمد القيام بذلك وهذا صراع؛ لأن قوانين التطور الرأسمالي بسيطة: أقصى حد من التوسع وتحقيق الأرباح وزيادة رأس المال، بيد أن أولويات الحكومة والشعوب المنظمة في مجتمعات مختلفة بحكم طبيعتها ذاتها، وهي في صراع إلى حد ما.

- لقد دعوت إلى شكل ما من الرقابة على الأسواق المالية ولست الوحيد في هذا الصدد، وهذه الرقابة من المفترض أن تضعف من تأثير ربود الأفعال اللاعقلية والتي تحدث ما يطلق عليه تأثير الدومينو، وربود الأفعال هذه يمكن أن تحدث انهياراً مالياً ضخماً ذي أبعاد كونية في بعض أجزاء العالم وذلك في ومضة عين، لكن من هو الذي يفرض هذه القواعد؟ هل هي الدولة القومية التي لا تمتلك السلطة؟ أو المنظمات الدولية التي لا تمتلك السلطة وتطبق - أحياناً - علاجات أسوأ من المشاكل التي يفترض أن تجد حلاً؟

- إن المنظمات الدولية التى لدينا هى موجودة - فقط - بإذن من الدول القومية، ولا تتمتع بسلطة مستقلة بخلاف تلك التى تخولها إياها الدول الكبرى أى الولايات المتحدة وقلة من الدول الأخرى. ومنذ الكساد الكبير وعلى الأخص، منذ الحرب العالمية الثانية وجدت منظمات دولية مخصصة لمراقبة تدفق رؤوس الأموال : بنك التسويات الدولية الذى وجد منذ عام ١٩٢٩ وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى وجاءت نشأتها بموجب اتفاق بريتون وودز، وهو نتيجة التعاون بين كينز والاقتصاديين الأمريكين (وربما كان من الأفضل فيما لو تمكن كينز من تحقيق أكبر، لكن ذلك هو ما انتهت إليه الأمور) بيد أن هذه المؤسسات تعتمد - أيضاً - على الدول القومية، وفى الواقع فإن الدول هى السلطة السياسية الوحيدة، وكما ناقشنا آنفاً فلا يوجد اتجاه طبيعى صوب عولة المنظمات السياسية يمكن مقارنته بالاتجاه الطبيعى فى المجال الاقتصادى صوب العولة فالأمران مختلفان تماماً.

وما إذا كان يمكن قيام سلطة دولية فإن ذلك يتوقف على اتخاذ قرار سياسى ولا يعتمد على منطق التطور الاقتصادى والتكنولوجى، وتلك مشكلة سوف تسيطر على التطورات فى القرن الحادى والعشرين، وفى السنوات العشرين الأخيرة، إبان المد الكاسح الذى اكتسبته أصولية السوق فقد لاح لوهلة أن الدول يمكن إضعافها بصورة بالغة أو حتى إزالتها باعتبارها عقبة أمام الاقتصاد العابر للحدود القومية، ودارت مناقشات حول اتفاق الاستثمار المتعدد الأطراف، الذى كان أن يمكن أن يعطى الشركات الحق من جانب واحد فى مقاضاة أى دولة بسبب السياسات التى قد تضر بتحقيق الأرباح، وبعد انقضاء عدة شهور فإن المفاوضات التى بدأت - منذ قليل - انتهت إلى لا شىء بالفعل وتوقفت، وفضلاً عن هذا فإننى لا أظن أنه سوف تتكرر محاولة إحيائها، على الأقل الشروط نفسها، وبالتالي هناك صراع مستمر وسيوجد دائماً، ومما قد يكون مثيراً للاهتمام إمعان النظر فى كيف سيكون العالم إذا كفت الدول عن أن تكون قيدياً على تطور الاقتصاد الرأسمالى العابر للحدود القومية الذى يقوم على تصور كوكب، الوحدات الأساسية فيه لم تعد الدول بل هى الشركات. ومن الناحية النظرية يمكن تصور عالم لم يعد مقسماً جغرافياً، بل يقوم على أساس وجود

مائتين من أكبر المؤسسات الدولية تكتنفها وحدات اقتصادية أصغر مازال لديها المقدرة على أن تتسم بطابع دولي، مثل بينيتون (Benetton) وأخيراً عدد كبير من الشركات الصغيرة للغاية التي يمكن الوصول إلى الأسواق الكونية من خلال الإنترنت، مثل تلك الأسرة الصغيرة لبيع اللحوم المحفوظة أو المعلبة في بريطانيا التي تباع منتجاتها في كل قارة.

وماذا سوف يشبه مثل هذا العالم؟ ونحن نعلم أن الأمم الرئيسية، الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا وألمانيا ظلت لما يقرب من مائتي أو ثلاثمائة عام بولاً عظمى بدرجة أو بأخرى، ونحن نعلم أنها يمكن أن تغدو أقل استقراراً كما رأينا في حالة روسيا، ونحن نعلم أنها يمكن أن تتفتت في المستقبل مثل المملكة المتحدة، ومع ذلك فإن الاستقرار النسبي للخريطة السياسية للعلم المتقدم التي كفلتها الدول يمكن أن نقبلها كواقع ثابت، ومن غير الواضح إلى أي مدى يمكن أن يصدق هذا على عالم منظم من حول أعظم أبطال الاقتصاد الكوني مثل جنرال موتورز وفورد و IBM وميكروسوفت، وتستطيع كل شركة من هذه الشركات العملاقة أن تحدث تغييرات في بنيتها الهيكلية يمكن أن تكون أبعد مدى بكثير من تلك التي يمكن أن تحدث في الدول. وفي أواخر العصور الوسطى كانت دوقية برغنديا (فرنسا) قوة سياسية وثقافية عظمى ثم اختفت، ومن غير المحال تختفي تلك القطاعات من المنظر الاقتصادي الذي نعتبره اليوم دائماً، مثل جنرال موتورز، أو يتم الاستحواذ عليها في فترة وجيزة تمتد من أربعين إلى خمسين عاماً، وذلك أن ديناميكية الاقتصاد الكوني هي على النحو الذي لا يمكن أن يكفل استقرار الأبطال الأساسيين، ولنأخذ مثل أوليفتي التي لا تعد بكل تأكيد أكثر ثراء من Telecom Italia ، ومع ذلك في استطاعتها أن تستولي عليها، وذلك ما أعنيه بعدم الاستقرار.

وإذا افترضنا الآن اختفاء الاستقرار النسبي للدول، فإن عدم استقرار عالم منظم بما يتمشى مع اتجاه الاقتصاد العابر للحدود القومية سوف يزداد بكل تأكيد، وثمة توتر مطرد بين هذين النظامين اللذين يتعايشان حالياً ويجب أن يتكيفاً معاً. ومن الواضح - مثلاً - أن الاقتصاد الدولي تعوقه ضرورة الخضوع للتشريع الوطني

ولهذا فإنه يطور دائماً في موازاة ذلك نظامه القانوني الخاص به، وتلك محاولة لتجنب الخضوع للنظم القانونية المحلية وليكن مثلاً عن طريق إرساء مبدأ اللجوء إلى التحكيم بمعرفة هيئات مستقلة.

بيد أننا نعيش في وضع سوف يستمر لبعض الوقت، يتعين فيه على اللاعبين في الاقتصاد الكوني أن يتوافقوا مع قوانين ومؤسسات نظم الدول القائمة، ويصدق ذلك بأقل تقدير على البلدان الرئيسية، وهو ما لا يسرى على العديد من الوحدات السياسية الصغيرة التي يمكن للاقتصاد الكوني أن يتلاعب بها ويسيطر عليها مثل إمارة ليختنشتين، وتلك المسماة ببلدان الملاذ الضريبي. لكن علينا أن نتذكر أنه حتى دولة مثل ماليزيا كانت قاهرة على اختيار طريقها الخاصة في التعامل مع أزمة ١٩٩٨ بما يتعارض مع اقتراحات البنوك الدولية التي أوضحت ما الذي يمكن ألا تقوم به الدول، ومن الواضح أنه لا يمكن الذهاب إلى أبعد من هذا الحد في التدخل في سيادة الدول.

ولا تتمثل المشكلة - إذن - فيما إذا كانت الحكومات تستطيع السيطرة على الشركات الدولية العاملة داخل حدودها، وإنما المشكلة تتعلق بالسيطرة الكونية، فعندما ينشب صراع بين مؤسسات كونية والحكومات فإنه يتعين على الحكومات أن تتفاوض كما لو كانت تتعامل مع دول أخرى. ولنتظر - مثلاً - في الحالات التي تم فيها انسحاب فولس فاجن من فالنسيا (إسبانيا) أو عندما أقفلت B m w مصنعاً مهماً في إنجلترا، وفي مثل هذه الحالات يتعين على الحكومات أن تتفاوض مع تلك الشركات كما لو كانت دولاً، ومن الطبيعي أنه كلما كانت الدولة قوية كلما أمكنها الحصول على المزيد، لكن لا بد لها من أن تتفاوض مع مثل هذه الشركات.

وحتى الآن فإن المحاولة الوحيدة للسيطرة على الاقتصاد العابر للحدود القومية عالمياً قد جرت عن طريق تأسيس تحالف (كونسورسيوم) من الدول كما حدث في الاتحاد الأوروبي، وإلى أي مدى سيكون النجاح حليفاً لهذا التوجه تلك مسألة قيد النقاش، ولا يشك أحد في إمكانية ذلك برغم المصاعب التقنية، ويمكن في نهاية الأمر - وكحالة قصوى - أن تتدخل الولايات المتحدة في التحويل المادي الفعلي للأموال عن طريق تعطيل الأقمار الصناعية التي يعمل عن طريقها النظام المالي.

ويتمثل الخطر الماثل في الوضع الراهن في أن الدول الكبرى، الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان، لا تجد نفسها مضطرة إلى اتخاذ إجراءات فعالة إلا في فترات الأزمات، وعندما تمر الأزمات تختفى أيضاً المبادرة للقيام بعمل ما، وذلك هو ما يحدث الآن. وقرب نهاية خريف عام ١٩٩٨ ولدة شهور قليلة تحقق إجماع عام على ضرورة إعادة تنظيم الرقابة على المعاملات المالية وإنشاء بريتون وودز جديدة، ويقول الأمريكيين - حالياً - إنه ليست هناك حاجة فعلية على ذلك، وبالرغم من ذلك فإننى أعتقد أنه سوف تتقرر فى النهاية درجة أكبر من الرقابة. وكيف تتم تلك مسألة أخرى، وهناك تباين شاسع فى الآراء بين الخبراء وبين صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والفيدرال ريزرف الأمريكى، والمفارقة هى أن أمريكا ليست قوية بما يكفى لفرض نظام اقتصادى جديد. وفى الأربعينيات من القرن العشرين كانت إذا ما اتفقت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى على أمر ما فإنه يشق طريق إلى الأمام، واليوم إذا أرادت أمريكا فعلاً إعادة هيكلة النظام المالى العالمى فمن غير الواضح ما إذا كانت قادرة على أن تفعل ذلك.

- أنت من أشد المتحمسين لما سميته العصر الذهبى الكينزى الذى أعقب فى الغرب الحرب العالمية الثانية، وأشرت إلى أن النمو فى البلدان المتقدمة كان فيما بين عامى ١٩٦٠ و ١٩٧٤ (المتوسط السنوى ٤,٩ فى المائة) أكبر منه فى السنوات التى سيطرت عليها نظريات السوق الحرة (فيما بين ١٩٩٠ و ١٩٩٧ حيث بلغ معدل النمو ٢,١٥ فى المائة) لكن هل تعتقد حقاً أنه يمكن تطبيق الوصفة الكينزية على اقتصاد اليوم، لقد حاول ميتران فى فترة حكمه الطويلة غير أنه فى خلال عامين استسلم للأرثوذكسية الرأسمالية، وحاول لافونتتين فى ألمانيا واستمر أقل من ستة شهور.

- لا توجد سياسات اقتصادية صالحة يوماً وعلى نطاق عالمى شامل، ومن الواضح أن السياسة الكينزية عملت على نحو جيد تماماً فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، وهو ما يرجع جزئياً إلى الأوضاع السياسية، حيث وجد مناخ أرادت فيه الحكومات إنجاحها، غير أنه وجدت أيضاً أوضاع خاصة لا يمكن أن تتكرر، وكان

ممكناً فى تلك الفترة زيادة الأرباح والأجور والرفاهية دون تقليص النمو أو إحداث تضخم يصعب التحكم فيه، ولا أود القول إنه يمكن يعث هذا النظام الاقتصادى، ومن المؤكد إنه من غير الممكن لبلدان متوسطة الحجم تطبيق سياسة اقتصادية دون الرجوع إلى الاقتصاد الكونى، ما لم تقرر الانعزال عن العولة، وهو ما يعد حالياً من غير المرجح، برغم أنه ممكن نظرياً. ولدينا بعض الحالات القصوى مثل ألبانيا التى عزلت نفسها عملياً عن بقية العالم، لكنها تمكنت من البقاء حتى انهيار الشيوعية، ولم تكن بكل تأكيد تتمتع باقتصاد جيد وفعال وغنى بحيث كنا نتمنى العيش فيه، وكان الناس فقراء للغاية غير أنه كان اقتصادياً يعمل، لكنه انهار عندما انهار النظام السياسى الذى استبعد العالم كله، وعندئذ - فقط - كف عن العمل، ولا أقول إنه ثمة إمكانية حقيقية لكى يسلك آخرون المسلك نفسه أحياناً لكن لا يمكننا أن نستبعد حدوث ذلك.

وفى المستقبل تستطيع بعض بقاع العالم أن تقرر احتضان النزعة الحمائية، وهو أمر قد يكون غير مرغوب فيه لأنه قد يحد من معدل النمو العالمى، بيد أنه قد لا يعدو كارثة بالضرورة بالنسبة للبلدان التى تختار سلوك هذا المسار، وتتعهد الحكومات حالياً باتباع سياسة ديمقراطية تكون الغلبة فيها لمصالح الناس العاديين، وعليها أن تعمل فى نهاية الأمر ما يريده المحكومون، وحتى فى نظم السوق الحرة الأكثر راديكالية فإن الدولة - عموماً - هى التى توفر معظم الخدمات العامة والمعاشات والخدمات الصحية، ويبدو لى أن هذه هى المطالب الاجتماعية الرئيسية الثلاثة التى يتعين على كل حكومة أن توفرها، ولا يمكن ضمان أى منها دون وجود نظام تديره الحكومة ولو جزئياً على أقل تقدير، وحتى فى الولايات المتحدة - مثلاً - لا تحلم أى حكومة سواء من الديمقراطيين أو من الجمهوريين بإلغاء الرعاية الطبية التى تعد فى الواقع رعاية اجتماعية توفر العلاج الصحى لجميع الأمريكين البالغين.

ولم تحاول أبداً أية حكومة - حتى ولو كانت محافظة - إلغاء دولة الرعاية الاجتماعية، وتنفق هذه الحكومات على الرعاية مثلما تنفق الحكومات الاشتراكية وربما أكثر، وتحاول أن تجعلها أقل جانبيه وتحاول تثبيط همة المواطنين؛ لكى يحسوا من استعمالها والإفادة منها لكنها لم تكن قادرة على إلغائها كلية، وهكذا فإنه يتعين على

الحكومات أن تنهج سياسة اقتصادية تعمل على ألا تثبط عزيمة القطاع الخاص فى خلق الثروة وأن توفر فى الوقت نفسه المطالب الاجتماعية للسكان. وهناك جدل مستفيض فى بريطانيا ينصب على خصخصة نظام المعاشات وقد حاولت تاتشر، لكنه أصبح واضحاً أنه لا سبيل يمكن الأفراد من الحصول على دخل عندما يتقدم بهم السن دون بعض المساعدة من الحكومة، حتى ولو لم تكن أكثر من تخفيضات ضريبية على مدخرات المعاش ومشكلة المعاشات أقل خطورة الآن بالنسبة لمعظم الأمريكيين بسبب النمو الهائل فى بورصة وول ستريت، لكن هذه حالة فريدة تخص نسبة ٥٪ من سكان العالم.

يعد الاستهلاك من بين القوى العظمى التى تقف خلف النموذج الأمريكى والاقتصاد الكونى، وقد ارتكز الازهار الذى شهدته تسعينيات القرن العشرين على الاختيار الاستهلاكى للأمريكيين الذين توقفوا بصفة مستمرة أو استثمروا كل أموالهم فى سوق الأسهم، ولقد كتبت قائلاً : "إننا نعيش حقبة كان يمكن أن تنال تقدير مارى أنطوانيت؛ لأنه أصبح فى وسع الأغلبية أن تاكل الكعك بدلاً من الخبز" ألا يعد بسخرية تاريخية أن النزعة الاستهلاكية ذات التأثير المهلك هى التى تصبح دعامة للنظام على وجه الدقة ؟

- أعتقد أن الأمر هو أكثر من مجرد كونه بسخرية تاريخية، فنمو الثروة بلغ حداً من الضخامة بحيث غير الأوضاع كلية فى الواقع، كما أن مقدرة الاقتصاد الكونى على زيادة الإنتاج - حتى ولو كان ذلك مقترناً بتوزيع غير متكافئ إلى حد كبير - قد غيرت السوق الاستهلاكية فى الولايات المتحدة أولاً ثم فى أستراليا وفى أوروبا، ولكن على نحو متزايد فى كل مكان، وينبغى ألا ننسى - بغض النظر عن أى معيار نستخدمه - أن غالبية الشعوب أصبحت أيسر حالاً فى نهاية القرن العشرين، برغم الكوارث غير العادية التى شهدتها ذلك القرن، وهناك استثناء واحد أو استثناءان، تدهورت فيهما الأوضاع وعلى الأخص فى السنوات الأخيرة فى إفريقيا وروسيا، ولكن إجمالاً فإنه لدينا حالياً ثلاثة أضعاف عدد السكان الذى كان فى مطلع القرن، ومع ذلك فإن هؤلاء البشر أقوى بدنياً وأطول قامة وأطول عمراً وأكثر صحة، ويعانون بدرجة أقل الجوع والمجاعة ويحصلون على دخل أكبر ولديهم إمكانية أكبر بكثير للحصول على السلع والخدمات،

بما فى ذلك تلك التى توفر لهم فرصاً أكبر فى الحياة مثل التعليم، ويصدق ذلك - أيضاً - على البلدان الأشد فقراً، وأخيراً فإنه لم تحدث مجاعة فى الهند منذ عام ١٩٤٣ ، ولم يعد الجوع فى معظم بقاع العالم - مع بضعة استثناءات - شيئاً يتعين على البشر أن يتعايشوا معه.

ويعنى ذلك - وللمرة الأولى فى التاريخ - أن الإنتاج يمكن أن يفى بمطالب جماهير السكان ولم يعد البشر فى البلدان المتقدمة يعيشون فى عصر العوز والفاقة، ويمكنهم أن يختاروا من بين الأشياء التى يريدونها، بعد أن يصبح لديهم ما يكفى من الأكل وما يزيد عن الحاجة من المسكن ولم يعد ينتابهم القلق فيما يتعلق بخبزهم اليومى وعليهم أن يقرروا - فقط - أى نوع من الخبز يفضلون وأى سندوتشات يختارون... إلخ، وقد عمل ذلك على تغيير الاقتصاد سواء من حيث الخدمات أو السلع المادية، ولننظر فقط فى إمكانية الإفادة من الثقافة من حيث توفر عدد الكتب والتسجيلات وعدد أولئك الذين يمكنهم الحصول على التسلية والترفيه فى جميع ساعات اليوم وذلك لا سابقة له فى تاريخ البشرية، وفى البلدان المتقدمة، حتى الأكثر فقراً والأكثر هامشية يعيشون على نحو أفضل إلى حد بعيد مما كان يعيش أجدادهم، ذلك هو أحد أسباب العودة الناجحة لمعتقدات السوق الحرة ولو لفترة قصيرة فقط، وهدفها ليس هو إلغاء الفقر وتحقيق إعادة التوزيع والعدالة الاجتماعية، ولكن برغم كل ظلمها فإن الفقراء ينزعون إلى قبولها، كما لو كانوا أكثر ثراء بقدر هائل.

وما أضخم النمو الذى حدث فى الإنتاج البشرى وفى مدى إتاحة الثروة، وقد استفاد من ذلك القدر الأعظم من سكان العالم، وتلك إحدى قسّمات القرن العشرين التى يتعين أن توضع فى الحساب عند تقييم أى القرون أفضل أو أسوأ، لقد كان عدد القتلى أكبر منه فى أى قرن آخر، لكن فى نهايته وجد عدد من البشر أكبر مما وجد فى أى وقت آخر، تحوّلهم كبار الأمال وتتاح لهم فرص أكبر، دعنا نأمل فى أن يحرز القرن الحادى والعشرين المزيد من التقدم، ولكن دون حدوث كوارث، غير أنه إذا حدثت ستكون مختلفة، وذلك كنتيجة لما شهده القرن العشرين وحدث فيه.

ثمة جانب رئيسى فى الاقتصاد الحديث تمثل فى التحول التدريجى من السلع الصناعية إلى اقتصاد يقوم على الخدمات، ويشعر كثيرون بالحنين إلى العامل الصناعى، فهل يعد مجتمع ما بعد الصناعة استجابة جيدة لعالم تباع فيه الأفكار بشكل أفضل من بيع الأشياء المادية ؟

واليوم فإن الاستثمار الصناعى لم يعد حتى يضمن تحقيق زيادة فى القاعدة الصناعية بسبب التكنولوجيا الجديدة، وعقيدة الاقتصاد الجديد هى "أرباح أكثر ووظائف أقل".

- هذه العملية عجلت بها العولمة، ولكنها ليست بالضرورة نتيجة لها، ومع ذلك من الخطأ الحديث عن حقبة ما بعد الصناعة؛ لأن تلك السلع والخدمات التى كانت تنتج فى الحقبة الصناعية مازالت تنتج اليوم، وعلى الرغم من أنها تنتج بكميات أكبر ويجرى توزيعها على نطاق واسع إلا أن ذلك يحدث بقدر أقل من طاقة العمل المبذولة فيها، والجديد فى هذا الوضع هو أنه من بين جميع عناصر الإنتاج فإن الحاجة إلى الطاقة البشرية تتجه إلى التناقض بقدر مطرد، ويرجع ذلك إلى أنها لا تنتج بقدر التكلفة، فالإنسان لم يخلقوا للأسمالية، ولا يفرز هذا تأثيرات سلبية على الإنتاج وإنما على البشر فقط.

وأعتقد أنه يتعين علينا أن نجد طريقة أخرى لاقتسام منافع الثروة التى ينتجها عدد متناقض من الأشخاص، يمكن أن يكونوا قلة محدودة للغاية - فعلاً - فى المستقبل، وهناك طريقتان لذلك : الطريقة الأولى - وهى الأسلوب المستقر من الماضى - التى كفلت للناس العيش عن طريق منح أجر أو مرتب مقابل ما يؤدونه من عمل، وبالنسبة لغير القادرين على العمل فقد تم ترتيب عملية تحويل جزء من الدخل يؤخذ من الأشخاص الذين يعملون ويمنح لأولئك الذين هم خارج سوق العمل، وقد تزايد حالياً بقدر كبير عدد غير العاملين والذين لا دخل لهم، ولذلك نجد أنفسنا فى الوضع الذى يفرض علينا إيجاد طرائق جديدة لتوزيع الثروة الوطنية والولوية، كما أنه علينا أن نكفل العيش لبعض أولئك الذين كانوا يحصلون على دخلهم فى الماضى من سوق العمل.

وتلك هى المشكلة الكبرى التى تواجهنا، وهى لا تتعلق بزيادة الإنتاج التى قد حلت بنجاح وتتمثل الصعوبة الحقيقية فى كيفية إمكان توزيع الثروة، والطريقة الفعالة التى نعرفها هى إعادة التوزيع بمعرفة الدولة والسلطات العامة، ولهذا السبب فإننى أعتقد أن الدولة القومية مازالت لا يمكن الاستغناء عنها، وربما كانت وظائفها الاقتصادية أقل من ذى قبل، لكن وظائفها التوزيعية أكثر أهمية من ذى قبل، ولا أقول إنه على الدولة أن تقوم بذلك فى صيغته الراهنة، غير أنه لابد من وجود نوع من السلطة العامة التى يمكن أن تقوم بإعادة التوزيع هذه، وماذا يمكن أن يحصل إذا لم يحدث هذا؟ ذلك سؤال قدم عنه القرن العشرين - فى أواخره - بعض الدلائل.

- لقد غدت بلدان الاتحاد الأوروبى - وفقاً لما قاله أندريه جورز - أكثر ثراء عبر السنوات العشرين الأخيرة بنسبة تتراوح بين ٥٠ و ٧٠٪، وعلى الرغم من هذا يوجد حالياً قرابة العشرين مليون عامل وحوالى الخمسين مليون فقير وخمسة ملايين بلا مأوى.

- يلوح جلياً أن نسبة ضئيلة من الثروة المحققة جرى بالفعل إعادة توزيعها على غالبية السكان، ويغدو اقتسام الثروة أقل مساواة على نحو فاجع، وعندما أقول على نحو فاجع فإننا أعنى أنا حفنة ضئيلة من الأشخاص، وأحياناً بضعة أفراد أصبحوا أثرياء بطريقة غير مسبوقة على الأقل منذ وقت المجتمع الإقطاعى، عندما امتلك رئيس أساقفة سالزبورج بصفته الشخصية ثلث الناتج الاجتماعى الإجمالى فى المنطقة التى كان يعيش فيها، ومنذ ذلك الحين، وجد دائماً قدر معين من إعادة التوزيع، بحيث أسفر عن أن الأغنياء حقاً ليسوا أثرياء للغاية، وجد بالفعل قلة من البشر كان فى وسعهم أن ينافسوا الحكومات من حيث الثروة التى يمتلكونها وذلك مثل أسرة روتشيلد التى كانت عند نهاية حروب نابليون ثرية بمثل ثراء بلدان مثل فرنسا أو بريطانيا العظمى، ولكن تلك حالة استثنائية.

وحتى البليونيرات أمثال كارنيجى وروكفلر - الذين كانوا شديدي الثراء - لن يكونوا كذلك بمقاييس اليوم، وإننى أتذكر القول الشهير لروكفلر عند وفاة J.p morgan

المصرفى العظيم الذى كان ثرياً بما فيه الكفاية؛ لكى يتمكن من تكوين أروع المجموعات الغنية فى العالم، وترك ثروة تقدر بحوالى ٨٠ مليون دولار، كانت تعد فى العشرينيات ثروة لا بأس بها حيث قال روكفلر: "اعتقدنا دائماً أنه كان ثرياً"، وتلك الثروات الضخمة تقل عن الثروة التى يمتلكها اليوم فرد واحد مثل بيل جيتس أو جورج سوروس أو تيد تيريز، وأشك - مثلاً - فى أن كارنيجى - الذى ربما أنفق على الأعمال الخيرية أكثر من أى شخص آخر فى زمنه - كان يمكنه أن يعرض دفع جزء من دين الولايات المتحدة للأمم المتحدة، كما فعل تيد تيريز. وفى الوقت نفسه فإن سوروس الذى ينفق أمواله على الأغراض النبيلة بالمعدل نفسه الذى كان يقوم به كارنيجى، يعترف بأن كل ما يدفعه محدود التأثير على ثروته.

إن مستوى الثراء متاح حالياً للأفراد مذهل على نحو تام، وإذا تحدثنا بالأرقام الإجمالية فإن الثروة التى فى أيدي واحد فى المائة من السكان ضخمة، وما مدى عدم تأثير هذا الوضع (مستقبلاً) على السياسة؟ ذلك أمر غير واضح، ولدينا إمارات من الولايات المتحدة تشير إلى أن الأفراد فى وسعهم الآن أن ينجحوا فى تولى أمر الحملات الانتخابية الرئاسية أو أن يؤثروا فيها تأثيراً بالغاً، عن طريق إمكانياتهم المالية الخاصة، ويستطيع الأثرياء اليوم أن يفعلوا ما كانت تفعله من قبل التنظيمات الجماعية الضخمة، ولست متأكداً ماذا إذا كنا ندرك إدراكاً تاماً الآثار العميقة لهذه الظاهرة.

- إن رومانو برودى هو الإيطالى الذى دعى إلى أن يقود أوروبا فى أخرج وأدق مراحلها، هل تظن أن لديه الأفكار والقوة بما يمكنه من الاضلاع بهذه المهمة؟ وإلى أين فى اعتقادك؟ سوف تنتهى عملية الاندماج الأوروبى؟

- أنا لا أعرف برودى سوى ما قرأته عنه فى الصحف، وأعلم أنا برودى - مثل غالبية الإيطاليين - من المناصرين لنهج سياسة أوروبية طموحة للغاية سوف توجه الاتحاد صوب نوع من الفيدرالية السياسية، ومن غير الواضح مدى إمكان نجاح هذه السياسة، ومن الجلى أنها تنال دعم مؤسسة بروكسل؛ لأن الفكرة الأصلية نبعت من هناك. ومدى رغبة الحكومات المختلفة لمواصلة السير فى هذا الاتجاه مسألة أكثر تعقيداً،

فسوف يعتمد ذلك على مدى استعداد البلدان الكبيرة لإخضاع سيادتها القومية للمشروع الأوروبي، وأميل إلى الاعتقاد بأنه ستوجد تعقيدات قاسية تفرض على هذا المسار، وأظن - مثلاً - أن فكرة التصويت بالأغلبية لا يمكن أن تتعدى نطاق مسائل معينة؛ لأن الدول الأعضاء الرئيسية - بريطانيا العظمى ومن المحتمل فرنسا أيضاً - سوف تدافع عن حقها في التصويت على القرارات الحاسمة، ومع توسيع نطاق الاتحاد الأوروبي سيكون من الصعب عليها بشكل خاص أن تواجه احتمال أن تجد نفسها ضمن الأقلية.

وسوف تجد أوروبا نفسها - إن أجلاً أو عاجلاً - في الوضع الذي يوجد فيه مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، فالبلدان التي ستكون قادرة فعلاً على اتخاذ القرارات لن تكون راغبة بكل بساطة في أن تتخلى عن سلطتها للأغلبية، وسلطة الرفض أو حق النقض (الفيتو) وهو ما تتمتع به الدول الكبرى جرى اختراعه على وجه الدقة لهذا السبب؛ لكي يصبح من المؤكد عدم إمكان هزيمة أى دولة كبرى فيما يتعلق بالقضايا المهمة فعلاً، ولهذا السبب فإن أوروبا سوف تتقدم ببطء أو تراوح مكانها بصدد المسائل الحاسمة، فمن الصعوبة البالغة تحديد سياسة خارجية ودفاعية مشتركة مما يثبت أنه لم تتوفر بعد الشروط الضرورية لتحقيق اندماج أو تكامل سياسى كامل وفعال بينما يتوفر ذلك بصدد المسائل الاجتماعية والاقتصادية، وسوف يزداد الوضع صعوبة مع توسيع نطاق الاتحاد الأوروبي : وفوق كل شيء سوف يزداد عدد الأصوات التي لا تتحمل المسؤولية أو التي لا تبالى بالعواقب، فأغلبية مكونة من سلوفينيا ولاتفيا وإسبوتونيا وعدد آخر من الدول التي من هذا النوع لا يمكن أن تعتبر أغلبية ملائمة تحترمها ألمانيا أو فرنسا أو بريطانيا أو حتى إيطاليا.

ويتمثل سبب آخر في أن هذا التوسيع سيكون له تأثير مباشر على المصالح القومية من خلال إعادة توزيع الموارد، فمن الناحية النظرية لن تكون السياسة الزراعية المشتركة قادرة على الاستمرار حالما تدخل السوق المشتركة البلدان الزراعية الكبيرة والفقيرة؛ لأن المبلغ الإجمالى من إعانات التي يمكن أن تحصل عليها لن تتحملها ميزانية الاتحاد، في حين أن الفرنسيين لأسباب تاريخية وسياسية لن يوافقوا على

تقليص الحماية الاجتماعية لناخبهم من الفلاحين، ولذلك فإنه ليس فى وسعى أن أتصور إمكان إحراز تقدم صوب الفيدرالية الأوروبية نون أن يصادف ذلك أزمات دولية مفاجئة وخطيرة.

كما إننى لا أظن أن الاندماج الأوروبي يمكن تسريعه عن طريقه تقوية سلطات البرلمان، فالاتحاد الأوروبي لم يتأسس بوصفه منظمة ديمقراطية، ولا أستطيع حتى أن أفهم موضوع الحديث عن عجزه الديمقراطي؛ لأنه لم يكن من المفترض أن يكون ديمقراطياً، وفضلاً عن هذا فلو كان ديمقراطياً حقاً ما استطاع أبداً بلوغ الدرجة الحالية من الاندماج والتكامل. وقد انفجرت المسألة بكاملها فى منتصف السبعينيات من القرن الماضى عندما أصبحت أوروبا جزءاً من السياسة الانتخابية، وقد كانت حتى ذلك الوقت مسألة تهتم بها جماعات صغيرة من الاختصاصيين، وأنت تستطيع أن تقرر من الناحية النظرية تحويل الاتحاد إلى حكومة ديمقراطية مسئولة أمام مواطنيه، لكن تراودنى شكوك قوية من الناحية العملية فى أن تكون الدول الأعضاء منفردة على استعداد للسماح بذلك، باستثناء إيطاليا، كما أنه أمر قابل للجدل والنقاش تماماً فيما إذا كان البرلمان الأوروبي يستطيع بأى حال من الأحوال أن تكون مصداقيته ديمقراطية، ولنفكر فى الإقبال الضئيل على المشاركة فى الانتخابات الأوروبية والتي - علاوة على ذلك - جرت على نحو ثابت على أساس السياسة الداخلية لكل بلد.

ومن الواضح أن إضفاء سلطات أكبر على البرلمان الأوروبي أمر جيد، غير أننى لا أعتقد أنه سيكون قادراً على أن يضلح بتمثيل ديمقراطى فعلى للمواطنين الأوروبيين فى المستقبل المتطور، وبالنسبة لكثير من الأوروبيين فإن أوروبا مازالت مجرد مصطلح أو تعبير تقنى ولا يشعرون أنهم يرتبطون بها بأى رباط من الولاء، والسؤال الذى يطرحه الناس فى علاقتهم بأوروبا مازالت تجرى صياغته يوماً فى نطاق سياسة نفعية وداخلية : إلى أى مدى ستكون نافعة ومفيدة ؟

وهناك مجالان مهمان فقط اقترب فيهما الأوروبيون من بعضهم البعض وسوف يواصلون ذلك فى المستقبل، المجال الأول هو التشريعات الأوروبية التى ترسخت بالفعل

من خلال إجراءات محكمة ستراسبورج، وقد وافقت الحكومات على أن تكون لها الأولوية على قوانينها الوطنية، مما يعنى أن القوانين الاقتصادية والاجتماعية لكل بلد على حدة يتعين - فى معظمها - أن تكون منسجمة فى معاييرها وتفسيراتها، والجانب الآخر الذى يوحد الأوروبيين هو النزعة الحمائية بغية مقاومة المنافسة من الولايات المتحدة والهجرات الضخمة من العالم الثالث.

- هل تعتبر المحرك الفرنسى الألمانى للوحدة الأوروبية عرضة للخطر ؟

يبدو لى أن فرنسا تصورت أوروبا أساساً كمشكلة؛ لكى تؤكد وتدافع عن هيمنتها الثقافية واللغوية على القارة، وخسرت هذه المعركة فعلياً عندما اتسعت أوروبا لتضم فنلندا والسويد والنمسا، وعندما حلت اللغة الإنجليزية محل الفرنسية فى المؤتمرات الصحفية التى تعقد فى بروكسل؛ لأن الإسكندنافيين لا يتحدثون الفرنسية، وهذه الأمور مهمة بالنسبة للفرنسيين بأكثر مما نتصور عادة، فأوروبا بالنسبة لهم تستوجب تعزيز دور فرنسا وثقافتها ولغتها، وفى رأى أن الحافز الفرنسى اليوم للاندماج الأوروبى هدأت حدته، وهم الآن أقل اهتماماً بمسيرة هذه العملية حيث تضائل بوضوح وضعهم المركزى، وهو ما يعد صدمة شديدة القسوة بالنسبة للفرنسيين، وتتمثل العقبة الأخرى فى النزعة الأطلنطية المتأصلة بعمق راسخ فى نفوس الإنجليز. وبالنسبة للآخرين فإن أوروبا هى الخيار الوحيد فى حين أن الإنجليز يجدون أمامهم إمكانية التقارب والاندماج مع النظام الأمريكى، وفى نهاية المطاف فإن الإنجليز لم يتخذوا قرارهم بعد، وبطبيعة الحال ليس لديهم فرصة حقيقية لترك أوروبا بعد أن انضموا إليها منذ خمسة وعشرين عاماً، بيد أن البديل المتمثل فى الجمع بين العضوتين مازال متاحاً.

الفصل الرابع

ماذا بقى من اليسار

- ماذا بقى من اليسار أو ماذا نهض من الرماد ؟ ليس هذا مجرد سؤال نظرى عن أفكار لواقع جديد، إنما هو سؤال عملى، نظراً لأن اليسار موجود فى الحكم فى غالبية البلدان الأوروبية وحتى فى أمريكا بطريقتها الخاصة.

هناك يسار؛ لأنه مازال هناك اختلاف بين اليسار واليمين، وأولئك الذين ينكرون هذا الانقسام هم من اليمين على وجه العموم، وهذا التمايز له موروث تاريخى بعيد المدى، ترجع أصوله إلى الثورة الفرنسية ومن المؤكد أنه طرأت عليه تغييرات عبر القرون، لكن علينا أن نسأل أنفسنا ما إذا كان الانقسام بين اليسار واليمين حتمياً، وبالتالي مكتوب عليه الاستمرار، بصرف النظر عن المعنى المحدد الذى تخلعه عليه فى الأزمان المختلفة، ومن الممكن بوضوح تصور نهج سياسات لا يجرى تنظيمها على أساس هذين القطبين المتعارضين، ولو أن هناك نوعاً من التمايز بين الحكومة المعارضة متأصل فى الديمقراطيات الانتخابية، ويصعب بالتالى التخلص منه، مهما تضاعلت اختلافات البرنامج، ولذلك فإننى أظن أنه من المرجح استمرار وجود انقسام سياسى ومن المؤكد - تقريباً - أنه سوف يعبر عن نفسه اجتماعياً وإيديولوجياً على امتداد الخطوط الفاصلة بين اليسار واليمين.

بيد أننى أعتقد أن معنى مصطلح "اليسار" قد طرأ عليه التغيير، ولا سيما فى العقود الأخيرة وما لم يتغير - فى البلدان النامية على الأقل - هو الأساس الإيديولوجى

الذى تستلهمه جميع تظاهرات اليسار، ويحيل طرائق شتى إلى الثورة الإنجليزية التى كانت أساس الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية وأخيراً الثورة الروسية، ومازال معظم أولئك الذين ينتمون إلى الجناح اليسارى يلتفتون إلى الوراء مستلهمين أحد ملامح هذا الموروث، والإيديولوجيات التى اقترنت بهذه الانتفاضات، وليس ذلك بالضرورة هو الوضع فى أجزاء كبيرة من العالم الثالث، ولكن هذا الرباط مازال فعالاً فى الغرب.

وعموماً، فإن الموروث الثورى لا يشارك فيه اليمين، برغم أن جناحه الأحدث استوعب بعضاً فيه، مثل مفهوم الحكومة الدستورية، وبذلت محاولة - خاصة إبان الحرب الباردة - لفصل جزء من هذا الموروث - المتعلق بالليبرالية الحديثة - عن الموروث الثورى، وقد ارتكز ذلك أساساً على الحجة القائلة : إن الموروث المستمد من الثورة أفضى إلى الشيوعية ومن ثم لا يتسق مع الحريات الحديثة، وتعد فرنسا مثلاً نموذجياً لهذه المحاولة لكسر استمرارية الموروث اليسارى، ذلك الشعور بوجود وحدة أسرية تجمع اليسار معاً، بيد أنه لا يبدو لى أن هذه المحاولة صادفت نجاحاً على نحو خاص، لاسيما عقب زوال الاتحاد السوفيتى، مما يضيفى درجة معينة من التماسك الأيديولوجى على سياسات النجاح اليسارى.

ومن الطبيعى أن توجد مراحل مختلفة من التمايز بين اليمين واليسار، وفى البداية، فإن اليسار ناضل لقهر الحكم الملكى والحكم المطلق والحكم الأرستقراطى مناصراً المؤسسات البورجوازية للحكومة الليبرالية والدستورية، ولذلك كان يساراً معتدلاً، غير أنه كان ساعياً أيضاً إلى تعبئة الجماهير لبلوغ أهدافه السياسية، ومنذ بدء تاريخه كان اليسار على استعداد لأن يكون ثورياً، وإذا أخذنا حزب الهويج (الحزب البريطانى المؤيد للإصلاح والذى عرف فيما بعد بحزب الأحرار "م") فى إنجلترا نجد أن أنصار هذا الحزب شكلوا حزباً ليبرالياً بالتحالف مع الراديكاليين من الطبقة الوسطى مع غيرهم من الأرستقراطيين، وأثناء الثورة الفرنسية فإن أنصار حزب الهويج الأقوياء من حكام الدوقيات وأغنياء الريف أيدوا الثورة فيما وراء المانش، لمجرد أن يظهروا تعاطفهم مع نابليون، وهكذا كان الانقسام طوال معظم القرن التاسع عشر بين حزب التغيير وحزب الاستقرار، أو يعتبر أكثر تحديداً بين حزب التقدم وحزب النظام،

فالييسار كان يقف فى جانب التغيير ويناصر أجرء تغييرات وتحولات سياسية واجتماعية، والحق أننا لا نزال نستخدم هذه المصطلحات: وأنصار اليسار يطلقون على أنفسهم اسم التقدميين.

إن التغيرات التى طرأت على البنية الطبقيّة قد فوضت تدريجياً وحدة اليسار، فالرستقراطية الحاكمة القديمة قد حلت محلها أو شاركتها فى السلطة البرجوازية حاكمة جديدة، لم تعارض حدوث درجة معينة من التغير الراديكالى، وهكذا تغيرت طبيعة الاتحاد المحافظ فى القرن العشرين بل - وبوضوح أكثر - فى نصفه الثانى، وكف عن أن يكون بكل بساطة حزب النظام والاستقرار، واكتسب بقسمات جديدة، وإن ظلت هناك بقايا مثل كراهية التغير، ولاسيما تلك التغييرات التى أدخلتها الثورة الفرنسية (وتعد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أفضل مثال على ذلك) غير أنه يقل - تدريجياً - عدد الرجعيين بالمعنى الذى ساد فى القرن التاسع عشر أى أولئك الذين يريدون إرجاع عجلة التاريخ إلى الوراء، بل إنه يراودنى الشك فيما إذا كان البابا الحالى يعتقد أننا نستطيع اليوم العودة إلى الماضى. لقد برز فى سبعينيات القرن الماضى - وبشكل ملحوظ - تيار قوى للغاية من الاتجاه المحافظ يناصر إجراء تغييرات اجتماعية راديكالية للغاية، وتعد الليبرالية الجديدة فى الاقتصاد والسياسة ظاهرة جديدة فى الجزء الأخير من القرن العشرين، وأناس مثل تاتشر أو ريجان هم من الجناح اليمنى حتى النخاع ولا مرء فى ذلك، إلا أنهم يقترحون فى الوقت نفسه إجراء تجديدات راديكالية مقترنة بالقناعات التى يؤمن بها الجناح اليمنى الأكثر تقليدية مثل : "حب الوطن" و"حكم النخبة" وما إليه.

بيد أن العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة من القرن العشرين كانت لها أهميتها الكبرى بل ربما كانت بالغة الأهمية بالنسبة للتطورات التى حدثت على جانب اليسار، فقد برز - فى الواقع - تيار جديد يعد بالفعل تياراً محافظاً؛ لأنه يرغب فى الحفاظ على الوضع الراهن عندما لا يقتضى بالفعل إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء، ولنأخذ حالة الخضر : إذ يمكن اعتبارهم إجمالاً ينتمون إلى الجناح اليسارى، ومع ذلك لا يمكن أن يتطرق أدنى شك إلى أن هذا التيار يرغب فى وقف التغيرات الاقتصادية

والتكنولوجية أو التحكم فيها على أقل تقدير، ويقول آخر إنه يريد أن يفرض إيقاف التقدم، وهكذا نجد تركيباً غريباً من اليسار - كما واضح فى ألمانيا - يضم تقدميين تقليديين إلى جانب قوى تؤمن بأجندة جديدة ليست تقدمية بالمعنى الحرفى للكلمة، ومن ثم فإن الاختلاف التقليدى بين حزب النظام والاستقرار وحزب التغيير والتقدم لم يعد ممكناً استخدامه.

إن ما سيطر على المرحلة الثانية لليسار فى القرن التاسع عشر، هو الاختيار بين الجماهير والطبقات الحاكمة ووقع الاختيار على النضال الطبقي، وقد انتظمت الفئات الأفقر من السكان - العمال اليدويون - فى حركات تحالفت - أحياناً - مع اليسار التقليدى ولكن على نحو مستقل بشكل متزايد، ومازال هذا اليسار قائماً فى معظم البلدان الأوروبية فى القرن العشرين والتف حول الحركة العمالية والأحزاب الاشتراكية العمالية، وهذه الحركات لها ثلاثة أهداف :

١ - قبول منجزات اليسار الليبرالى القديم (الحكومات الدستورية والحقوق المدنية وحقوق المواطنة) وتبنيها.

٢ - النضال من أجل الديمقراطية السياسية والمشاركة فى، والسيطرة على السياسة من الغالبية العظمى من الشعب، وكثيراً للغاية ما يتم نسيان ماهية الديمقراطية السياسية الشابة نسبياً، وما أنذر البلدان إلى تمتعت بها قبل نهاية القرن التاسع عشر، وغدت الحركة العالمية القوة الرئيسية فى عملية تحقيق الديمقراطية، وأصبح الحق فى التصويت هو البرنامج الوحيد الذى نظمت من حوله الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية إضرابات عامة، وكان الوضع فى أمريكا بالغ الاختلاف؛ لأن الديمقراطية تخففت مبكراً وخلافاً لأوروبا فإن اليسار لم يطور أبداً حركة مستقلة للطبقة العاملة.

٣ - ناضل اليسار الجديد من أجل حق كل فرد فى كسب عيشة ومن أجل الرفاه الاقتصادى والحقوق الاجتماعية.

وكان الجمع بين المطالب المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية صفة نموذجية لهذه المرحلة المعينة من اليسار، وقد أيدتها بصفة أساسية حركات الطبقة العاملة،

ولم يحطم هذا بالضرورة وحدة اليسار، وفي بعض البلدان ظلت هذه الوحدة متصلة من المركز المعتدل والليبرالى اللطيف السياسى إلى اليسار المتطرف، وفى الولايات المتحدة بقيت هذه المرحلة الجديدة من اليسار فى نطاق الحزب الديمقراطى وفى بريطانيا العظمى واصل العمال تحالفهم مع حزب الأحرار على الأقل حتى الحرب العالمية الأولى، وكانت الثورة الروسية هى التى حطمت هذه الوحدة التقليدية، عن طريق تقسيم اليسار إلى تيارين.

- ماذا حدث آنذاك لهذا اليسار الثانى، الذى بقى متحدًا حتى عاصفة قصر الشتاء ؟ (مقر القيصر الروسى فى سان بطرسبرج وأطاحت به إشارة إلى الثورة الروسية التى نشبت فى عام ١٩١٧ - المترجم).

- لقد تحقق الكثير من أهدافه عقب الحرب العالمية الأولى، وجرى تطبيق الديمقراطية وحق التصويت العام، وإن كان بدرجة أبطأ بالنسبة للنساء منه بالنسبة للرجال، كما أدخلت بعض الحقوق الاجتماعية وإجراءات الرفاهية الاجتماعية وتم ذلك أحياناً بسرعة مذهلة، ولنتذكر أن المطلب الرئيسى الذى نظم العمال من حول احتفالهم السنوى بعيد أول مايو السنوى ابتداء من عام ١٨٩٠ ، أى يوم العمل لمدة ثمانى ساعات فقط، أدخلته أوروبا بعد ١٩١٨ ، وإن كان على الورق فحسب.

وفى أعقاب الحرب العالمية فإن الأوضاع المادية ونظم الرعاية الاجتماعية تحسنت بطبيعة الحال على نحو مدهل، وفى عام ١٨٩٠ فإن الكلمات التى انطوى عليها نشيد الدولة المعروف باسم "Internationale" كانت له معانيه الحرفية، ولكن أصبح من المستحيل بعد عام ١٩٦٠ ، الاعتقاد بأن "المتصورين جوعاً" الذين كان يدعوهم النشيد إلى "النهوض" مازالوا "جوعى" فعلاً وحقا، وهذا اختلاف يتعين وضعه فى الاعتبار.

إن النجاح الكبير لليسار أضعف إلى حد بعيد برنامجه، وفى نطاق هذا اليسار الجديد فإن الاشتراكية تمثل المحور المركزى لتطلعات معظم حركات الطبقة العاملة التى تصورت حدوث تغيير جذرى، أى نهاية الرأسمالية على أن يحل محلها مجتمع مختلف اختلافاً تاماً، وإذ ننقهم الآن ما حدث فى الماضى فإنه يمكن القول إن الاشتراكية

كانت حلماً يوتوبيا أو حتى مجرد شعار تهيجى تقريباً؛ لأنه حتى الثورة الروسية لم يكن - حتى اليسار الاشتراكي - قد فكر بالفعل فيما الذى يتوجب فعله فى حالة الانتصار، ولم تتم حتى مناقشة الكيفية التى يمكن أن يصبح بها الاقتصاد اشتراكياً، وكان هناك قبول عام بأنه يمكن للدولة أن تديره على أساس النموذج الذى قدمته الرأسمالية فى ذلك الوقت، حيث كانت المشروعات التجارية الكبرى بالفعل فى أيدي هيئات عامة. وكانت النظرية الاشتراكية نقداً للواقع الرأسمالى أكثر من كونها مشروعاً حقيقياً لبناء مجتمع مختلف، وتؤكد كل التأكيد أن ذلك ينطبق أيضاً على الماركسيين، وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى برزت ضرورة فعلية لمناقشة اقتصادات التأمين فى ألمانيا والنمسا، اللتين كانتا فى عامى ١٩٨٩ و ١٩٢٠ منهكتى القوى، وكان الخبراء البورجوازيون قادرين على انتقاد الاشتراكيين الذين ثبت أنه ليس لديهم أدنى فكرة عن كيف ينبغي عليهم أن يتابعوا سيرهم، والفكرة الوحيدة التى كانت متيسرة للاشتراكيين هى كيفية إدارة اقتصاد الحرب وهو ما احتذاه البلشفيك فى واقع الأمر.

لقد انقسمت الحركة الاشتراكية إبان الحرب وفى أعقابها إلى الجناح الاشتراكي الديمقراطي، الذى أصبح بالفعل حزب الإصلاح المؤازر للدولة، والجناح الثورى والشيوعى، وحافظ المعتدلون على أهداف اليسار القديمة وأنجزوا معظمها، على الأخص فى اسكتلندا، وقد أنجزوا من الناحية العملية كل شئ أملوا على الدوام فى تحقيقه فى الفترة الممتدة من ١٩٤٥ إلى منتصف سبعينيات القرن العشرين، وقد توج ذلك بتكوين وانتصار دولة الرفاهية أو الرعاية الاجتماعية، ولم تنخرط هذه الحركات على نحو خاص أو حتى على الإطلاق فى معارك تستهدف التغيير الدائم لبنية المجتمع، برغم أن كثيراً من الاشتراكيين الديمقراطيين مثل قادة حزب العمال البريطانى فى ١٩٤٥ ، أملوا نظرياً ذات يوم فى تحقيق مجتمع اشتراكى مختلف.

وقبلت هذه الحركات درجة معينة من تدخل الدولة فى الاقتصاد، سواء فى الإدارة أو الملكية لكن هذا التدخل فى حد ذاته لم يكن مشروعاً اشتراكياً، إذ لا ينبغي أن ننسى أن كينز كان من مناصرى حزب الأحرار طوال حياته، وتصور نون أدنى شك تدخل الدولة باعتباره سياسة إمبريقية وعملية، ومن اللافت للنظر أن لينين هو الذى

أدرك أن تأميم صناعة ما لا يعد في حد ذاته عملاً ثورياً، فالسكك الحديدية والمرافق العامة كانت في أيدي الدولة أو مملوكة ملكية عامة أخرى في بلدان كثيرة لم تكن - أو لم ترغب أبداً في أن تصبح - اشتراكية. وبقي الجناح الاشتراكي الديمقراطي من اليسار السياسى وفيماً للفكرة القائلة بقيام مجتمع ما بعد رأسمالي، من خلال اعتقاد غير محدد بوضوح بأن الإدارة والملكية العامة سوف يتطوران مع الزمن إلى ما هو أكثر، إلى شيء جديد. وكان البلشفيك - فقط - هم الذين طرحوا عن وعى وإبراك بناء مجتمع اشتراكي، ويتعين القول إن إخفاق هذا المشروع أصبح كاسحاً وبائياً بجلاء في ستينيات القرن العشرين على نحو خاص، وفي السبعينيات دون أدنى ريب.

وعلاوة على ذلك، فإن النظام البلشفي أثبت عجزه عن إصلاح نفسه وتهاوى على حطام، كما أن هذا الإخفاق أضعف إيديولوجية الجناح الاشتراكي الديمقراطي، وفعلت ذلك أيضاً التغيرات التي طرأت على الاقتصاد العالمي عقب عام ١٩٧٣، نهاية العصر الذهبي للاشتراكية الديمقراطية، وجاءت الضربة القاضية من انتشار المبادئ الاقتصادية الليبرالية الجديدة التي انتقدت الضعف الذي تبدي فيما سمي بالسياسات الاقتصادية التي كانت تنادي بحصر السلطة العليا في هيئة متحدة من نقابات العمال وأصحاب الأعمال والمهن الرئيسية "corporatist" التي سادت في الخمسينيات والستينيات جزئياً؛ لأنها لم تحقق النجاح المأمول، وجاء قبوم الاقتصاد المعولم ليهز كيان اليسار الاشتراكي الديمقراطي ويضرب أسسه في الصميم؛ لأنه قوض مقدرته على الدفاع عن دوائره الانتخابية المؤيدة له داخل الحدود القومية، من خلال السياسة المالية المناصرة لإعادة توزيع الثروة والرفاهية والحافز الاقتصادي الكلى لبلوغ العمالة الكاملة، وترجع جنور الأزمة الفكرية الراهنة التي تجتاح اليسار - حالياً - إلى الأزمة المزوجة للييسار البلشفيكي/الثوري واليسار الاشتراكي الديمقراطي.

واعتقد أن هذا الجانب أكثر أهمية بكثير من التغيرات التي طرأت على طبيعة الإنتاج، وانحطاط التصنيع ونمو الصناعات التكنولوجية المتقدمة وما إلى ذلك؛ لأن القاعدة العمالية لهذا اليسار لم تبدأ في الانحدار إلا مع حلول سبعينيات القرن العشرين، وربما بدأ الانخفاض في العدد الإجمالي للعمال مبكراً في الولايات المتحدة - في ستينيات القرن العشرين -

ولكن فى أماكن أخرى فى الغرب، فإن الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ و ١٩٧٠ قد شهدت ذلك النمو الاقتصادى الذى أدى إلى زيادة عدد العمال أو حافظ على استقرار عددهم، رغم التجديدات التكنولوجية، ومازال العمال فى بريطانيا العظمى وحدها - وربما فى بلجيكا - يشكلون حالياً أغلبية السكان.

ولم يوجد فى السبعينيات القرن العشرين أى مبرر يجعل ألا يظل اليسار قوياً كما كان من قبل، بقدر ما يتعلق الأمر بقاعدته الاجتماعية، بيد أن هذا اليسار تعرض لأزمة خطيرة، وإننى أعزو ذلك إلى أنه أنجز أهدافه وأن أحوال العمال قد تحسنت بقدر هائل، وعليه فلم يعد لديه برنامج مناسب، كما لم يعد فى وسعه أن يقترح بناء مجتمع مختلف، إما لأنه لم تعد توجد نماذج متاحة لمثل هذا المجتمع، أو لأنه لم يعد مستطيعاً إصلاح المجتمع القائم، نظراً لأن الجناح الاشتراكى الديمقراطى ليس فى وسعه إلا أن يقترح المحافظة على ما تحقق بالفعل، وهكذا انتهى اليسار الثانى.

وقد وجد يسار جديد منذ ستينيات القرن العشرين وتمثلت المشكلة التى واجهته فى أنه لم يستند إلى القاعدة الطبقة الصلبة، التى كانت هى الأساس الذى ارتكز عليه يسار الطبقة العاملة، فضلاً عن أنه لم تكن له قاعدة إنتاجية قوية، كما لم يكن له مشروع وحيد إضافى، وتنزع كثرة من الحركات التى تعتبر نفسها منتمية إلى اليسار إلى تبنى قضية وحيدة، وتعد الحركة النسائية مثلاً مهماً فى هذا الصدد؛ لأنه لديها من الناحية النظرية قاعدة ضخمة، ومع ذلك، فإن برنامجها محدود للغاية، حتى فيما يتعلق بالمسائل النسائية ذاتها، وتنتمى هذه الحركات إلى ما يمكن تسميته بالاتجاه اليسارى المتصل، وعلى سبيل المثال، فإن حركة الخضر - حتى فى البلدان التى لم تتطور فيها إلى حركات سياسية كاملة وناضجة - فإنها ترتبط باليسار إن ارتبطت بأى حركة على الإطلاق، مثل علاقاتها مع الديمقراطيين فى الولايات المتحدة أو بالعمال فى بريطانيا. وحيثما تطورت بوصفها حركة سياسية منفصلة، فمن الأرجح أن تتحالف مع الاشتراكيين الديمقراطيين بأكثر مما تتحالف مع اليمين، لكن هذا اليسار الثالث لا يكتسب أهمية كبيرة من الناحية السياسية، ولكنه برز بصفة أساسية من جراء الأزمة التى اجتاحت اليسار السياسى التقليدى.

- هناك مظهر آخر لأزمة اليسار: ضعف السياسة وتدينها كنظام موثوق به؛ لتغيير المجتمع وأينما أمعنا النظر سواء في أمريكا أو في أوروبا سيصادف المزيد من الفتور واللامبالاة بالسياسة (بمعنى الافتقار إلى المشاركة النشطة، جزئياً وببساطة نتيجة للفيض الانتخابي).

- هناك عدة أمور أعمق من ذلك عملت على إضعاف اليسار إلى حد خطير، فمن الناحية الاقتصادية تعلق الأمور بالمجتمع الاستهلاكي، ومن الزاوية الفكرية نصب الأمر على مطابقة أو مماثلة الحرية بالاختيار الفردي، نون اهتمام بالعواقب الاجتماعية، مما أدى إلى حدوث تصدع في عالم اليسار التقليدي المشترك، إذ كان يتم الاعتقاد في الماضي بأن النضال من أجل الحرية الفردية يتعارض مع النضال من أجل التحرر الجماعي، لكن أصبح جلياً في نهاية القرن العشرين وجود صراع متزايد بين هذين الاحتياجين، وقد وجهت خصخصة المجتمع وإضعاف الهوية الاجتماعية المشتركة ضربة قوية إلى اليسار الاجتماعي؛ لأن هذا اليسار كافح من أجل تحقيق أهداف جماعية وسعى إلى إقرار العدالة الاجتماعية، وتلك مشكلة خطيرة ومتسعة الأبعاد؛ لأن ما مكن اليسار من أن يعمل بطريقة جماعية هو الذي مكن - أيضاً - السياسة الديمقراطية من أن تؤدي وظيفتها، فالسياسة الديمقراطية توجد بالقدر الذي يغزو ممكناً تنظيم الناس وجعلهم يعملون بطريقة جماعية.

وتتزايد الصعوبة التي تواجه أي حركة سياسية لكي تحشد الناس، ليس فقط على الجانب اليساري، فالمصالح الخاصة والأنانية عملت على تاكل قيم الجناح اليساري على نحو خطير وخير مثال على ذلك هو التحلل التدريجي للنزعة التبادلية في بريطانيا في السنوات الأخيرة (mutualism) ولننظر إلى ما يحدث حالياً لشركات البناء والتشييد حيث كانت توجد من قبل تنظيمات تعاونية للابحار، وقد ظهرت عندما عجز العمال الفقراء عن تحقيق مدخرات كافية لحسابهم كأفراد، مما تعين عليهم تنظيم أنفسهم على نحو جماعي، وحقق لهم منافع ضخمة مما جعل هذه الهياكل تكتسب أهمية اقتصادية كبرى، وفي الوقت الراهن تتحول هذه الشركات واحدة وراء الأخرى من شكلها التعاوني إلى شركات خاصة عادية، يمتلكها مساهمون يحصلون على أرباح سنوية،

وسبب موافقة الأعضاء على هذا التطور والتصويت لصالح تحويلها إلى بنك أو شركة عامة ذات مسئولية محدودة هو ذلك القدر الضئيل للغاية من الأرباح غير المتوقعة التي توزع عليهم، ولم تكن الإدارة ولا المنطق نفسه فى صالح هذا التحول، ولا مراة فى أن المزايا العائدة للمقترضين كان يمكن أن تكون أكبر فيما لو بقيت هذه الشركات ذات الطابع تعاونى، لكن غالباً ما لا يستطيع الناس مقاومة إغراء الحصول على ألف أو ألفين من الجنيهات، التى ربما استخدمت فى قضاء عطلة ما، وهم يتخلون عن قيمة اجتماعية كبرى فى مقابل كسب ربح فورى قصير الأجل.

وقد أصبح من الأكثر صعوبة ومشقة إشراك الناس فى عمل جماعى، وطالما كان معظم الناس فقراء فإنهم يلبون هذا النداء؛ لأن أملهم الوحيد يتحقق من خلال العمل الجماعى، ولكن إذا ما تجاوزوا عتبة الحاجة فإنهم يظنون أن فى وسعهم الحصول على المزيد بالسعى وراء مصلحتهم الخاصة فقط لا غير، ومع ذلك فإن الدعامتين الأساسيتين اللتين ينهض عليهما التراث اليسارى مازالتا قائمتين، فمن بين مبادئ الثورة الفرنسية الثلاثة وهى الحرية والمساواة والإخاء، فإن الإخاء لم تعد له قيمة تذكر لكن تظل معنا الحرية والمساواة، ونحن نعلم ماذا تعنى الحرية، وإننى أعتقد أن المساواة تعنى اليوم - من الناحية العملية - تقديم الخدمات الاجتماعية وإعادة التوزيع التى تتم بمعرفة الحكومات، وذلك ما لا يمكن أن تكفله السوق الحرة، وحتى وريثة تاتشر من المحافظين، الذين أجروا تغيرات اجتماعية جذرية فى اتجاه السوق الحرة أكثر من أى تيار من تيارات الجناح اليمنى الأخرى، يتراجعون الآن عن هذه العقيدة ويعترفون مثلاً بأن الصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية الأساسية للمسنين تعتبر من المهام الرئيسية للدولة والمنظمات العامة.

- أى أن هناك ما يطلق عليه اسم "مجتمع" خلافاً لتأكيد تاتشر.

- المجتمع ليس موجوداً فحسب - كما نعلم تماماً - بل هناك أشياء يقتضيها المجتمع لا يمكن أن تتحقق على الإطلاق من خلال متابعة المصالح الخاصة، وهناك منافع أو تسلع اجتماعية لا يمكن تغييرها إلا بصفة جماعية وذلك تحقيقاً للمصلحة المشتركة، ولاحظ أنه حتى فى ظل حكم تاتشر لم يتجاسر المحافظون البريطانيون على تجاوز مرحلة معينة فى خصخصة مجالات مثل الصحة.

ولا أظن أن أى يسار يمكنه أن يصور السوق باعتبارها المجتمع الأمثل؛ لأننا كما رأينا هناك أمور وأشياء تعجز السوق عن القيام بها، ومن رأى أن أى شكل من أشكال سياسة النجاح اليسارى حتى أكثرها اعتدالاً يجب أن تقول ما قاله جوسيان (رئيس وزراء فرنسا) : نحن نسلم بأن السوق هى أحد العناصر الأساسية فى الاقتصاد، وربما كانت السوق هى العنصر الحاسم فى خلق الثروة، لكننا لا يمكن أن نوافق على مجتمع السوق الحرة، نعم للسوق لكن لا لمجتمع السوق الحرة، وعلى الرغم من أننى لا أعرف الأفكار الشخصية لتونى بلير (رئيس وزراء بريطانيا) لكن الحكومة العمالية تفضل بالفعل أن تحدث شكلاً ما من أشكال إعادة التوزيع، وتفعل كل ما فى وسعها فى هذا الاتجاه، فى نطاق الحدود التى تفرضها مخاطر فقدان الدعم الإنتاجى، ولا مرء فى أن سياسة المستشار جولدون براون تمثل محاولة لإعادة التوزيع، ولو أنها ضعيفة للغاية ويمكن الاعتراض على أن هذه الطريقة لن تحقق نتائج باهرة، لكن لا يمكن القول - أيضاً - إنها تدل على الاعتقاد بأن السوق الحرة سوف تحل كل الأمور.

والحق يقال إن قلة من الحكومات (واحدة أو اثنتان) ذات الطابع اليسارى وافقت تماماً على سياسة السوق الحرة، وأنا أفكر مثلاً فى حكومة جونزاليس فى إسبانيا (التي سقطت فى الانتخابات الأخيرة "م") لكن حتى فى مثل هذه الحالات فإنها لم تنتهج النهج نفسه الذى سلكه ريجان تاتشر، وهى فعلت ذلك لأنه كان عليها أن تفعل أو لأنه لم توجد طريقة أخرى فى ذلك الوقت؛ أو لأن التغييرات الاجتماعية التى أحدثها الآخرون قبلها لا رجوع عنها، وتلك كانت قرارات ذات طابع عملى تجريبى ولا تركز على اختيار من حيث المبدأ، ولا أعرف ما إذا كان ذلك ينطبق على تونى بلير، ويبدو لى أنه تاتشر فى ثياب رجل أكثر من أى شخص آخر فى أوروبا اليوم، إلى حد قيامه بكل وضوح بدور الزعيم المحارب. ومن الناحية الأخرى فإنه يمكننى أن أتصور وجود تيارات معتدلة من الجناح اليسارى تقول لنفسها : حسناً، ولأسباب عملية فإنه لا يوجد الكثير مما يمكن عمله لكى يكون مختلفاً عن اليمين؛ ولذلك يتعين علينا أن نتكيف مع ذلك تماماً، وفى رأى أن هذا هو تفكير كليتون (عندما كان رئيساً للولايات المتحدة حتى عام ٢٠٠٠ م) ويمكن انتقاد كليتون كثيراً؛ لأنه كان يقول شيئاً ثم يفعل شيئاً آخر، لكن حقيقة إن

كلينتون كان يتكلم بطريقة معينة يعنى أنه يتطابق بالسليقة مع قيم اليسار التقليدى، ولهذا السبب فإنه خيب آمال الكثير من الأمريكيين أكثر بكثير من البريطانيين الذين خيب أملهم بليز، ولم ينتم بليز البتة إلى التراث اليسارى ولم نعرفه إلا عندما تم انتخابه، لكن عندما فاز كلينتون بسدة الرئاسة فإنه كان يشبه تماماً أى ديمقراطى يحتذى غير التقاليد المتعارف عليها فى اليسار الأمريكى.

- وحتى مع ذلك، ألم يكن كلينتون "إمبراطور التسعينيات من القرن العشرين" ؟

لا أعتقد أن كلينتون يعتبر شخصية مهمة حقا فى تاريخ القرن العشرين، كما لا أظن أنه يعد من بين السياسيين الأمريكيين الأكثر أهمية فى الربع الأخير من القرن العشرين، وكان ريجان أكثر أهمية منه بكثير، وفضلاً عن هذا فقد كان أكثر توفيقاً فى التعامل مع وسائل الإعلام، وتفادى بالفعل نوع الأزمة التى طاردت كلينتون بصفة مستمرة، وهناك ثمة مشكلة مهمة تتعلق بنوعية القادة أو الزعماء، إذ لا توجد كثرة رفيعة المقام عظيمة الشأن أو من طراز رفيع المستوى، وبهذه المناسبة، إذا أجريت استفتاءً عن أهم الشخصيات فى القرن العشرين فلن يبرز عدد كبير من السياسيين ضمن هذه القائمة، وفى إنجلترا ربما يقول كثيرون تشرشل لكن بمعزل عنه، فمن المرجح أن يسجل الناس بعض المشهورين الذين حققوا إنجازات مهمة فى مجال تخصصهم المهنى أو مجرد أولئك المعروفين بكل بساطة، وإذا كنت نجماً رياضياً كبيراً فى الولايات المتحدة فستكون أكثر شهرة من أى سياسى، والحق أنه توجد بلدان اختارت النجوم السينمائية بوصفها شخصيات قائدة، وحدث ذلك فى بعض الولايات الهندية لكن لم يحدث بعد فى دول كبرى مثل إيطاليا أو بريطانيا العظمى، وبالطبع هناك حالة ريجان، ولا ينبغي لأى مؤرخ أن يقلل من مغزى تحول ممثّل هوليودى إلى رئيس دولة.

وهناك مشكلة كبرى تواجه القرن الجديد : خلافة القادة والزعماء فى البلدان الديمقراطية ونقل السلطة من جيل إلى جيل، وفى المجتمعات التقليدية، هناك الآليات المختبرة والموثوق بها، وأشهرها الخلافة بالوراثة. ففي النظام الملكى لا تمثل الخلافة أى مشكلة، وحتى فى النظم غير الملكية كما فى الهند، هناك الممارسة العملية حيث

يكون الخليفة الظاهر وثيق الصلة بالقائد السابق وبذلك يكتسب هالة السلطة، وفي حالات أخرى، تتم عملية اختيار القادة من خلال تنظيم سياسى وذلك تشكيل تقليدى فى المجتمعات الديمقراطية: فالشخص الذى يعين فى مركز القيادة يجرى اختياره بمعرفة جمهرة المواطنين نوى الحقوق السياسية، وقد تكون هذه العملية ديمقراطية تقريباً. كما أن الاختيار قد يأتى تعبيراً عما تقوم به هيئة من أعضاء البرلمان، وفى بعض البلدان، فإن إجراءات الاختيار يشوبها الغموض التام كما فى المكسيك حيث يتمكن الرئيس السابق يوماً ومن الناحية العملية من تعيين خليفته، لكن لا أحد يعرف كيف يتم ذلك على وجه الدقة.

وتبتدأ المشكلة عندما يجرى انتخاب القائد انتخاباً مباشراً وفى هذه الحالة، فإن اختياره تم وفقاً لمجموعة من المعايير لا تتعلق بالضرورة بمقدرته على القيام بهذه الوظيفة، وتلك مشكلة خطيرة؛ لأن صفات القائد بالغة الأهمية. ولناخذ حالة ألمانيا ونأمل كيف كانت الصفات الزعامية التى اتسم بها أديناور لها أهميتها، وعلى الرغم من التقيدبات التى كانت محيطة به فقد أثبت مقدرته على أن يخرج بلاده من وضع بالغ الصعوبة، كما تتمتع الزعماء الاشتراكيون الديمقراطيون الذين أعقبوه بخبرة سياسية عميقة. كما هو الشأن مع برانت، وكانت لهؤلاء الرجال شخصياتهم المرموقة سواء اتفقت أو اختلفت معهم، ويصادف الجيل الحالى من الاشتراكية الديمقراطية الألمانية صعوبة فى اختيار زعيم من الطراز ذى المقام الرفيع نفسه.

وتعد هذه مشاكل أقل خطورة - بوضوح - فى البلدان القوية المستقرة، ففى خاتمة المطاف فإنه لا يهم كثيراً من هو مثلاً رئيس الولايات المتحدة : فمنذ عام ١٨٦٥ اغتيل سبعة رؤساء أجبروا على الانسحاب قبل انتهاء مدة الرئاسة، وحل محلهم أشخاص لم يتم اختيارهم؛ لكى يقوموا فتسير الأمور فى البلاد. ومع ذلك فإن تاريخ أمريكا لم يتغير بقدر مهم من جراء هذه الصدمات ففى الولايات المتحدة تعد القضبان التى يجرى فوقها قطار السلطة مستقرة لدرجة أن من يسوق القطار - كائناً من كان - يستطيع أن يسوقه لى أن يخرج القطار عن مساره، لكنه فى الاتحاد السوفيتى فإن صفات الزعامة كان من الممكن أن تكون لها أهميتها وتحدث اختلافاً، وهو ما حدث بالتأكيد.

- بعد أن طرد المستشار الألماني شرودير وزير ماليته الأول، أوسكار لافونتين هل يوجد - وربما جاز القول أنه كان يوجد - يسار يستلهم المفهوم التقليدي لإعادة التوزيع الاجتماعي : فرض ضرائب مرتفعة على العمل والمؤسسات وإنفاق اجتماعي كبير، ولا يوجد في هذه الجبهة حالياً سوى تلك القوى التي تستوحى التراث الشيوعي وربما جزء من الحزب الاشتراكي الديمقراطي SPD الألماني، هل تعتبر ذلك سياسة واقعية بالنسبة لليساار اليوم ؟ لم يستطع لافونتين أن يتعامل معها.

أعتقد أن لافونتين خسر المعركة؛ لأن عالم الأمل وقف ضده داخل ألمانيا وخارجها على السواء، فأحد البراهين الأساسية على وجود اليسار واليمين هو أن الأسواق لا تتحمل عادة على حكومات الجناح اليميني بالطريقة نفسها التي تتصرف بها مواجهة حكومات الجناح اليساري، والحق أن أحد الجوانب المثيرة للاستغراب لدى اليسار الجديد في بريطانيا العظمى، هو أنه قد أحرز نجاحاً في جهوده التي بذلها، لكي يقنع الأسواق بأنه لم يعد جناحاً يسارياً، وقد جعلت السوق من المستحيل على ميتران أن يتابع السياسات التي شرع في إنتهاجها في أوائل ثمانينيات القرن العشرين، والآن اكتشف لافونتين مدى سلطانها، أصبح ذلك أم باطل تلك هي الكيفية التي تسير بها الأمور. وأعتقد أن السياسة التي أنتجها لافونتين لم تكن واقعية بهذا المعنى، إن سياسة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني عليها أن تكون أقرب إلى سياسة حكومات يسار الوسط الأوروبي، مثل جوسبان في فرنسا، وكان لافونتين منحاز لليساار بأكثر مما ينبغي حتى بالمقارنة مع جوسبان رئيس وزارة فرنسا.

● هناك تراث آخر سمّيته "المسيحية الاشتراكية" وهو تيار من تيارات "دعه يعمل" بمرتكزات مسيحية، كان له تأثيره الحاسم في بناء الاتحاد الأوروبي، أي بإيجاز نموذج "مقاطعة الراين" Rhine land ، الذي يتمثل في رومانو برودي الرئيس الحالي للاتحاد الأوروبي، بيد أن هذا النموذج يبدو أيضاً أنه يجتاز أزمة طاحنة (خمسة ملايين عاطل) وبالنسبة لليساار فلا يعد مفخرة كبيرة له؛ لأنه ينتهي بوضع ثقة في اتجاه يتسم بالمحافظة الرحيمة، هل تعتبر هذا التراث يشكل جزءاً من اليسار الأوروبي ؟

أتفق معك فى أن التحول إلى التراث المسيحى الاشتراكى هو سمة ضعف اليسار، وقد تحدثنا آنفاً عن هذا الأمر، وليس من المشجع أن يكون البابا هو الشخصية الوحيدة ذات الأهمية العالمية الذى يدين الرأسمالية، ومع ذلك يجب أن نتذكر أن حزب العمال - مثلاً - اقتنع بالقضية الأوروبية من واقع حقيقة أن أوروبا - وشكراً لقوة المسيحية الاشتراكية - هى التى تكفل الحد الأدنى من الحقوق النقابية العمالية فى حين لم تفعل ذلك حكومة المحافظين بقيادة تاتشر، وإذا أردت فهذا يدل أيضاً على إمارة ضعف، ومازلت أميل إلى النظر نظرة إيجابية إلى التراث المسيحى الاشتراكى على علته.

- لقد أصبح يتعذر التمييز بين اليسار واليمين، وستكون الطريقة الوحيدة لتبين الانقسام فى السياسة هى التمييز بين التقدميين والمحافظين، فالتقدميون يروجون للمنافسة بوصفها الوسيلة الحديثة لتأكيد الموهبة الفردية فى ظل توفر شروط الوصول المتكافئ إلى المباراة الاجتماعية، بينما يرغب المحافظون فى الإبقاء على الوضع الراهن للشركات التجارية والامتيازات، بما فى ذلك امتيازات ارسنقراطية الطبقة العاملة ونقاباتها العمالية، ويخاطب الأولون الشباب بينما يتجه الآخرون إلى كبار السن وأرباب المعاشات.

- هناك قدر من الصحة فى هذا القول، فقد أصبح جزء كبير من اليسار - بالفعل - قوة تحاول الحفاظ على ما كان جيداً فى الماضى أو حمايته على الأقل من أن يتعرض للمزيد من التغيرات والتاكل، ومن الناحية الأخرى فإنه لا يمكنك أن تطابق اليمين فقط مع مناصرة الاقتصاد التنافسى من غير ضابط، لقد قللت على نحو ملحوظ من شأن العوامل الأخرى التى خلقت الأوراق، وعلى سبيل المثال هناك مشكلة النزعات القومية والوطنية التى لم تعد تجد نفسها فى جانب أو آخر، وما لا أتفق معك فيه إلى حد بعيد يتعلق بمسألة الشباب والشيوخ أو كبار السن، وإذا كان من الأيسر على وجه اليقين تعبئة كبار السن على أساس الحفاظ على الهياكل الاجتماعية، فإننى لا أعتقد أن السياسة لها تأثيرها البالغ على الشباب، وإن عدم انغماس الشباب فى السياسة يعد مشكلة من أكثر المشاكل المعقدة والملاحظة فى عصرنا، ومن غير الجلى ماذا سيكون

دور الشباب فى سياسة القرن الحادى والعشرين، وأعتقد أنه سيكون لهم شأنهم فى نطاق جماعات طليعية محدودة، ولكن ليس بالضرورة بوصفهم القوة المحورية التى تحدث التغيير الاجتماعى، ولا حتى فى النطاق الانتخابى بكل تأكيد، وسيكون للأسر المتوسطة الدخل والتى فى سن العمل أهمية أكبر من الزاوية الانتخابية.

ولا توجد حركة اشتراكية واحدة لديها تنظيم شبابى حقيقى، ونادراً للغاية ما وجد بالفعل مثل هذا التنظيم حتى فى الماضى، ولم تتمثل الدعامة الأساسية للشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين فى الشباب، بل فى الأسر العاملة، ولهذا السبب - ومع الأخذ فى الاعتبار تدهور هذه البنية الاجتماعية - فإنه تراودنى كثرة من الشكوك فيما يتعلق بمستقبل السياسة، وليس مجرد سياسة الجناح اليسارى، بل السياسة بعامة، ولا يمكن تعبئة الشباب إلا بصدد مسائل محددة مثل أساليب الحياة والبيئة ومشاكل التحرر مثل حقوق الشواذ جنسياً أو المخدرات : وهى قضايا ذات صلة هامشية فقط بالسياسة.

- بيد أنه ثمة هيكلية لازمة اليسار التقليدى فى أوروبا، وقد بدأت منذ مائة عام بوصفها حركة العمال الصناعيين وتجدها نفسها اليوم نشطة فى مجتمع تتدهور فيه بشكل دراماتيكى الجوى المحددة للعمل اليدوى والعمالة المباشرة، فكيف يستطيع اليسار أن يخاطب الطبقة الوسطى الجديدة التى يزداد اتساعها وصفوف العمال المستقلين الذين يعملون لحسابهم ؟ وهل على اليسار أن يتخلى عن ديمقراطية العمال لصالح ديمقراطية المستهلكين ؟

- إن المجتمع الاستهلاكي الحديث - بحكم طبيعته ذاتها - يجبر البنى السياسية أكثر فأكثر على أن تتكيف معه، وتزعم نظرية السوق الحرة بالفعل إنه لا ضرورة للسياسة؛ لأن سيادة المستهلك ينبغى أن تعلو على أى شىء آخر: فمن المفترض أن تكفل السوق للمستهلكين أقصى قدر ممكن من حرية الاختيار، وتتيح لهم إشباع جميع احتياجاتهم ورغباتهم من خلال ذلك الاختيار، ويتجنب هذا المسار العملية السياسية ويجعلها حصيلة سنوية أو مشتقة من السوق، وذلك هو سبب الانتشار الهائل لمهن مثل

العلاقات العامة spindoctoring^(١) وتطبيق نظم مماثلة لـ focuogroup^(٢) على السياسة، وقد تشكلت هذه الجماعات فى الواقع على منوال أبحاث السوق، مما يقود الوظيفة التى تؤديها المواطنة، وإذا كان المستهلكون قادرين على تحقيق أغراضهم عن طريق ممارسة حق الاختيار كل يوم من خلال شراء السلع أو اتباع ما توحى به أفكارهم بصدد آليات استشارة وسائل الإعلام، فماذا ينبغى حقاً من المواطنة؟ وهل لا تزال هناك حاجة إلى تعبئة الجماعات البشرية من أجل تحقيق أهداف سياسية؟ إن هذا التطور يدمر الدعائم الأساسية التى تركز عليها الإجراءات السياسية.

إن تأسيس علاقة مباشرة بين أدنى نقطة فى النظام - أى المستهلك - وأعلى نقطة فى النظام - أى صانع القرار السياسى - لا يفسح أى مجال لجوهر العملية السياسية وهو ما عرفه هابرماس بوصفه تنظيم المجال العام أو العمومى الذى يتاح فيه للناس تكوين آرائهم والتوحد من أجل تحقيق الأهداف الجماعية، وخلاصة القول إن ذلك هو كل ما فهمناه حتى الآن من السياسة فى المجتمعات الليبرالية والديمقراطية وذلك هو مصدر قلقى من برنامج بلير لما يسميه باليسار الحديث؛ لأنه يلوح لى أن بلير قبل قبولاً تاماً منطق أبحاث السوق، أكثر من أى زعيم آخر من زعماء اليسار.

ومن الواضح أن المجال مازال متسعاً لاستيعاب تعبئة جماهيرية من نوع مختلف، فثمة إمكانية - مثلاً - للقيام بتعبئة ديماجوجية وشعبوية حول شخصيات معينة أو مشاهير يجذبون الاهتمام ويستحوذون على مشاعر جماهير ضخمة، وتعتبر حالة الأميرة ديانا أفضل مثال على ذلك. كما أنه يمكن محاولة إجراء تعبئة سياسية تتناسب مع مجتمع السوق الحرة بطريقة بيرلوسكونى (رئيس وزراء إيطاليا) الذى نظم شؤونه السياسية بالطريقة نفسها، التى يحشد بها المؤيدين لنادى كرة القدم التابع له، ويفرز هذا الواقع أسلحة سياسية جديدة تماماً، ليس للجيل القديم أى خبرة بها، وقد شرعنا

(١) الناطق باسم هيئة أو حزب أو تنظيم الذى يقدم تفسيرات للأحداث من وجهة نظر معينة (م).

(٢) عينة من السكان يتم اختيارها للمشاركة فى ترويج منتج معين أو سلعة معينة قبل إطلاقها فى السوق ويمكن استخدام مثل هذه الجماعات فى الحملات السياسية أو البرامج التليفزيونية، لقياس مدى نجاحها بتطبيق ما يسمى بالتغذية المرتدة للمستمر (م).

فقط في فهم كيف يمكن توجيه السياسة وإدارتها بهذه الطريقة الجديدة غير أن السؤال الحقيقي هو : هل لا يزال هناك مجال لما يسمى سياسة؟

إن هذا الوضع لا يؤثر على اليسار فحسب بل إنه يسد إليه ضربة قاصمة؛ لأن سياسة اليمين المتمثلة في الحفاظ على الوضع القائم، يمكن ممارستها دون عمل جماعي كبير جداً. وفي سابق الأيام كانت هناك ظاهرة معروفة في السياسة البريطانية : فعندما كان يقف مرشح في الانتخابات المحلية ويقول : أنا مستقل ولا أتنتمي إلى أى حزب ولست مهتماً بتسييس الحكومة المحلية فالجميع يعرف أنه مرشح الجناح اليمنى، ولذلك فإن نزع السمة السياسية عن السياسة (أو ما يسمى باللاتسييس) يضعف بصفة آلية طاقات اليسار وإمكانياته، ومع ذلك مازالت التعبئة الجماهيرية تحدث ومن المحتمل استمرارها في القرن الحادى والعشرين، لكن في أشكال جديدة وإذا كان أحدهم أخطأ قائلًا إن التاريخ قد انتهى فلا أريد أن اقترف الخطأ نفسه قائلًا إن السياسة قد انتهت، ومع ذلك فإننى أعتقد أن لا تسييس الأغلبية الساحقة من المواطنين يمثل خطراً داهماً؛ لأنه يمكن أن يقضى إلى تعبئتها بعيداً تماماً عن طريقة عمل جميع أنواع السياسات الديمقراطية، ونستطيع أن ندرك مدى خطورة هذه الظاهرة في بلدان ديمقراطية مثل الولايات المتحدة، حيث أصبح لا يشترك في الانتخابات المهمة سوى أقل من نصف أولئك الذين يحق لهم التصويت، وهو ما حدث مؤخراً في اسكتلندا، فقد كنا نظن منذ عشرين عاماً أنه يستحيل ألا يشترك في التصويت سوى ٦٠٪ من المواطنين في أول في انتخابات للبرلمان الأسكتلندى منذ ثلاثمائة عام، وهى انتخابات كان من المفترض أن تحقق الطموح التاريخى لشعب هذا البلد، وفي أول انتخابات جرت في جنوب إفريقيا أصطف الناس لعدة أميال؛ لكى يتمكنوا من الوصول إلى مركز الانتخابات. إن الانتخابات في الغرب أصبحت أكثر فأكثر أحداثاً تثيرها الأقليات، ولا تشترك فيها الأغلبية، على حساب نزاهة العملية السياسية. وفي الولايات المتحدة فإن الجناح المتطرف من الحزب الجمهورى - والذي كان يتكون في الأصل من الأصوليين - له تأثيره البالغ (الذى لا يتناسب مع عدده) في اختيار المرشحين وذلك؛ لأن هذه العملية تقتصر فقط على الانتخابات الأولية لاختيار مرشح الحزب والتي لا تشترك فيها أغلبية الناخبين المسجلين في الحزب الجمهورى.

- ثمة طريقة للخروج من هذه الأزمة الديمقراطية، كثيراً ما اغتنمها اليسار الجديد، وهى عبارة عن نوع من الاتجاه الشعبى الإعلامى، أو الاستفتاء الشعبى العام الذى يركز على تحالف فاوستى (إشارة إلى الفيلسوف الشهير الذى باع روحه للشيطان فى مقابل المعرفة والسلطة وجسده بعض الأعمال الفنية التى قدمها جوته وتوماس مان وغيرهما (م) مع وسائل الإعلام (الميديا).

- إن ذلك يثير قلقى؛ لأنه يمثل عنصراً آخر يتخطى العملية السياسية، وإذا كان جمهور المواطنين موضع اعتبار فعندئذ يجب أن تكون السياسة عملية تعبئة وحشد، وحتى ولو كانت رمزية، كما قد تمثل فى مجرد مغادرة المرء لمنزله؛ لكى يدلى بصوته فى الانتخابات، إن نظام وسائل الإعلام (الميديا) يعمل بعدد من الطرائق؛ لكى يكون عوضاً عن تلك التعبئة، أى أن وسائل الإعلام تغدو تاتشيرية النزعة (إن صرح هذا القول) لأنه لا تؤمن بوجود مجتمع ما، إنما هناك أفراد فقط، وتقيم علاقة مباشرة مع كل فرد، منزلاً بمنزل.

من الناحية التقليدية فإن العملية الانتخابية استلزمت تعبئة جماهيرية يقوم بها النشطاء؛ لكى يتوصلوا إلى الناخبين ولم يعد هذا ضرورياً اليوم، فمكن الناحية النظرية يستطيع أى زعيم فرد أن يتحدث إلى الجميع عبر وسائل الإعلام، ومن الممكن بالفعل من الناحية التقنية أن تدلى بصوتك من غرفة الجلوس عن طريق جهاز التحكم عن بعد، ومع ذلك فإن الأهمية الرمزية للعملية الانتخابية، التى تنشط المواطنين - ولو ليوم واحد فقط - تعد فى رأى ضرورية للإبقاء على المجتمع متضامناً ولكى تعطيه الإحساس بأنه يشكل جماعة يكل ما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات، ولا أقول إن كل هذا لا يمكن الاستعاضة عنه بشيء مختلف، لكن من الصعوبة بمكان حقاً بالنسبة لشخص تربى فى حقبة سياسية أخرى أن يتكهن بكيف يتحقق ذلك، وإننى أخشى أنه كلما تم عدم تسييس السياسة وجرت خصخصتها كلما تأكلت العملية الديمقراطية، لقد أصبحت السياسة تسييرها الأقليات، وينتهى بها الأمر - كما فى إيطاليا - إلى أن تعتبر غير وثيقة الصلة أو غير موافقة كثيراً للحياة الحقيقية للناس، وذلك أمر غير جيد للييسار أو للحياة العامة.

الفصل الخامس

الإنسان الكونى

- لقد تغير المشهد الثقافى وكذلك الاجتماعى والسياسى
فى العقد الأخير من القرن العشرين : إذ أصبح من المتيسر
تغيير محل الإقامة والحصول بشكل مستمر ومتواصل
على المعلومات على نطاق عالمى، وغدت القدرة الاستهلاكية
المتاحة للبشر على نحو لم يحلم به أبداً أبائهم، فهل أصبحوا
أكثر سعادة ؟

ما إذا كان الناس أصبحوا أكثر سعادة، من الصعوبة البالغة ليس فقط على
المؤرخ بل على أى معاصر أن يقدم إجابة عن هذا السؤال، والشئ الوحيد الذى نعرفه
هو أن ما أسماه جيفرسون "السعى وراء السعادة" يعد باعثاً أو حافزاً عاماً لدى
البشر، فى الأزمنة الحديثة على الأقل. لكن يصعب للغاية تقدير مدى نجاح هذا التطلع
الطموح على أرضية الواقع، ويلوح لى أنه إذا كان الناس يعيشون فى مستوى الكفاف
- أى بون ضمان مكونات الحياة الأساسية مثل الطعام والملبس والمأوى - فإن مجرد
حصولهم على ما يتجاوز هذا المستوى يعد إنجازاً ضخماً، ويصبحون سعداء بكل
بساطة عندما يعيشون فى وضع يبعد عنهم الخوف من شبح الجوع.

وإذا تطلعت إلى الجيل الأول من المهاجرين إلى الولايات المتحدة، فسوف تدرك أن
هؤلاء الناس اعتقدوا على وجه اليقين أنهم حسنوا مصيرهم إلى درجة أنهم لم يعوبوا

أبدأ إلى مواطنهم الأصلي، ومن ثم فإن نمو الثروة على نطاق شامل يجلب معه وسوف يجلب معه - بكل تأكيد - السعادة للفقراء، وقد تكون تكلفة هذه السعادة أو ثمنها هو خسارة المعايير ونظام القيم والقواعد والتطلعات وأساليب الحياة. بيد أن علينا أن نتذكر أن هذا الوضع لم يشكل - حتى في البلدان النامية - مشكلة كبرى حتى الثلث الأخير من القرن العشرين، وأنداك فقط بدأ النموذج التقليدي الذي مارس به الناس حياتهم يواجه به تحدياً خطيراً للمرة الأولى، ولم تبدأ هذه التغيرات بعد بالفعل بالنسبة لغالبية البشر في معظم أنحاء العالم.

وإذا ما عاش المرء فوق مستوى الكفاف فإن الأمور تختلف اختلافاً كبيراً، وحتى الزيادة في الدخل أو اتساع نطاق مباحج الحياة لا يكفل بالضرورة أو بصفة آلية الإحساس بتحقيق الذات أو الإشباع، وفي عالم يمكن أن يعيش فيه الناس على الكفاية بدلاً من الخبز فلا يمكن للمرء مثل هذا الوضع أن يتخلص من الضغط النابع من الحسد والمقارنة الاجتماعية، وإذا كان المرء ميسور الحال في مجتمع ديناميكي فلا يستطيع أن يتفادى وضعه بالثروة التي حصل عليها الآخرون الذين ينتمون إلى الجماعة الاجتماعية نفسها التي ينتمى إليها، حتى ولو كان المرء قد حصل على كافة تطلعاته، ومن الواضح أن هذا الوضع يقلل الإحساس بالسعادة ويزيد الشعور بعدم الأمن.

لقد حقق القرن العشرون قدراً هائلاً من الحراك الاجتماعي والمهني، وأعتقد أن القرن الحادي والعشرين سوف يحقق المزيد، ولا يحدث هذا في نطاق جيل واحد فقط، فالأطفال أكثر تعليمًا وثقافة وثراء من آبائهم، ويرجع ذلك بصفة أساسية إلى الزيادة الهائلة في المستويات التعليمية، بدلاً من مستويات محو الأمية وصولاً إلى مراحل التعليم الثانوي والجامعي، ويعد التعليم الجامعي - خاصة - ظاهرة حديثة في مستواها الراهن، خلا العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، وللمرة الأولى في التاريخ سوف تستطيع غالبية البشر معرفة القراءة والكتابة في القرن الحادي والعشرين، وسوف تحصل نسبة كبيرة للغاية على تعليم جامعي. وفي بريطانيا يضعون الخطط؛ لكي يصل نصف الشباب من السكان إلى الجامعة في القرن الحادي والعشرين، وهذه الفرصة متاحة بالفعل لأكثر من ثلث الشباب في البلدان المتقدمة، فهل ذلك يجعل الناس

أكثر سعادة ؟ وبلا أدنى ريب فإن ذلك يحقق السعادة وإن كان على المستوى الأدنى، ويحقق إنجاز محو الأمية إشباعاً هائلاً، وكان لدى طلاب فى نيويورك من أبناء الهنود فى أمريكا الجنوبية، لم يكن أبائهم يعرفون حتى الإسبانية لكنهم شقوا طريقهم فى بلدانهم الأصلية بتعلم المبادئ الأولية للغة الإسبانية واكتساب مهارات العمل الأساسية مثل قيادة السيارات، وقد قدموا تضحيات ضخمة لكي يتمكن الجيل التالى من الحصول على التعليم. ويتعين على القول إنه من أى وجهة نظر كانت، فإن هذه الأسر - التى ما زالت غير موسرة - تظهر جميع الأمارات التى تدل بالفعل على الاستمتاع بنوع من الإنجاز؛ لأنها أنجزت ما كان يعتق أجدادهم أنه يستحيل تحقيقه، وقد أصبحوا قادرين على اختيار أساليب حياة مغامرة لتلك التى كان مقدراً عليهم الاقتداء بها، وهذا ما يجعلهم سعداء بلا أدنى ريب.

وثمة عنصراً آخر يتعين أن يؤخذ فى الحسبان، أى ذلك التأثير الذى أحدثته الكوارث المروعة التى اجتاحت القرن العشرين على أولئك الذين عاشوا أثنائها، ويمكن القول إن هذه الكوارث قد أفرزت على نحو متناقض وبصورة انقصامية - تقريباً - تأثيرات سيكولوجية إيجابية على أولئك الذين شاركوا فيها سواء أكانوا من المدنيين أو العسكريين، ومن الواضح أن ذلك لا ينطبق على الضحايا أو العدد الضخم من أولئك الذين تم طردهم أو اجتثاثهم من جذورهم أو جرى ذبحهم، لكن كان ذلك بالنسبة لأولئك الذين بقوا على قيد الحياة، وثمة بعض الشك - مثلاً - فى أن المعاناة المادية التى قاساها الروس إبان الحرب الأخيرة تفوقت إجمالاً على الإحساس بالرضا والفخر، بأنهم كانوا أقوىاء؛ لكي يتحملوا الحرب وأن يتغلبوا عليها، وهذا الشعور الجماعى يدعم بشكل أو آخر الجماعة. وفى أيرلندا الشمالية التى اجتاحتها ما يشبه الحرب الأهلية لزمّن طويل فإن مستويات الصحة العقلية للسكان أعلى منها فى بقية المملكة المتحدة، والحق أنه حدث - عقب توقيع اتفاقات السلام - صعود مفاجئ فى حالات الانتحار والاكتئاب. ومن الناحية الأخرى، فإن القطيعة مع النماذج والقيم التقليدية يمكن بلا أدنى ريب تتسبب فى عدم الإحساس والسعادة، ويمكن أن تكون شديدة الإيلام : خاصة عندما لا تعرف ما الذى يتعين عليك أن تفعله، وإلى أين تذهب، ومن ستكون،

وليس من قبيل المصادفة أن العلاج النفسى - مهنة القرن العشرين - قد انتشر على نحو خاص بين جماعتين اتسمتا بحراك منتظم وعدم يقين بالغ: اليهود والأمريكان، وفى كلتا هاتين الحالتين من الشائع للغاية أن تتلمس العون من شخص ما فى وسعه المساعدة فى مواجهة أوضاع لا يقدم عنها الماضى أى إيضاحات أو نماذج.

وأخيراً فإن المشكلة الحديثة والمهمة بصدد السعادة تتعلق بالمسنين الذين تتزايد نسبتهم بين السكان فى العالم المتقدم، وهم فى وضع ملتبس، ويحتفظون فى حالات كثيرة بقدراتهم لفترة أطول من ذى قبل، وكثرة منهم ثرية وأقل اعتماداً على الآخرين؛ ولذلك، فإن قطاعاً واسعاً من كبار السن فى البلدان المتقدمة أكثر رضا؛ لأنه لم يعد يشارك فى ساعات الازدحام لكى يكسب رزقه، ونحن جميعاً نشاهد السائحين الأمريكين المسنين الذين يسافرون أيام العطلات ويعيشون حياتهم كما لو أن السن لم يعد يشكل عقبة تحول دون الاستمتاع بالحياة، وكان المرء فى المجتمعات التقليدية فى الماضى إما أن يتوفى صغير السن - نسبياً - أو إذا عمر طويلاً، يكون عادة قوى البنيان متمتعاً بصحة جيدة. واليوم؛ ولأن الطب والعلم يتيحان لنا أن نعيش طويلاً للغاية فإن عدد الضعفاء عقلياً وبدنياً فى ازدياد مستمر، وذلك هو سبب شدة الحزن (عدم السعادة) وسوف يتزايد ذلك الإحساس؛ لأن متوسط العمر المتوقع يسجل ارتفاعاً تدريجياً، وامتداد الحياة فيما يتجاوز التقديرات التوراتية - حيث قدرت التوراة مدة حياة الإنسان بسبعين عاماً، والتي جرت مراعاتها حتى سبعينيات القرن العشرين، من جانب أغلبية البشر - بدأ يغمر العالم مع وجود أولئك الذين بلغوا الثمانين أو التسعين من عمرهم، ومن وجهة النظر هذه فإن طول العمر لا يعد ضماناً لتحقيق السعادة.

وماذا سيكون الوضع فى القرن العشرين ؟

فى اعتقادى على وجه الإجمال فإن الحد البالغ الشديد من العمق ظواهر مثل الفقر المتوطن وتحرر البشرية من سطوة العوز والحاجة سيكون له تأثيره الإيجابى على السعادة.

- لقد وجد يوماً نزوع لدى النخب فى كل أمة إلى المشاركة فى ثقافة "عالمية" أو "كونية"، لكننا اليوم، نواجه شيئاً جديداً تماماً : عملية تسعى إلى جعل الثقافات متماثلة على نطاق الكوكب الأرضى بأسره، الانتشار الكونى لثقافة شعبية جماهيرية، وقد أشرت أنفاً إلى أن ٩٠٪ من الأفلام التى تتم مشاهدتها فى العالم من إنتاج أمريكى (باستثناء لا يستهان به للهند واليابان). ويصدق الشئ نفسه على موسيقى الروك : وتعد كرة القدم مثلاً صارخاً : فأنا من المعجبين بفريق إيطالى لكرة القدم لا تكاد تجد فيه سوى لاعبين اثنين من الإيطاليين.

أسباب ذلك بعضها تكنولوجى وبعضها اقتصادى، ومن الجلى أن اختراعات القرن العشرين مثل التصوير والسينما والإذاعة والتلفزيون والاستنساخ الآلى للصوت كانت لها أهميتها البالغة، وتعاظمت هذه الأهمية بالتطورات التكنولوجية الأحدث التى تستمر فى توليد الآثار ولا سيما من خلال تصغير الآلات والمعدات والأجهزة، مما جعل هذه التكنولوجيا قابلة للنقل والحمل وأن تغنوا متاحة فى كل مكان، كما أن انتشار الإنترنت له مغزاه؛ لأنه يجعل نطاقاً واسعاً من التكنولوجيا فى متناول الجميع، بيد أننا ينبغي أن نتذكر أنه فى نهاية القرن العشرين فإن أقلية ضئيلة هى التى تتعامل مع الإنترنت برغم ما تشهده من توسع سريع، ويكاد ينحصر استعمالها حالياً فى الولايات المتحدة وأوروبا والسبب الأساسى فى ذلك إلى جانب أسباب أخرى هو أن الشرط المسبق للوصول إلى شبكه الإنترنت يستلزم معرفة القراءة والكتابة والإلمام باللغة الإنجليزية فى أغلب الأحيان.

ثم هناك الجانب الاقتصادى: فنمو السوق العالمية جعل الاتصالات السريعة ممكنة لدرجة أن برنامج التلفزيون نفسه أو الفيلم نفسه يمكن بثه على نطاق العالم بأسره فى الوقت نفسه، مما عمل على تحويل البرامج المذاعة على الهواء مباشرة - مثل مباريات كرة القدم - إلى ترفيه دولى حقيقى، حيث لم تعد الفرق الرياضية مرتبطة ببلد معين وأصبح ارتباطها أقل كذلك بمدينة معينة، وهناك تجمع دولى من اللاعبين الذين تم اختيارهم وانتقالهم حول العالم بأسره بطريقة كانت تحدث فى الماضى فقط بالنسبة لنجوم الأوبرا وكبار قادة الفرق الموسيقية، ولا يوجد أفضل من كرة القدم؛ لكى يصوروا

العولمة فى العقد الأخير من القرن العشرين. بيد أن ثمة اختلافاً بين الثقافة التقليدية الرفيعة التى سادت القرن التاسع عشر والثقافة الجماهيرية الحديثة، ولتترك الرياضة جانباً؛ لأنها بحكم طبيعتها ذاتها موحدة القواعد إلى حد بعيد، فالثقافة التقليدية تنتشر عبر نموذج أوروبى جرى تقبله وتبنيه على نطاق عالمى، ومن ثم أصبح معولاً : فالحفلة الموسيقية (كونسير) سوف تقدم الرصيد التاريخى نفسه من الأعمال الموسيقية (الريبيرتوار) أى الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية فى أوزاكا أو شيكاغو أو جوهانسبورج، ولا يصدق هذا على الأدب بسبب وجود قيد بالغ القوة مفروضة على العولمة: الاختلاف اللغوى، وحتى الأدب الكلاسيكى الذى أنتجه القرن التاسع عشر لم يصبح معولاً أبداً بالطريقة نفسها التى حدثت للموسيقى والفنون المرئية، فهناك قلة من البشر خارج إيطاليا تفكر فى أعماق قلبها أن دانتي أعظم الشعراء؛ لأنها لم تستطع البتة قراءة أعماله كما أن الروس وأولئك الذين يقرأون اللغة الروسية هم الذين يعتقدون فقط أن بوشكين من أعظم الشعراء الذين وجبوا على ظهر البسيطة.

ومن الناحية الأخرى، فإننا نواجه انتشار التوفيقية فى الثقافة الشعبية السائدة فى نهاية القرن العشرين، ويتمثل أوضح مثال على ذلك فى الموسيقى الشعبية التى تستوعب عناصر شتى من موسيقى السود الأمريكيين والريف الغربى الأمريكى والويسترن وأمريكا الجنوبية، وأخيراً من الثقافات الإفريقية والهندية - وباختصار - من كل شئ، وهناك مجموعة مؤلفة من جميع الموروثات الموسيقية المختلفة تسافر حول العالم، فالثقافة الشعبية الكونية هى ثمرة هذا الاستعداد لمزج عناصر مختلفة مستمدة من شتى بقاع العالم، ولكن الثقافة الرفيعة لاشتراك فى هذه القوة الدافعة، وثمة مشكلة أخيرة بخصوص العلاقة بين الثقافة الرفيعة والثقافة الشعبية، فالثقافة الشعبية يشترك فيها الجميع بما فى ذلك، أولئك الذين يألّفون الثقافة الرفيعة، لكن العكس ليس صحيحاً حتى لو كنت تحب موزار، فسوف تألف بلا أدنى ريب موسيقى الدول وستكون قد استمعت إليها وربما استمعت بها أيضاً، ولهذا السبب فإن الأيقونات العالمية مصدرها الثقافة الشعبية، وقد لا تشكل حتى جزءاً شديداً الالتصاق بها، ويمكن أن تكون أيضاً

أشياء جامدة (غير حية) وعندما اخترع اندى ورهول Andy Warhol^(١) - أحد فناني القرن العشرين البالغ الحساسية لمعنى الثقافة الشعبية - المجموعة الشهيرة من الأيقونات العالمية فإنه اختار مارلين مونرو وماوتسى تونج وتشسى جيفارا، وعلبة صفيح الشوربة المسماة "كامبل" وغدت هذه المحاكاة الرمزية (إعداد الأيقونات) ممكنة بفضل إتاحة هذه الصور بشكل متزامن على نطاق الكرة الأرضية، ولكن إلى أى مدى ستكون دائمة ؟ اعتقد ورهول نفسه أن غالبية هذه الأيقونات ستكون مؤقتة، ونستطيع أن نبلور حكماً انطلاقاً من الأثر الكوني الفريد لشخصيات مثل ديانا، ويتراءى لى أن الأحداث التى أحاطت بموتها ستكون بعد انقضاء خمسين عاماً مجرد حاشية مثيرة للاهتمام ولن تمثل فصلاً من فصول تاريخ الثقافة الشعبية فى القرن العشرين.

- لكن وبرغم انتشار ثقافية كونية جماهيرية، هناك مقاومة جلية وحتى إحياء لثقافات قومية وإقليمية ومحلية، ولماذا يريد سكان ويلز الذين - من حسن الصدف - يتكلمون الإنجليزية فى نطاق عالم يتحدث الإنجليزية، لماذا يريدون إعادة اكتشاف اللغة الويلزية ؟ ولماذا تريد الفتيات المسلمات اللاتى تعيش فى لندن ارتداء ملابس الجدد عندما تذهبن إلى المسجد؟ وفضلاً عن هذا فإنه يلوح أن العولمة نفسها تنمى التنوع والاختلافات الثقافية مثلما تتيح الفرص السوقية التى تدر أرباحاً، برغم توجيهها إلى أسواق معينة.

- لا أعتقد أنه ثمة مفارقة بينها ولا تناقض، أولاً لا أرى أى أمارات مقنعة تدل على أن الثقافات المحلية فى الوقت الراهن تقف موقفاً مناوئاً بشدة للعولمة، وهناك بعض حالات محدودة من هذا النوع، ولكن ليس على نطاق كبير وإلى حد بعيد، وما يحدث عادة بين الجماعات المهاجرة هو استيعاب الغرب لها على نحو متزايد، مع الإبقاء على التقاليد والممارسات الأصلية للأجيال الأقدم، ومازال هذا هو رأى، فقد جنح

(١) (١٩٣٠ - ١٩٨٧) فنان أمريكي بدأ حياته كفنان تجارى ثم أصبح من أبرز أعلام الفن الذى أصبح يسمى 'البوب' pop art وحقق شهرة واسعة فى هذا المجال خلال ستينيات القرن العشرين ثم اتجه إلى السينما فقدم عدة أفلام اشتهرت بطولها المبالغ فيه (م).

الجيل الأول من المهاجرين إلى أن يتكيف قدر الإمكان مع المجتمع الجديد، ولكنه اضطر في الوقت نفسه إلى الإبقاء على صلة ما بالموروث؛ لأن جميع روابطه وخبراته لا تزال متجذرة في المجتمع الذي جاء منه، ولهذا فإن درجة الاستيعاب تكون ضئيلة نسبياً، ويكون أطفال الجيل الأولي أكثر وأسرع تمثلاً واستيعاباً، وشباب جزر الهند الغربية أو الهنود أو الباكستانيين الذين يعيشون في لندن يتحدثون الإنجليزية تماماً مثل معاصريهم دون أدنى نبرة من لغتهم الأصلية، ومع ذلك فإنهم يمكن أن يصبحوا من المجاهدين الأصوليين الإسلاميين.

واعتقد أن الاتجاه السائد مازال ينزع إلى الاستيعاب، ليس كمثال أعلى لكن بوصفه ممارسة تفرضها المعيشة في مجتمع مختلف عن المجتمع الأصلي، وربما بدأ الجيل الثالث في التنمية رد فعل مناصر للعودة إلى الجذور وهو ما اكتشفه الأمريكيون في ستينيات القرن العشرين، عندما تم اختراع مجموعة جديدة من المفردات المستمدة من ثقافات متعددة، وعندما لم يرغب الشباب في أن يكون مجرد أمريكي بل أمريكي أسود أو أمريكي يوناني أو أمريكي إيطالي، واكتشف من جديد الجيل الثالث من اليهود الأمريكيين الأرثوذكسية الدينية، ومع ذلك، لا أميل إلى الاعتقاد بأن هذا يمثل رد فعل عام ضد العولة، ومن الحقيقي أن اليهود الأمريكيين المتطرفين ذهبوا إلى الضفة الغربية وعدلوا بعض جوانب ممارستهم الدينية، لكنهم استمروا يسلكون مثل بقية اليهود الأمريكيين في جميع سبل الحياة الأخرى. وبمعنى آخر، فإن الاستيعاب يسود أو ينجح لأن تكون له الغلبة، ويصدق الشيء نفسه على العادات والأزياء، وإذا نهبنا إلى جماعة من المهاجرين في مدينة متعددة الأعراق فسوف تجد عدد الأشخاص الذين يرتدون بطريقة مختلفة عن قصد وعمد مثل اليهود الأرثوذكسي، إنما يمثلون أقلية، وهذا حقيقي أيضاً عند الياسبورا الإسلامية : وليس الأصوليين فقط هم الذين يمكن أن يرتدوا الرموز الخارجية للأصولية.

وفي رأيي، أنه من الأرجح ألا يعتبر ذلك رد فعل مناهض للعولة بل هو نوع من الجمع التلفيقي بين ثقافات عدة مثل أفلام الكونج فو (المصارعة الصينية) التي تنتج في هونج كونج، حيث تجمع بين أشقات من الويسترن والمصارعة الصينية التقليدية

وممارسات أخرى عديدة، وبهذه الطريقة تتم تنمية وصهر عدة أشكال محلية متغايرة من ثقافة كونية، بدلاً من أن تتصادم فيما بينها، وإن رد الفعل المناهض لتماثل الحياة في بلدان مثل الولايات المتحدة يعبر عن نفسه بدلاً من ذلك من خلال تكوين جماعات الهوية، التي تفرز أساليب حياتية معينة كثيراً ما تكون ذات طابع غريب شاذ مثل جوالاة العصر "العصر الجديد"^(١) وتعتبر تلك بمثابة تجمع من ربود الأفعال الفردية وليست ربود أفعال جماعية.

ومن الواضح حقاً أنه يتعين وجود قدر من رد الفعل، إن لم يكن فقط بسبب بلبلية (بابل) اللغات في العالم التي تعد قيداً أساسياً مفروضاً على العولة، وإن زيادة التعليم ومعرفة القراءة والكتابة سوف تجعل هذه المشكلة حادة على نحو خاص من أجل تماثل العالم، والفكرة القائلة إن العالم قاطبة سوف يتكلم اللغة الإنجليزية تبو لى فكرة يوتوبية ولن تتحقق، ويعد تعدد اللغات - بحكم تعريفه - عقبة فى وجه العولة، ويجب ألا تختلط علينا الأمور : فالعولة وهى ظاهرة حقيقية وواسعة الانتشار بالغة الاختلاف عن الكوزموبوليتية (المواطنة العالمية) التى مازالت محدودة للغاية.

- إن أنت لا تتفق مع ما كتبه عالم الاجتماع أنتونى جيدنس A. Giddens قائلاً : "إن الصدام بين الاعتماد على الموروث والاستقلال الفردى هو أحد قطبى العولة، وهناك فى القطب الآخر صدام بين الكوزموبوليتية والأصولية" ويزعم جيدنس أن الأصولية وليدة العولة؛ لأنه من غير الممكن للمرء أن يكون لديه أى مبرر للعيش، ما لم يكن لديه ما يستحق أن يموت من أجله".

- لا أعتقد أنه توجد أى صلة بين العولة والأصولية، باستثناء حقيقة أن أى شىء يفسد التراث ويقلبه رأساً على عقب له بعض التأثير على الأصولية، ومن البين أن العولة هى أحد هذه الأمور، والحق أن رد الفعل الأصولى أقل شيوعاً على وجه الدقة فى تلك البلدان التى غدت أكثر عولة، والأصولية هى رد فعل مناهض لكل ما يأتى من العالم الخارجى، وما إذا كان معولماً أو لا فذاك أمر قليل الأهمية.

(١) جماعات تعيش على هامش المجتمع وفقاً لأسلوب حياة غير تقليدى جوال ومتنقل وتتسم ببعض النزعات الروحية والصوفية وحماية البيئة والدفاع عنها، محاولة تقديم نهج جديدة للثقافة الغربية التقليدية (م).

والسؤال عما إذا كان يوجد ما يستحق الموت من أجله لا علاقة له أيضاً بالعودة، وإنما يتعلق بتدهور القيم الجماعية في نمو مجتمع فردي النزعة إلى حد بعيد، وأظن أن الحرب في كوسوفا قدمت المثال المتطرف، وقد مورست باسم أسمى القيم الأخلاقية وارتكزت في الوقت نفسه على أساس ألا يموت جندي واحد من حلف الناتو في ظل أي ظروف، وهو يختص أساساً بالولايات المتحدة التي ربما كانت البلد الوحيد في العالم، التي يتوقع أن يقوم جنودها بالقتل دون أن يتعرضوا لخطر الموت، ولكني أعتقد أن الناس لا تنقصها الدواعي والأسباب التي تجعلها على استعداد للموت في بقاع كثيرة من العالم، وقد اختفى بعضها ومازال مثل الأسباب الجيدة التي تدفع للموت لكن ما زال هناك الكثير من الأسباب السيئة وهي قوية كما كانت من قبل، وتدل السرعة التي اندفع بها المهاجرون الألبان إلى كوسوفا للالتحاق بحرب العصابات على أنه ما زال يوجد أناس كثيرون على استعداد لتعرض حياتهم لخطر حقيقي، والمثال الأخير لصراع واسع النطاق كان الناس على استعداد للموت من أجل القضية تمثل في الحرب الإيرانية العراقية، وفضلاً عن هذا، فإنه يمكن توقع حرب في المستقبل بين الصين والولايات المتحدة قد تحمل الأمريكيين على قبول مخاطر المعركة تماماً كما فعل أجدادهم وآباء أجدادهم.

وتنصفى فترة السلم الممتدة طويلاً طابعاً جذرياً أو راديكالياً على السلوك وتنقسم الناس إلى مجموعتين : مجموعة على استعداد للتعرض للخطر - وليس بالضرورة في القوات المسلحة - ومجموعة أخرى ترفض المجازفة، وعلى سبيل المثال، هناك اليوم عدد متزايد يمارس أنواعاً متطرفة وخطرة من الرياضة تنطوي على احتمال أن يفقد المرء حياته، وهناك من يقبل المشاركة في القتال كنشاط مهني مدفوع الأجر، ومن الناحية الأخرى، خلق السلام الدائم أغلبية كبيرة هادئة في البلدان الثرية، تعتبر أن مفهوم الموت من أجل قضية ما لا يحجر التفكير فيه ملياً، ومع تساؤل التجنيد العام الإجباري من المقدر أن يتأصل هذا الموقف، وليس من اليسير تخيل كيف يمكن أن يتغير هذا، أو ما إذا كان ممكناً العودة إلى واقع القرن العشرين، حيث جعلت الحروب كل فرد يواجه سؤال الموت إما في منزله تحت وقع القنابل أو على جبهة القتال، ويصدق هذا على

العالم الغربى المتقدم والهادئ، ولا يعنى ذلك أن أماكن أخرى تفتقر إلى من هو على استعداد لى يموت من أجل قضية ما لأن هذا يعتبر - إلى حد ما - جزءاً متأسلاً فى الطبيعة البشرية.

- عن معظم الروابط التقليدية التى تربط الفرد بواقعه قد ضعفت مع العولة مثل الولاء للأسرة والقرية والمجاورة والشركة، ويتعين على الشباب الأمريكى الذى يبدأ الآن حياته العملية أن يتوقع تغيير الشركة التى يعمل فيها حوالى عشر مرات وكذلك المهنة التى يمارسها، والمنافسة تفضى إلى ضغوط نفسية وعصبية بالغة والحسد الاجتماعى يبتلى المستويات العليا فى المجتمع.

- دعنا ألا نخلط بين أمور مختلفة : العولة والقطيعة مع أساليب الحياة التقليدية، والجانب الوحيد من هذه القطيعة الذى يمكن أن تكون له صلة مباشرة بالعولة هو عدم توفر الأمن للعمالة؛ لأنه من المفترض أن تجبر العولة الشركات على تبنى مرونة أكبر فيما يتعلق بالقوى العاملة لكن حتى هذا - وفى معظم الحالات - لا يرجع إلى التنافس الدولى، فعدم توفر الأمن للعمالة هو إستراتيجية جديدة وتكنيك لتعظيم الأرباح عن طريق تقليل الاعتماد قدر الإمكان على العمل البشرى أو من خلال دفع أجور أقل للعاملين، وفى الاقتصاد الرأسمالى الحديث فإن العامل الوحيد الذى لا يمكن أن تزيد إنتاجيته بسهولة كما لا يمكن تخفيض تكلفته بيسر هو الكائن البشرى، ولذلك هناك ضغط هائل لاستبعاده من العملية الإنتاجية، وهو ما يمكن أن يكون حقيقياً سواء وجدت أم لم توجد منافسة عالمية. وبالأصح إن هذا هو العذر الذى تبرر به هذه العملية حالياً، وحدث مؤخراً جداً أن قرر مصرف إنجليزى تحميل زبائنه خمسة جنيهاً عن كل عملية تتم بمعرفة موظفى الشباك فى الفروع، وقد عمدت الإدارة إلى ذلك لأنها لا تريد فى الواقع أن يتجه الزبائن فى معاملتهم إلى موظفى الشباك كما تسعى إلى إقفال بعض الفروع، وتفضل أن يستخدم الزبائن فى معاملتهم بأجمعها الأجهزة الأوتوماتيكية، وباختصار فإنها تريد إتمام العمل دون تدخل من موظفى المصرف، وهذا قانون حديدى

للإنتاج الرأسمالي في حد ذاته ولا يتعلق بالمنافسة العالمية، وإن المصارف سوف تعمل على تخفيض عدد موظفيها، إذا كان التشغيل الآلي (التلقائية الآلية) يسمح بذلك، بصرف النظر عن أى منافسة تأتي من مصرف فى هونج كونج.

ويتعين علينا أن نكون قادرين على التمييز بين الأمور، وإن كان من الحقيقي بلا أدنى ريب أن هذا سيكون إحدى المشاكل الكبرى التى ستواجه القرن الحادى والعشرين، ونميل اليوم إلى أن نتقبل كأمر قاطع أننا لم نعد فى احتياج إلى الحوافز التقليدية التى أنبتت من قبل المجتمعات البشرية معاً كما عملت - أيضاً - على تسير عجلة الاقتصاد، وخير مثال لها هو الأسرة وقيمة العمل، وقد اعتبر آدم سميث الدافع على الاقتصاد السوق الحرة لا يمثل فقط حاجة نفسية مسلماً بها لتبادل السلع - بيعاً وشراءً - بل يعد أيضاً نزوعاً نموذجياً للإنسان صوب العمل وحسن استعداده يجعل الإشباع الفوري الذى يحقق له العمل يأتى فى المرتبة الثانية من الأهمية وبون هذا الموقف فإن جوانب كثيرة من السوق لن تكون قادرة على العمل إطلاقاً.

وهذه الركائز التى ينهض عليها مجتمعا حطمتها الثورة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى اجتاحت الجزء الأخير من القرن العشرين.

ومما يذهلنى عدم إبلاء الاهتمام الكافى لحقيقة أن هذه الآثار يمكن أن تحطم السير الفعال للنظام الرأسمالى نفسه، وعلى سبيل المثال فإن حياة شركات كثيرة نهضت فى الماضى على أساس القبول العام لقيم التضامن والروابط الأسرية، وهو ما زال حقيقياً فى إيطاليا وأعمالها التجارية الصغيرة المسماة "المعجزة"، وما زال يصدق أيضاً على الدياسبورا الصينية المقدمة (المولعة بالمغامرة) والمفعمة بالحياة التى تعيش فى جنوب شرق آسيا، فالتضامن الأسرى فى هذه الحالات يوفر مورداً يعتمد عليه فى الحصول على الكوادر الذين هم على استعداد للمشاركة فى اهتمامات الشركة، وحيث تعتبر مشاعر الالتزام والواجب لديهم غير مفروضة من الخارج، لكنها مدونة بشكل أو آخر فى دستورهم الأخلاقى، ويلوح لى اليوم أن الفكرة التى تكسب أرضاً - فى حقبة السوق الحرة هذه - هى أن هذه النوافع القديمة لم تعد مهمة، وإنه يمكن نبذها بون أن يترتب على ذلك أى عواقب، وإنه يمكن إدارة الاقتصاد كلية بون الإفادة منها.

ويعتبر ولاء العمال لشركاتهم أو ولاء الإدارة للشركة لا تأثير له، ويعتقد أنه من الممكن تماماً أن يتعايش نجاح الشركة مع عدم توفر الأمن بشكل دائم ومع التغيير والتبدل المستمرين لمستخدمى الشركة.

وهناك خصائص أخرى لهذا الاتجاه، فمن المفترض حالياً أن الإنسان لم يعد مستعداً للانتظار لكي يحصل على مكافأة أو جزاء عن كدحه عمله أو مشروعه التجارى، وأنه يقتضى الحصول على إشباع فوري، ولم يعد أحد يستثمر فى تكوين شركة جديدة تعمل فى غضون عشر سنوات فى أقرب تقدير وتبدأ فى تحقيق أرباح بعد عشر سنوات أخرى، ويتمثل المنطق الوحيد للاستثمار الصائب حالياً فى الاشتراك فيما يثمر عائداً فورياً، ومن الأكثر شيوعاً فى الواقع شراء شركات قائمة بدلاً من تأسيس شركات جديدة، وفى هذه الأيام المجيدة لعمليات المضاربة المالية الدولية فإن الناس لا يقدرّون نتائج نشاطهم التجارى فى نهاية عقد من الزمان ولا حتى فى نهاية السنة، فمدى نجاح أى استثمار يجرى احتسابه يومياً وربما حتى ساعة بساعة. والسؤال هو : إلى أى مدى تستطيع الرأسمالية أن تعمل بطريقة العمل الاقتصاى المعينة هذه ؟ وبالنسبة لشخص مثلى أتى من جيل آخر فإنه يشق عليه أن يقدم إجابة عن سؤال كهذا، وفيما يتعلق بالكثير منا فإن فكرة عدم توفر أى قدر من الأمن لما قد يحدث غداً تعد مفزعة وغريبة تماماً وكلية، وربما سيغفوا من الممكن أن تتكيف الأجيال القادمة مع هذا النظام وتعتبره عادياً، لكن إذا ما أفلحت فى ذلك فإن الثمن سيكون قدراً من الضغط العصبى والتوتر المرعب، ولا يساورنى أدنى شك فى ذلك، والأمر غير الواضح هو ما إذا كان من الممكن تحمل هذا الوضع مع استدامته لأجل طويل.

ومن رأى أنه ثمة أنشطة يتعذر تنظيمها بهذه الطريقة على الإطلاق أى على أساس الحصول على أكبر تعويض ممكن وعلى الفور وبقول آخر، وفقاً لقواعد السوق التنافسية، والعلم هو أحد الأمثلة على ذلك. وإن أحد الأسباب التى تزيد كبرى وغمى إزاء المستقبل هو ما إذا كان العلم - الذى اعتبر أحد الأشياء القليلة النادرة التى قاومت قطيعة هذا النظام مع القيم التقليدية - سوف يتغير أيضاً مع الواقع الجديد، ويعد العلماء فى أمريكا من بين القلائل الذين لا يكون الدافع إلى نشاطهم على وجه الحصر هو توقع

الحصول على الربح الأقصى، ويتمثل خطر الثورة البيولوجية والجينية فى أن العلماء يدركون مقدار النقود التى يمكنهم كسبها فيما لو انضموا أكثر ما ينبغى إلى هذا المنطق، وهل سوف يمتصهم تماماً النسق الذى تعمل بموجبه السوق المالية بالفعل؟ وإذا حدث هذا وعندما يحدث فإن العواقب يمكن أن تكون مهمة لدرجة أنه يستحيل حالياً حتى محاولة تخيلها، وهو ما قد يصدق أيضاً على تمويل البحوث العلمية، والذى تم فيه معظم الأوقات فى الماضى دون أن يؤخذ فى الحسبان حساب الربح والخسارة، وهناك بحوث مثل تلك التى تجريها المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية (cern) تستغرق سنوات ولا تستهدف تحقيق ربح فوري أولاً تتم لمتطلبات عسكرية، لكن لأن الحكومات اعتبرت ذلك بمثابة أحد جوانب التنافس العالمى بين الدول، غير أنه إذا كان معيار التنافس الدولى هو تحقيق أقصى قدر من الأرباح فهل ستكون هناك حاجة بعد إلى هذه المنظمة (cern).

وأميل إلى الظن بأن هذا الواقع الشديد بقيم السوق لن يدوم، وهو نسق يمكن أن يعمل على خير ما يرام بالنسبة لبعض أنواع الأنشطة مثل أعمال المضاربة المالية أو الصناعة الترفيهية، وإذا نظرنا إلى النجاحات الكبرى التى حققتها عمليات التصنيع فى نهاية القرن (اليابان، كوريا، الصين) فسوف نرى أنها لم تركز أبداً على إلغاء الروابط بين الشركة والعمال، والحق أننى أعتقد - وعلى أقل تقدير - طالما ظل البشر لاغنى عنهم فى العملية الانتخابية ولم يتم استبعادهم كلية منها فسوف يستحيل تقريباً استبعاد أهمية إحساسهم بالرضى ومراعاة بواقفهم وبالتالي مشاعرهم الجماعية مثل الولاء للأسرة والجماعة والشركة والدولة.

- إن الحاجة الملحة إلى التحقق الذاتى واستبعاد جميع ضروب المعاناة أفسحت المجال لتدفق مستحضرات تجميل جديدة، ولم يعد يكفى أن يكون المرء فى صحة جيدة ويعتمد على نظام صحى فعال، فنحن نريد أيضاً أن نظل نشطاء جنسياً بعد تجاوز مرحلة الشباب والاقتراب من الشيخوخة، ومن ثم نحتاج إلى الفياجرا، ولم نعد نبغى الحزن والكآبة أو فتور الهمة ولهذا نتجه إلى تعاطى البروزاك (Prozac) (نواء مضاد للاكتئاب) ونريد أن نكون من النحفاء دون وجود الكرسن ولذلك نتعاطى الأقراص التى تزيل

الدهون أو ننغمس فى نظام غذائى (رجيم) مفرط لدرجة أنه قد يتسبب فى إحداث أمراض جماعية جديدة، مثل نقص الشهية للطعام (Amorexia) أو الشر المرضى "بوليميا" (Bulimia) . فهل تعتقد أننا نخاطر بإيجاد أشكال جديدة من التمييز، لم تعد ترتكز على الإبراد وإنما على البدانة أو القبح أو الخجل أو عدم الاهتمام بالجنس؟

- أعتقد أن هذه المشاكل مقصورة على البلدان الثرية، ولا أظن أنها تقلق التأميل (سرى لانكا) أو الألبان بدرجة كبيرة، ومع ذلك فإنها مشكلة جديدة بالنقاش، وإمكانية الحصول على هذه الأنواع الجديدة من العلاج سوف تتوقف على التكاليف، والسبب الذى يجعل الناس يفكرون فى التمييز إزاء أنواع معينة من المرضى من أمثال نوى الوزن الزائد أو المدخنين فى نطاق العلاج الطبى المجانى، هو سبب يتعلق بالتكلفة، ويجب على النظام الصحى العمومى أن يحدد استخدام بعض الأدوية مثل الفياجرا، كما حدث فى بريطانيا، وفضلاً عن هذا هناك حالات نادرة للغاية قد تبرر توزيعه مجاناً على أساس طبى، والمشكلة فى المجتمعات الديمقراطية هى أن أى فرد يستشعر رغبة ما - مثل أن يكون أكثر قوة من الناحية الجنسية - فإن ذلك يخلق حقاً فى العلاج الطبى، ومن ثم فهناك ضغط هائل من رأى العام.

وثمة مثال جيد آخر يتعلق بالإيدز (AIDS) ولسنوات عديدة فى الولايات المتحدة، حيث لم يكن المرض بالغ الانتشار ولم يمثل حالة طوارئ صحية خطيرة، فإن جماعات الضغط التى اهتمت بهذه القضية كانت بالغة الفعالية فى استرعاء اهتمام عام واسع النطاق وفى تحصيل موارد مالية ضخمة، ومن الناحية الاجتماعية كانت هناك شروط اجتماعية كثيرة استحققت على الأقل مثل ذلك الاستثمار والبحث، والآن حيث أصبح الإيدز حقاً مشكلة جماهيرية فى إفريقيا فإن الموقف مختلف والاهتمام متدنٍ ويرجع ذلك جزئياً إلى عدم وجود مجتمعات ديمقراطية وجماعات ضغط فى إفريقيا.

بيد أن الأمر الأكثر أهمية - فى الإجابة عن السؤال المطروح - يتعلق بتحليل كيفية تشكيل أنواع التسلسل الهرمى (التراتب) الاجتماعى، ونستطيع أن ننتبأ على وجه اليقين بأنه كلما أصبح العالم أكثر ثراء كلما قلت المساواة بما فى ذلك المساواة

السياسية والقانونية، وقد تأسست النظم المناصرة للمساواة بين البشر - أى النظم الاشتراكية - كما فى روسيا وصين ماوتسى تونج، على حقيقة أن كونها من البلدان الفقيرة فلن توجد آليات تعمل على إنتاج طبقة ثرية، ومن الطبيعى أن توجد أقلية تعيش حياة أفضل من بقية السكان حتى فى الاتحاد السوفيتى وبدرجة أقل فى الصين. ومع ذلك، فإذا ما تمت مقارنة معايير الثراء هذه بما يوجد فى الغرب فإنها تبدو تافهة بل مثار سخرية وضحك، ويعتبر "الداشا" - البيت الريفى الروسى الذى يعود إلى ستالين أو إلى عضو فى *momenklatura* السوفيتية - رمزاً للمكانة الاجتماعية الرفيعة لكن أى مهنى ثرى نسبياً فى ميلانو مثلاً يمتلك منزلاً ثانوياً أكثر جمالاً يقع على بحيرة كومو (بحيرة فى جبال الألب شمال إيطاليا م).

وفى البلدان الغنية حيث يكون الاقتصاد مطلق العنان من الناحية العملية، فإن تنوع الإيرادات ضخمة للغاية وفى طريقة الازدياد يوماً، وكم عدد المليونيرات فى إيطاليا أو فى فرنسا أو بريطانيا العظمى؟ وإن عدد أولئك الذين يمتلكون أصولاً إجمالية تبلغ أو تتجاوز المليون دولار كبير للغاية حتى فى أوروبا، ولو أن معدل النمو لا يماثل المستويات الأمريكية. ومن الناحية الأخرى، فإن المزايا التى تحققها الثروة الضخمة لم تعد واضحة كثيراً، ويرجع السبب الأساسى إلى أن السلع والخدمات المتاحة للجميع غدت معقدة تقنياً ومنتشرة لدرجة أن الاستمتاع بها لا يميز بين الغنى الفقير، وعندما يمتلك أكثر من ٩٠٪ من السكان أجهزة تليفزيونية فإن ميزة الحصول على شاشة عملاقة شديدة الوضوح أقل أهمية نسبياً من حيازة التليفزيون عندما كان ذلك الامتياز لا تحظى به إلا القلة القليلة، وهكذا، فحتى رموز الثروة تتغير، ويتمثل اليوم رمز المقام الرفيع للغنى حقا فى امتلاك طائرة خاصة، وذات مرة أوضح لى أكاديمى أمريكى - مهمته جمع التبرعات لجامعته - أسرار مهنته قائلاً: "أولاً، عليك أن تحب الأثرياء، وثانياً، أن تعرف ما يجب أن تتحدث به اليوم، ومن المؤكد أن الموضوع الذى يثير اهتمامهم هو طائرتهم الخاصة".

وتمثل السمة الجديدة حقا للتمايز التى خلقتها الثروة فى أن المزايا والمنافع التى تحدد وضع الأغنياء يجب أن تكون مقصورة على فئة واحدة حصراً، والأثرياء فقط

هم الذين يعرفون أين يذهبون لقضاء العطلات؛ لأنهم يوجدون وحدهم هناك، فى حين أن أحد الأسس التقليدية للتراتب الاجتماعى تمثل بوجه عام فى إمكانية أن يراه الجميع ويتعرفون عليه ويقدرونه، وبهذا المعنى فإن الثروة تحقق اليوم قدرأ أقل من الرضا والإشباع، وفى الماضى - مثلاً - وجد ارتباط ضخم بين كون المرء غنياً وكونه موفور الصحة وحسن المظهر، وكانت الطبقة الحاكمة من ملاك الأرض الإنجليز أكثر طولاً وقوة وأبهى منظرأ، بيد أن هذا التميز ينوى تدريجياً أيضاً ومع ذلك، فإننى أعتقد أن الثروة ستظل محورية فى تحديد التراتب الاجتماعى، ولا أستطيع أن أرى أى تراتب بديل فى طريقه إلى الظهور لكى يتنافس مع توفر الأموال.

وقد ظلت الكنيسة لزمن طويل تمثل تراتباً بديلاً، ومركز البابا ما زال لا يركز على عدد الطائرات الخاصة التى فى حوزته، غير أن العلمانية تقوض أيضاً التراتب الاجتماعى القائم على ممارسة السلطة الدينية، وماذا عن السياسيين ؟ هم رجال ونساء متعلمون، وكان التعليم فى الماضى عاملاً حاسماً فى التراتيب الاجتماعية، ومن المحتمل أن يستمروا فى احتلال مرتبة أعلى من غيرهم ولكنهم يشغلون درجة أدنى من الأثرياء، وربما الموهبة الفنية ؟ التى سوف يكون لها فى نهاية الأمر اعتبارها المهم وهو ما يرجع جزئياً إلى أنه يمكن ترجمتها إلى مكاسب مالية، والكمال الجسمانى ؟ لقد نالت البراعة الرياضية يوماً الكثير من التقدير، ومن المؤكد حقا أن الرياضة خضعت اعتباراً من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر لموضات المجتمع الأرستقراطى الذى ولدت فيه، وأولئك الذين استشارتهم مهارات راكبى الخيل (الجوكى) وأبطال الملاكمة، عاشوا فى نطاق ثقافة نظمها على نحو مهيمن المجتمع الأرستقراطى وقد اختفى هذا حالياً، وغدت الرياضة كذلك نشاطاً من أنشطة السوق. ولا أعتقد أن ذلك قلل من الإعجاب الفريد الذى تثيره المنجزات الرياضية الباهرة، وحتى وقت قريب جداً، لم يرتبط هذا الوضع بأى صلة بمقدار الأموال التى يكونها الرياضى. والحق، أن كبار النجوم الرياضيين لم يكونوا أموالاً كثيرة على أية حال فى معظم القرن الماضى - على الأقل خارج الولايات المتحدة - ويكفل النجاح الرياضى تحقيق سلطة إضافية فى نطاق تحديد التراتب الاجتماعى، وقد رفع بيليه (لاعب الكرة البرازيلى الشهير "م")

إلى ذلك المركز الرفيع بحيث أصبح وزيراً، ولا أظن أن هذا العامل سوف يختفى،
والحق أنه سوف يتركز فى الأفراد وصورتهم الشخصية، بينما يتجاهل فرقتهم
أو بلدانهم الأصلية.

- هل من رأيك أن المرأة خرجت من حرب التحرر التى خاضتها منتصرة ظافرة ؟
وهل حققت فعلاً المساواة مع الرجل؟ وهل هذه المساواة هى الشيء نفسه مثل التحرر
أو ربما كانت وسيلة للتطابق مع أساطير الذكر والسلطة والمظاهر الجنسية ؟

- لا مرأى فى أن تحرر المرأة يعتبر من أعظم الأحداث التاريخية فى القرن
العشرين، ومشكلة القرن الحادى والعشرين هى أن يحدد ما الذى يتعين عليه أن يفعله
وماذا سوف يحدث على الأرجح، وقد اقتصر تحرر المرأة فى القرن العشرين بالفعل
على بعض أجزاء العالم وبعض قطاعات المجتمع، وما زالت هناك بقاع كثيرة من الكرة
الأرضية لم تحدث فيها هذه الظاهرة، وقد وجدت مرحلتان كبيرتان : تمثلت المرحلة
الأولى فى المعركة من أجل الحصول على الحقوق السياسية نفسها والحق فى التصويت،
وانصبت المرحلة الثانية على المساواة فى الوصول إلى المهن نفسها. ومن الناحية العملية،
فإن هذه الأهداف تحققت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وحتى ذلك الحين فإن البلدان
التي لم تستطع فيها النساء التمتع بحق التصويت كانت تعد أقلية ضئيلة، ثم اختفت،
والتقدم الذى أحرزته المرأة فى المهن المختلفة قد شجعت عليه كثيراً الحرب وزيادة
حاجة الأسر فى السنوات الثلاثين الأخيرة، إلى حصولها على دخلين بدلاً من دخل واحد.
وأعتقد أن النجاحات التى تحققت فى موقع العمل تعد مرضية، برغم أنه يمكن القول
بكل تأكيد إنها غير كافية، ومنع ذلك فإننى أعتقد أن انتشار العمالة النسائية يعد
ظاهرة مذهلة للغاية خاصة فى بلدان مثل الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى..

بيد أن ثمة مشكلة خطيرة - بل وتزايدت خطورتها - تتعلق بالمصاعب غير العادية
التي تواجه المرأة التى تجمع بين شغل وظيفة مهنية رفيعة المستوى وبين دورها كأم
ولا يندرج هذا الوضع فى نطاق التميز ولكن يتصل بالقانون الطبيعى، حيث إن المرأة
هى التى تنجب الأطفال ويمكن نظرياً إيجاد حل لهذه المشكلة بأن يعهد بالأطفال
إلى أشخاص يتولون رعايتهم أثناء غياب الأم أو إلى دور الحضانة أو أن يعهد بتربيتهم

إلى أشخاص خلاف الأم الطبيعية ويدلنا التاريخ على أنه من الممكن حدوث ذلك : وقد مارسته الأرستقراطية على نطاق واسع ولكن يتفق الجميع حالياً على أن هذا الوضع لا يعتبر الحل الأفضل بالنسبة للأطفال، ومن ثم هناك مشكلة من المرجح أن تحمل الأجيال القادمة تكلفة عاطفية واجتماعية مما يفسر سبب تدنى نسبة النساء اللاتي يصلن إلى قمة المهن عن نسبة الرجال، ولهذا السبب فإن كثرة من النساء تعجز ببساطة عن التنافس فيما يتجاوز نقطة معينة وفضلاً عن هذا، فمن الخطأ افتراض أن ذلك محض مسألة إحصائية يتعين حلها عن طريق تحديد نسبة معينة (كوتا) تستهدف تقييم أنواع العمل بالتساوي بين الرجال والنساء ولا أرى أى سبب تاريخي يبرر جعل التكوين المثالي لمهنة ما - مثل البرلمان - مناصفة بين الرجال وبين النساء، ومن الناحية الأخرى فقد وجد اتجاه في الماضي يرمى إلى تقسيم العمل على أساس الجنس، وقد كان في بعض الحالات قديماً للغاية من الناحية التاريخية وعلى سبيل المثال فإن الرجال كانوا يذهبون إلى الجيش وتذهب النساء إلى صناعة الولادة وقد حدث ذلك - في مناسبات أخرى - لأسباب تاريخية عرضية مثل تأنيث المهن التعليمية والممارسة الطبية في الاتحاد السوفيتي.

بيد أنه حدث تغير عظيم في ستينيات القرن العشرين، لا علاقة له بالتنافس الجنسي : تحكم المرأة في الإنجاب وقد كان بمثابة حدث تاريخي حقاً وفعلاً : نوع من إعلان استقلال المرأة عن الرجل، وإلى حد ما عن القواعد التي حكمت الجماعة الاجتماعية بأسرها، ولعل أهم ما برر في ذلك الوقت هو قرار المرأة بألا تقبل بعد تعاليم الكنيسة وسلطتها المعنوية، ولاسيما في بلدان ذات شهرة كاثوليكية مثل إيطاليا وأيرلندا وبولندا، وقد امتدت هذه الظاهرة فيما يتجاوز الدائرة المحدودة للمرأة المتعلمة التي شكلت طليعة الحركة الداعية إلى المساواة، وكانت لها تأثيرات بعيدة المدى؛ لأنها حولت الآلية الكاملة لإعادة إنتاج الجنس البشري من جيل إلى الجيل التالي، وسمحت للمرأة أن تمارس الحق في عدم إنجاب أطفال وكانت السرعة التي انتشرت بها مذهلة ومازالت العواقب من الصعب التكهّن بها.

وسيكون التحرر الأكبر للمرأة إحدى سمات القرن الحادى والعشرين، وأكثر أسلحته فعالية سوف تتمثل فى انتشار التعليم على مدار الكوكب الأرضى بأسره، حتى فى أقصى البلدان تخلفاً وسوف تنتشر هذه الثورة عن طريق اكتشاف أن الناس الآخرين يتعرضون بطريقة مغايرة لما كان يعتبر قوانين طبيعية غير قابلة للتغيير، ومن هذه النظرة فإن تحرر المرأة ليس إلا فى مراحلها الأولية، لأنه لم يخاطب بعد غالبية سكان العالم وفى المحال السياسى، من الناحية الأخرى فإن صعود المرأة كان للغربة أقل إرضاءً بكثير؛ لأنه ولو أن المرأة دخلت البرلمان أو أصبحت وزيرة أو رئيسة وزراء فى بلدان عديدة، فلا نستطيع القول إن السياسة تغيرت بأية طريقة أو غدت أكثر نسوية

- أود أن أعرف أفكارك بصدد الثورة التكنولوجية، التى تعتبر فى أحيان كثيرة من أقوى العوامل التى تسهم فى تحقيق الديمقراطية؛ لأنها تقدم المعلومات إلى كل منزل وتجعل من الممكن العمل خارج وحدات الإنتاج التقليدية، وبالتالي فهى أكثر مرونة وقدرة على التكيف مع المواهب الفردية فهل تشارك هذا النقاش ؟

- من المؤكد إن تكنولوجيا المعلومات تحدث تغيرات هائلة فى مجال العمل ولكن يساورنى الارتياح فى أماكن حدوث تغير جذرى، تماماً مثلما ارتاب فى مقدرة الاقتصاد الحديث على أن يعمل بون وجود مرجعية من التقاليد الاجتماعية، ومن الواضح أنه يمكن - من الناحية التقنية - العمل انطلاقاً من المنزل والاتصال بالعالم منفرداً من خلال البريد الإلكتروني (E-MAIL) والواقع أن الناس لا تتشد العمل بهذه الطريقة وحتى رواد التكنولوجيا المتقدمة لم يعيشوا متناثرين عبر الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، لكنهم تركزوا فى مناطق معينة بحيث يمكنهم الالتقاء والاتصال فيما بينهم، ومن غير المريح كثيراً ألا يجد الإنسان من يبادله الحديث، وأن يتخلى عن الاتصالات الشخصية التى يعد أحد العناصر الأساسية تماماً لتحقيق الإنتاجية والفاعلية فى العمل وكل هذا الحديث عن العمل المنزلى اللامركزى هو مجرد دعاية؛ لتبرير الاستغناء عن العمال "العمالة الزائدة" وتستعد هيئة المواصلات البريطانية (BRITISH TELCOM) للتخلص من ١٠٪ من قوة العمل بافتراض أنهم سوف يستطيعون العمل من منازلهم، فضلاً عن هذا، فذلك مسألة تتعلق باليوتوبية التكنولوجية التى تتجاهل حقيقة أن الإنسان كائن لا يود أن يعيش بمفرده ويفضل أن يعمل مع الآخرين.

وفى مجال العمل فإن المشاركة فى النشاط الاجتماعى مازالت وستبقى ضرورية تماماً وكلية ونحن نعلم أن الناس فى الريف يذهبون إلى السوق ليس بغرض شراء حاجاتهم فحسب، بل أيضاً للقاء الآخرين وتبادل الأنباء والثروة وأنت لا تستطيع بناء مجتمع على أساس احتساب نسب المنافع للتكاليف، بل وحتى من هذه النظرة فإن وجود مركز أبحاث لميكروسوفت يعد أكثر فعالية بكثير من تشتيت الباحثين فيما بين كندا والفلبين، ويعد وادى سيليكون SILICON VALLEY مثلاً نموذجياً لكيفية التوصل إلى جمهور مهم من العمال لابد منه؛ لتشغيل حتى أكثر الصناعات تقدماً، ويعيش معظم أولئك الذين يعملون فى وظائف البرمجيات (SOFTWARE) فى الهند فى بانغالور (عاصمة ولاية كارناتاكا فى جنوب الهند) وحتى أولئك الأكثر حماسة لمزايا الاتصال عبر مسافات طويلة يفضلون الاجتماع فيما بينهم فى الحانات نفسها (البارات) لكى يتبينوا كيف تسير الأمور، ومعرفة آخر ما وصل إليه التقدم فى هذا المجال ويصدق الشئ، نفسه على الجامعات وأول سؤال يطرحه العالم الجيد عندما تعرض عليه الجامعة وظيفة هو : كم عدد من سيعملون معه ومع من يستطيع أن يتحدث عن عمله ؟

- ألا تخيفك قوة العلم وسطوته ؟ مثل إمكانيات الاستنساخ البشرى والتهجين الحيوانى ونقل الجينات أو القتل فى الحرب ما بينما يكون المرء جالساً أمام الكمبيوتر؟

- من الطبيعى أن يخفى ذلك - ليس بسبب القوة التى يخلو لها فحسب - بل أيضاً لأن تلميذ الساحر لا يعرف غالباً كيفية الاستخدام، وإذا ما توفر بعض الضمان الذى يكفل أن الأشخاص الذين يجعلون هذه التطورات ممكنة يعرفون - أيضاً - ماذا يفعلون بها وكيف يستخدمونها ومتى لا يجب استخدامها على الإطلاق، فساكون أقل خوفاً لكن هذه الضمانة غير موجودة ويجرى التلاعب بقوى طبيعية هائلة، ولا يحسن يوماً فهمها فهماً كاملاً ولا يوجد تنظيم أو مؤسسة يمكن أن تقول ما الذى يجب فعله وما لا يجب فعله، والقاعدة الوحيدة التى توجد فى ظروف السوق الحرة، أى تعظيم النمو الاقتصادى والربح إلى أقصى حد ممكن، سوف تحدث على وجه اليقين - تقريباً - تأثيرات سلبية.

الفصل السادس

١٢ أكتوبر ١٩٩٩

- ١٢ أكتوبر ١٩٩٩ هو يوم مولد الطفل رقم ٦ بلايين نسمة
فإلى أى مدى سوف يعيش هذا الطفل حياة كريمة
ومنتجة وسعيدة ؟

- سيكون عدم التكافؤ فى الفرص أحد العوامل الحاسمة فى مستقبل البشرية
بصفتها الجماعية أو كأفراد : سواء تعلق الأمر بضروب اللامساواة الإقليمية واللامساواة
الجغرافية فى نطاق البلد الواحد، واللامساواة الاجتماعية والمشكلة الكبرى التى تواجه
الألفية الجديدة هى أنه يستحيل التنبؤ عموماً بمستقبل الطفل رقم ٦ بلايين نسمة.

- كيف تفسر الاتجاه الديموغرافى فى أوروبا فى ظل معدل النمو السلبى أو حتى
معدل الصفر الذى يعد سمة نموذجية للعالم المتقدم ؟

- هذا حقيقى. ولا تقتصر هذه الظاهرة المهمة على القطاع الثرى فى أوروبا
إنما تمتد أيضاً إلى أوروبا الشرقية، وهناك بلدان كثيرة فى الاتحاد السوفيتى السابق
وفى بلدان أخرى مثل المجر ورومانيا ينخفض فيها عدد السكان، وفى القارة القديمة فإن
البلدان التى أعاق البرنامج السوفيتى تجديدها وتحديثها هى التى تشهد أسوأ الأوضاع.

ومن ثم فإن تدهور معدل المواليد تشترك فيه البلدان الثرية ثراءً فاحشاً مع تلك
التي على النقيض تماماً، وأعتقد أن التفاوت الديموغرافى فى مختلف مناطق العالم
سيمثل فى خاتمة المطاف مشكلة من أعظم المشاكل فى القرن العشرين.

ودعنا نمنع النظر أولاً فى المستوى الذى بلغه العدد الشامل لسكان العالم : ٦ بلايين نسمة، ويتوقع علماء الديموغرافيا - حالياً - أن هذا النمو سوف يستقر خلال النصف الأول من القرن الحادى والعشرين فى حدود ١٠ بلايين نسمة، المشكلة هى أن التنبؤات الديموغرافية فى المدى البعيد لم تثبت أبداً أنها بالغة الدقة والتحديد، ويرتكز الاستقرار المتوقع على افتراض أن العالم الثالث فى مجموعة - أو معظمه على الأقل - سوف يتبع نمط الاتجاهات الديموغرافية نفسها التى سادت من قبل فى العالم الأول، أى أنه سوف يشهد انخفاضاً مفاجئاً وافتقاراً للنظر فى معدل المواليد ويكون ذلك مقترناً بزيادة كبيرة فى متوسط العمر المتوقع، وهناك دلائل وأمارات على حدوث ذلك، ومع هذا فإننا نتعامل مع تنبؤ يرتكز فقط على الخبرة والنماذج الرياضية، ولهذا يتعين علينا مراعاة الحذر الشديد.

وقد أجريت من قبل محاولات عديدة للتنبؤ بالاتجاهات السكانية إبان القرن العشرين، وعلى سبيل المثال، انتشر التخمين فيما بين الحربين العالميتين بحوث انخفاض وشيك الوقوع فى سكان أوروبا، وبدلاً من ذلك فقد اكتشفنا انفجار المواليد وزيادتهم عقب الحرب العالمية الثانية حتى فى أكثر البلدان تقدماً، وما يمكن أن نقوله بيقين مقبول عقلاً هو أنه ما لم يحدث هذا الاستقرار التنبؤى، فآنذاك سوف تفضى المعدلات الراهنة لنمو السكان فى العالم حتماً إلى كارثة من نوع أو آخر، ويجب أن يوجد حد إذا ما تم تجاوزه فسوف تحدث تأثيرات سلبية ضخمة على نطاق كونى.

وهكذا لا يسعنا إلا أن نتعلل انطلاقاً من هذا بالأمل فى وقف معدل النمو والزيادة، ولكن حتى فى هذه الحالة تظل أسئلة كثيرة بون إجابة، فنحن لا نعلم ما إذا كان هذا الاستقرار سوف يقتضى أثر النماذج السابقة، التى انطوت جزئياً على حدوث تغييرات فى السلوك الاجتماعى مثل الزواج، وعبرت جزئياً عن التدخل عمداً وعن قصد فى العملية التناسلية، مثل تحديد النسل والإجهاض، وأعتقد أنه إذا حدث هذا الاستقرار فسيكون ثمرة تدنى معدل المواليد وكذلك تدنى معدل الوفيات فى الوقت نفسه، ويمكن أن يفرز هذان العاملان معاً تشكيلاً عمرياً معيناً بالنسبة للسكان، ومن الناحية الأخرى ليس لدينا أدنى خبرة بماذا يعنى حقا الاستقرار الديموغرافى طويل الأجل، وما أعنيه

هو أننا لا نعرف كيفية تحقيق ذلك فحسب، بل إننا لا نعرف كذلك كيفية الحفاظ عليه عبر فترات زمنية طويلة، بل يكفل أن يكون كل جيل ماثلاً في الحجم تقريباً للجيل السابق، وهل سوف تحدث تقلبات، صعوداً وانخفاضاً بصورة دراماتيكية ؟ علينا أن نعرف ذلك، إذا أردنا معرفة ما سوف يحدث، لكن يستحيل التنبؤ.

وما أقل ما نعرفه حالياً عما سوف يحدث عندما يتوقف قطاع من العالم - كما يحدث الآن - عن التناسل، في حين يتحقق فائض ضخم من السكان في بقية العالم، مما يزيد من احتمالية زيادة عدد المهاجرين.

والشيء الوحيد الذى نعرفه هو أن التحضر العمرانى - وعلى نحو متناقض - يجعل الوضع أفضل قليلاً؛ لأنه يعمل جزئياً على تخفيف الضغط البالغ على البيئة، نتيجة للحاجة إلى إيجاد أرض للقاطنين الجدد فى العالم، وفى العصور الوسطى حدث الاستيطان لهذا السبب بالتحديد : فإذا تجاوز نمو السكان حداً معيناً، فإنه يتعين على البعض أن يهاجر، ويجتث الغابات لكي يستقر هناك، وقد حدث الاستيطان فى آسيا - وإلى حد ما فى أوروبا - نتيجة لإخضاع الأراضي الجديدة للزراعة مما عمل بالتالى على تغيير البيئة. وفى بلدان مثل الهند، وهى من الأمثلة القليلة الباقية فى العالم حيث مازال هذا العدد الضخم من السكان يعتمد إلى حد كبير على الزراعة، فإن الآثار يمكن مشاهدتها إذ لم يتبق سوى القليل من الغابات والأرض غير المزروعة والحيوانات البرية.

واليوم فإن الأمور يمكن أن تسير لأى اتجاه مغاير، ولحسن الحظ، فإننا إذا أخذنا العالم فى مجموعة فإن التحضر العمرانى يوفر لنا حلاً مختلفاً، إذ يتيح مكاناً لكي يستقر فيه القادمون الجدد دون أن نلجأ بالضرورة إلى استغلال مساحات شاسعة جديدة من الأرض على نطاق كبير، وإن وجدت مشكلة أكثر إلحاحاً تتمثل فى سوء توزيع السكان حول العالم، وستكون النتيجة التى لا محيص عنها تزايد الضغوط الشديدة من أجل الهجرة إلى الخارج من البلدان ذات معدلات المواليد المرتفعة للغاية إلى البلدان الثرية، ولكن - وكما رأينا - فإن إحدى الخصائص الأساسية للعالم الحديث هى أن الهجرة يزداد كبحها أو عرقلتها فى البلدان الثرية، ومع ذلك، يلوح لى أنه من

المحتم أن تقوم - بطريقة أو أخرى - البلدان التي لا يتكاثر سكانها - مثل إيطاليا - باستيراد عمالة رخيصة أو أولئك الذي يمكنهم القيام بالوظائف التي لم يعد السكان الأصليون يودون القيام بها. كما يبدو أنه لا مفر بالنسبة لى من استيراد قوة العمل هذه من البلدان الفقيرة، وعلى نحو متزايد من العالم الثالث، وقد رأينا بالفعل عمليات تبادل متعلقة بالهجرة من هذا النوع : وأشهرها استخدام الفلبينيات فى الخدمة المنزلية، وقرأت مؤخراً دراسة مهمة عن سالونيك : وقد كانت حيناً من الدهر مدينة متعددة الثقافات تقنطها كل شعوب الإمبراطورية العثمانية، وكانت بادىء ذى بدء مدينة يهودية وإسلامية، وقد حولتها عملية تطهير عرقى تمت تدريجياً عبر القرن العشرين إلى مدينة يسكنها ٩٩٪ اليونانيين، بيد أن ظاهرة هجرة حديثة فى سبيلها إلى تغييرها مرة أخرى؛ لأن الطبقة الوسطى اليونانية تلجأ تشغيل الخدمات الفلبينيات، فضلاً عن قيام الألبان العمل البستاني على نطاق ضخم، وهو ما يحدث فى كاليفورنيا نفسه مع اختلاف وحيد هو أن المكسيكيين هم الذين يقومون بالعمل البستاني، وإن الطلب على الخدمات التي لا يمكن أن يؤديها السكان الأصليون، بسبب ندرة قوة العمل الرخيصة، سوف يقضى بلا أدنى ريب إلى انتقال عدد كبير من البشر من العالم الثالث إلى العالم الأول.

وسوف يطرح هذا الوضع مشكلة سياسية واجتماعية ضخمة؛ لأن أوروبا مجتمع مناصر للحمائية بشكل متميز يرغب فى إقصاء الأجانب خارج حدوده، حتى ولو كانوا من اللاجئين القادمين من كوسوفا، ويتزايد عزوف البلدان الثرية عن منح حق الدخول أو المواطنة للغرباء، وينطوى الوضع الراهن المتمثل فى الطلب القوى على اليد العاملة من ناحية والإجراءات التقليدية من الناحية الأخرى على أخطار خلق مجتمعين : يتمتع المجتمع الأول بالمواطنة الكاملة وكافة الحقوق ويتكون المجتمع الثانى من الغرباء، وتبدو عليه جميع القسمات الدائمة لأكثر الفئات فقراً وسوف يحصل بعضهم على بعض أشكال المواطنة، لكن الغالبية سوف تعتبر من بعض النواحي منتمية إلى جنس أدنى، على الأقل من حيث التمتع بحقوق المواطنة، ويعيش بالفعل نصف المهاجرين الذين يوجدون فى أوروبا بطريقة غير مشروعة وفى الخفاء (تحت الأرض). مما يعنى عملياً عدم تمتعهم بأى حقوق، وباختصار فإن ضحايا هذا الوضع لن يشعروا بوطائه الكاملة؛

لأن إذا كان المهاجر قد جاء من إفريقيا السوداء فسوف يكسب عيشه فى فلورنسا بطريقة أفضل مما لو كان فى موطنه الأصلي، حتى بدون التمتع بحقوق المواطن. بيد أن هذه العملية سوف تخلق مجتمع الفصل العنصرى (الآبارتهيد APARTHEID) وفى الواقع فإن السمة الحقيقة للفصل العنصرى ليست هى الفصل بين الأجناس، كما تعتقد غالبية البشر، ففى جنوب إفريقيا كانت جميع الأجناس مختلطة فى كافة ميادين الحياة الجماعية، لكن البعض تمتع بحقوق حرم منها الآخرون.

ومادام المهاجرون أقلية ضئيلة نسبياً فقد لا توجد أى مشكلة سياسية خطيرة، لكن اليوم لم يعد الوضع كذلك، إذ يمثل الأجانب فى ألمانيا والنمسا بالفعل قرابة ١٠٪ من السكان، ومن الواضح أن التقييدات الصارمة المفروضة على الهجرة فى أوروبا لن تكون قادرة على الحيلولة دون زيادة نسبة الهجرة، وهو ما قد يخلق توترات سياسية ومعضلات أخلاقية خطيرة.

ومن هنا تتأتى أخطار العنصرية التى تتبع من حقيقة أن أكبر الهجرات مصدرها العالم الثالث، ولبعض الأسباب التى لا أفهمها تماماً ولكنها ثبتت تاريخياً، فإنه يصعب قبول نوى الملامح المختلفة ونوى لون الجلد المتباين، وإننى على ثقة من أن المسألة الكبرى التى لم يفصل فيها بعد، والمسكوت عنها فى الاتحاد الأوروبى هى إلى أى مدى يمكن أن يتسع نطاقه ليشمل بلدان إسلامية - وهذا هو السبب - فى رأى، لترك تركيا واقفة على عتبة الباب. ويعد الاتجاه صوب الأصولية الإسلامية فى بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا فى الأساس بمثابة رد فعل على عنصرية البلدان الأوروبية، مما يزيد الأمور تعقيداً ويتسبب فى بروز التوترات المحلية القومية، على نحو ما شهدته بالفعل فرنسا وبريطانيا العظمى، ولذلك لا يعد إخفاق البلدان الثرية فى أوروبا فى تكاثر سكانها مجرد مسألة ديموغرافية.

وترى ماذا سيحدث لبلدان أوروبا الشرقية الأقل ثراءً التى تبتدى فيها اتجاهات مماثلة للتدهور السكانى، وقد أكون على يقين من أن هذا الوضع سوف يفرز اضطرابات ضخمة هناك أيضاً وسوف يصبح بالفعل عدد السكان فى بلدان الاتحاد السوفيتى

سابقاً ويوغسلافيا سابقاً أقل مما كان عليه منذ خمسين عاماً، ولا يرجع هذا إلى انخفاض معدلات المواليد فحسب، بل أيضاً إلى نزوح ضخم للسكان بفعل الهجرة، وقد غادر كثيرون عن طيب خاطر، وطرد آخرون من ديارهم كما فى البوسنة وكوسوفا، وهم عازمون على عدم العودة، ومن الممكن مثلاً أن ينزع الكوريون والصينيون إلى عبور الحدود مع روسيا؛ لكى يذهبوا إلى الأراضى الشاسعة غير الأهلة بالسكان فى سيبيريا.

وسوف تعاني بلدان كهذه أيضاً مشكلات ديموغرافية أكبر؛ لأنها لن تستطيع توفير الهياكل الأساسية الاقتصادية التى لابد منها لدعم استمرار حياة هذه الأعداد الضخمة من السكان، ولا يمكن استبعاد أنها سوف تعالج الوضع عن طريق محاكاة قلب الاتجاه وتشجيع زيادة معدلات المواليد، كما أن استقرار النمو السكانى، أو الإخفاق فى تحقيق ذلك، ستكون له تأثيراته المهمة على اقتصادات البلدان النامية؛ لأن البلد الذى ترتفع فيه معدلات المواليد يتعين عليه تخصيص موارد أكبر؛ لإعالة الأمهات والأطفال وتوفير الرعاية الصحية والالتحاق بالمدارس، وبالتالي يتعين عليه أن ينأى عن مواصلة النمو فى عدد السكان.

ثم علينا أن نمنع النظر فى التطورات المصاحبة والتى برغم أنها قد تكون أقل وضوحاً إلا أنها ليست أقل شأنًا، ومن الجلى حالياً أنه حتى فى البلدان التى يتدنى منها عدد السكان فإن الطلب على التعليم لن يتراجع كذلك، وأولاً وأساساً بسبب ازدياد عدد الشباب الذى يتجه إلى الدراسة لفترات أطول، ولكن أيضاً سبب أن كبار السن وأرباب المعاشات يبدون كذلك الاهتمام بالتعليم المستمر المتواصل، وتلك ظاهرة قد يتم التغاضى عنها. وأعتقد أنه توجد سوق ضخمة للتجارة التعليمية التى تشهد توسعاً سريعاً مثل الدورات الدراسية الخاصة وجامعات المسنين والتدريب المهنى الدائم الذى يستمر طوال الحياة العملية بأسرها.

– إن ١٠ بلايين نسمة فى عام ٢٠٥٠ هو التوقع الأكثر تفاؤلاً
وهو الرقم الذى سوف يتحقق إذا ما نجحت برامج الأمم المتحدة
لتحديد النسل عبر العالم، لكن إذا أخفقت هذه البرامج فيمكن

الرقم أن يرتفع إلى ١٢ بليون نسمة، أى ضعف الرقم الحالى
فى فترة وجيزة تصل إلى نصف قرن، فهل ستصبح البيئة
قادرة على الصمود إزاء هذا الضغط الهائل ؟

- لا أعتقد أن أخطر المشاكل يتمثل فى إنتاج ما يكفى من الطعام لكل فرد،
ففى السنوات الخمسين الماضية أنتج العالم ما يكفى وأزید من الطعام لمجاراة الزيادة
فى عدد السكان ثلاثة أضعاف، وتم ذلك بتكنولوجيا مختلفة نسبياً أو حديثة على وجه
الخصوص، مثل التربية الانتخابية (للمواشى) وليس باستخدام البيوتكنولوجيا التى
غدت متاحة حالياً، ولا أرى أى سبب يحول دون استمرار هذا الاتجاه الإنتاجى فى
القريب العاجل، وأستطيع القول إن كمية الطعام المتوفرة فى العالم اليوم فى وسعها أن
تقيم أود زيادة كبيرة فى كل السكان، ولهذا فإننى غير مقتنع بالحجج التى تقدمها
الصناعات التى تنتج الأغذية المعدلة وراثياً، والتى ترى أن هذه هى الطريقة الوحيدة
لإطعام العالم، وليست هذه الحقيقة الواقعة - على الأقل - بالاسترشاد بالتنبؤات
الحالية المتعلقة بالنمو السكانى، ولا يعنى هذا أننى ضد البيوتكنولوجيا، إنما أقول
ببساطة إن هذه ليست حجة صائبة؛ لأننا لا نقف على أعقاب نقص فى الأغذية، وأغلبية
الشر فى العالم - باستثناء قلة سيئة الحظ - تتغذى اليوم بصورة أفضل مما كانت
تتغذى من قبل، كما أن هناك إسرافاً ضخماً فى الطعام فى العالم نتيجة لتوزيعه على
نحو غير متكافئ.

وسوف تكون هناك عواقب وخيمة تؤثر على البيئة والنظام الأيكولوجى، قللمرة
الأولى فى التاريخ تغدو البشرية قادرة على استنفاد رصيد بعض الموارد غير القابلة للتجدد،
وعلى سبيل المثال، لم يكن أحد يحلم أبداً إننا يمكن أن نستنفد أسماك بحر الشمال
من جراء عمليات الصيد ومع ذلك فهذا ما حدث على وجه الدقة، ونحن قادرين اليوم
على جعل العالم غير قابل للعيش فيه بسبب السموم أو التلوث أو الطريقة التى تغير بها
الصناعة الغلاف الجوى، ولم يتم إلا مؤخراً الوعى بهذه المشكلة - إذ لم تكن موجودة
قبل سبعينيات القرن العشرين - على الصعيد الكونى على الأقل، وعلى الرغم من أنه

برز اتجاه باحث على الأسى لمناقشة هذه الموضوعات بتعبيرات كارثية على الأصح، فلا مراء فى أن قدرة البشرية على إفساد البيئة قد أضحت خطيرة للغاية ومن الطبيعى أنه كلما زاد عددنا كلما أصبحنا أكثر خطورة.

ولم يساور القلق أى شخص بشأن مستقبل موارد الطاقة غير القابلة للتجدد - مثل الفحم - قبل منتصف القرن التاسع عشر، كما أنه ثمة حفنة ضئيلة للغاية توجست من استنفاد الاحتياجات البترولية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية، ونستطيع اليوم أن نلتمس قليلاً من الراحة أو نسترخى بعض الشيء؛ لأننا نعلم أنه تم اكتشاف الموارد البديلة، لكن تظل حقيقة أن تلك الموارد القديمة غير قابلة للتجدد، وحالماً يتم استنزافها كليةً فلن توجد أبداً على أية حال، وعلى الرغم من أنه من غير المرجح أننا سوف نستنفدها فى العقود القادمة أو حتى فى القرن القادم، فإن حقيقة كونها سوف تنتهى ذات يوم، سجلها حالياً كتاب التاريخ.

والواقع هو أننا قد غيرنا البيئة، ولكى نحكم على ما الذى سوف يحدث فى المستقبل، فإنه يتعين علينا أن نركز على خبرات الماضى وكيف تصرف الشر حتى الآن، وقد شهدنا عبر القرون ظاهرة تاريخية ذات أهمية ضخمة - مثل اجتثاث الغابات من منطقة البحر المتوسط - جزئياً من خلال انتشار الزراعة، وهو ما كان له تأثيراته التى لا راد لها على البيئة الإيطالية مثلاً، وهناك مواقع قليلة للغابة فى إيطاليا هى التى حافظت على الغابات القديمة مثل تلك التى مازالت موجودة فى جبال سيليا فى كالابريا (جنوب غرب إيطاليا)، وهكذا فإن تدهور الأوضاع البيئية ليس ظاهرة جديدة ولكنه كان يتسم فى الماضى بطابع إقليمي ويصبح الآن كونى الطابع، ويجرى حالياً إزالة الغابات المطيرة ويزعم الكثيرون أن هذا الوضع ستكون له تأثيرات مهمة أكثر بكثير من اجتثاث غابات البحر المتوسط.

وتثير كل هذه الأوضاع أسئلة مهمة، فإلى أى مدى يمكن عكس هذه الآثار والارتداد عنها ؟ وما هو المجال المتاح للقيام بعملية وقاية للطبيعة ؟ ودعنا نفترض أن العالم قد تحول بالفعل نتيجة للتدخل الإنسانى إلى شىء لا يمكن تسميته بالعالم الطبيعى (القطرى) ودعنا نفترض أن ما نسميه الآن بالطبيعة لم يعد طبيعة، بل هو تركيب من المناخ

والطبوغرافيا (وصف تضاريس الأرض) والبيئة الأصلية (المحيط) وتأثيرات التاريخ الطويل للتدخل الإنسانى، فماذا ستكون هذه البيئة شبه الإنسانية التى لم تعد بيئة طبيعية ؟ وما هو الفرق عندما يبدو العالم المحيط بنا شبيهاً بحديقة بدلاً من أن يكون غابة بكرة ؟ ومعظم المناظر الطبيعية هى من صنع الإنسان، وقد تحولت البيئة حتى القرن العشرين عن طريق الزراعة أولاً وقبل كل شىء، وكذلك فى جميع أماكن العالم المتقدم وفى أوروبا بلا أدنى ريب، لكن - فى المستقبل - علينا أن نمعن النظر فى تأثيرات التحضر العمرانى فى المناظر الطبيعية التى لم تتم زراعتها بعد، وماذا سوف يحدث للمناطق الريفية حيث لم تعد الزراعة التى أفسدت هذه المناطق لزمن طويل غير ضرورية؛ لأنها غير فعالة ؟ ولدينا أمثلة جيدة تشمل تلك المناطق المتحررة من متطلبات الزراعة، فهناك اتجاه يسود الطبقة الوسطى الأوروبية يدفعها إلى الانتقال إلى الريف وإرساء أنواع جديدة من البنى الأساسية، وذلك هو ما حدث فى توسكانى (وسط إيطاليا) حيث تدهور الشكل المعين من الزراعة المسمى meggadrha . وتلك مشكلة؛ لأن الأشكال القديمة من الزراعة فى كثير من أجزاء أوروبا هى التى حمت المناظر الطبيعية، وماذا سوف يحدث حالما تذهب وتنفض ؟ ويمكن أن تتحول الأرض إلى أرض حرجة أو ربما إلى غابة، ولا نعرف ماذا سوف يحدث، غير أن ما أريد تأكيده هو أننا فى هذه الحالة لا ندافع عن الطبيعة بل ندافع عن طبيعة أثمرتها الزراعة التى تلاعب بها البشر.

وماذا سوف يحدث فى تلك البقعة من العالم التى لا توجد بها طبقة وسطى تبنى لها منزلاً ثانوياً ؟ وقد تصبح البيئة خالية من البشر، كما يحدث فى بقاع كثيرة من الغرب الأوسط الأمريكى، لكن المنظر الطبيعى المهجور يمكن أن يغدو قفراً كاملاً بعد قرن أو قرنين من الزمان، وتجرى مناقشات مستفيضة بصدد كيفية الحفاظ على البيئة القائمة، تشغل بها فى الأساس القطاعات المثقفة فى مجتمعات الرفاهية، ولا يعنى هذا أنه لا ينبغى أن تؤخذ بجدية : فحماية النمر أو الكركدن (وحيد القرن) مثلاً يمكن أن تكون لها أهميتها من الناحية العلمية، وربما أمكن إبادتها جميعاً إذا ما ترك أمرها للسكان المحليين فى إفريقيا، وقلة ضئيلة للغاية من التصور هى التى تركت فى آسيا. ومهما يكن من أمر فتمة شىء واحد أرى أنه يتعين علينا أن نقاومه فى القرن الحادى

والعشرين ألا وهو - على وجه التحديد - تلك المحاولة الرامية إلى الوقاية والمحافظة عن طريق إنشاء متاحف حية وإيجاد مناطق خاصة ورمزية فى العالم فمن المفترض أن تحافظ على خصائصها الطبيعية.

وهنا أسباب اقتصادية جيدة بجلء تبرر هذا النوع من التطوير، كما هو الحال فى السياحة. ويمكن توضيح الأمر للشعوب الإفريقية أنه من الأفضل عدم قتل الكركدن والغوريلا، بسبب الأموال التى قد تتحقق من السياح الذين يحضرون لتصوير هذه الحيوانات، ولذلك سوف يحاول الناس تحويل بعض بقاع العالم إلى مراتع ضخمة ذات موضوع واحد، لكن هل يمكن القيام بذلك فعلاً؟ وهل سوف يتم بالنسبة لبعض الأجناس التى يمكن ألا تظل حية لولا ذلك كما هو الأمر بالنسبة للحيوانات، وأنا لا أبالغ فى القول فقد جرت مناقشة كهذه تماماً فيما يتصل بالقبائل التى تعيش فى غابات الأمازون. إن سؤال كيفية إدارة البيئة والتعامل معها يغنو أكثر فأكثر مشكلة عملية لا نظرية، مما يتطلب تقديم إجابات محددة.

لكن دعنا نفترض أنه من غير الممكن أخذ بقعة من العالم ووقايتها كما كانت، ويدلنا تاريخ إيطاليا على أن هذا الوضع ممكن نظرياً، وهو تاريخ جدير بالملاحظة لأنه برغم تدمير الأمريكيون لبيئتهم - أكثر من أى حضارة أخرى - كانوا أيضاً من الرواد فى نهج سياسات الوقاية والصون التى ارتكزت على المراتع الوطنية، ولكن - كما أقول - دعنا نفترض أن هذا الوضع غير ممكن، وفى الواقع فأنا أعتقد أنه يتعين علينا أن نتعلم فى القرن الحادى والعشرين أن نشاهد مساحات شاسعة من العالم كما هى عليه أى مكونة من بيئات شبه اصطناعية، وعلى سبيل المثال، فإننا نكتشف أن الضواحي السكنية - أى تلك الجماعات المكونة من منازل تسكن كل منها أسرة واحدة وتحيط بها حدائق وهى شاسعة كثيراً فى بريطانيا وأمريكا الشمالية - تعد بيئة مناسبة للحيوانات البرية، وربما تعتبر أفضل بيئة ممكنة للطيور، وهناك طيور فى ضواحي المدينة البريطانية أكثر مما يوجد فى المناطق الزراعية حيث قضت عليها المخصبات الزراعية، وينبغى علينا أن نتيقن من أن تغيير وجه البسيطة لا يفضى بالضرورة إلى كارثة كاملة، إذ يمكن للبيئة أن تتغير بطرائق جانبية وليس فقط من خلال تحولات رأسمالية عنيفة صارمة من الحسن إلى السىء.

وثمة جانب من هذه الإمكانيات التي نمنع النظر فيها شديد الوضوح فى بريطانيا العظمى. فما يحدث عندما تنتهى الصناعات وتزول ؟ وقد تبدى هنا ثانية الاتجاه إلى بناء متاحف تسمى : الأركيولوجيا الصناعية، وهو ما أكثر إثارة للاهتمام تلك المحاولات التى تبذل لترميم أو تجديد البيئات التى غيرتها فترة التصنيع الأولى، وأعتقد أنه يصبح ممكناً أكثر فأكثر رد الاعتبار أو تأهيل مساحات شاسعة من العالم تبدو حالياً مدمرة تماماً من جراء الصناعة، وجرب مثلاً الذهاب إلى جنوب ويلز، وهى منطقة كانت تتركز فيها مناجم كثيرة، ومنذ حوالى ثلاثين أو أربعين سنة خلت لم تكن تنمو فيها شجرة واحدة نتيجة للتلوث، ولكن إذا زرت وادى Swansea حالياً فلن تتعرف على تلك المنطقة ويصعب عليك أن تصدق أنه وجدت بها من قبل صناعة كانت تضم مئات الآلاف من عمال المناجم عاشوا فى ظل ظروف غير صحية، وغدت اليوم ذات مناظر ريفية.

وهكذا ثمة إمكانية لتدبير شئون البيئة، والمشكلة هى كيف يتم ذلك. وأعود هنا إلى أحد الأسئلة الكبرى المطروحة على القرن الحادى والعشرين : من سيفعل ذلك ؟ وما هى السلطة التى ستقوم بالتخطيط والتنفيذ ؟ وسلطات كهذه موجودة على الصعيدين المحلى والقومى لكنها غير موجودة على الصعيد الكونى، وأعظم الأخطار البيئية الآن تقع على صعيد كونى، ومن المؤكد أن النتائج أن تكون عظيمة إذا تركنا السوق تقرر - والبحر المتوسط مثال جيد فى هذا الصدد - وهناك حالتان نقيضتان توضحان كيف يمكن تدمير البيئة البحرية وكيف يمكن إنقاذها، فالتطورات الاقتصادية غير المتحكم فيها عدة أميال من الساحل الإسباني بينما نجد أن تطور الصناعة السياحية على الساحل دلماسيا (جنوب غرب كرواتيا حالياً على بحر الأدرياتيک) جرى تخطيطها بعناية فى ظل حكم تيتو، بحيث غدت منطقة رائعة الجمال وقدرتها على جذب أحجام ضخمة من النشاط يمكن أن تستمر وتتواصل وبون أن تترتب على ذلك أية كوارث، وإذا تطلعت إلى جانبى بحر الأدرياتيک، ريميني Rimini من جهة (التي تقع على الساحل الإيطالى) ودلماسيا على الجهة الأخرى فسوف تعتقد أنك تتطلع إلى عالمين مختلفين، فكيف تضمن التجانس على نطاق عالمى ؟ ذلك هو السؤال.

- ألا يعد فى رأيك انخفاض المواليد فى أوروبا دلاله أيضاً على انعدام الثقة فى المستقبل على نحو مأسوى وإيثار بالغ للنفس أو أنانية مفرطة ؟ وهل هناك أخطار تعرض بلدان مثل إيطاليا إلى الاختفاء التدريجى للإيطاليين ؟

- لا أعتقد أن عدم إنجاب الأوروبيين لمزيد من الأطفال مرجعه عدم وجود مستقبل لهم، وأعتقد بالأحرى أن المرأة كانت تنجب كثرة من الأطفال فى الماضى؛ لأنها لم تكن تتصور أن تعيش بطريقة أخرى فتلك كانت إدارة اللورد، وإذا كان معدل المواليد يدل على أى شىء فهو يدل على ارتفاع مستوى التعليم وحتى ارتفاع مستوى التخطيط المالى، وهناك مرحلتان فى الحياة عندما يقع الأفراد تحت وطأة ضغوط مالية شديدة : الأولى عندما يكون لديهم أطفال صغار السن والثانية حالما يصبحون من المسنين ولا تتوفر لديهم المدخرات التى تجعلهم مستقلين، ومن الجلى أن عدم إنجاب أطفال يعتبر ميزة اقتصادية كبرى، وكان الأطفال فى الماضى يمثلون دعماً لميزانية الأسرة عندما يشروعون فى العمل كفلاحين أو عمال، فى سن صغيرة للغاية فى كثير من الأحيان، أما اليوم فإن الأطفال لن يكسبوا رزقهم قبل بلوغ سن العشرين أو حتى الثلاثين، وكلما امتدت فترة تعليمهم وكلما ازداد تأهيلهم المهنى كلما تحملت الأسرة العبء لفترة أطول، ولذلك فإن تحديد النسل يجعل من الممكن بادية ذى بدء اتخاذ قرار مالى.

وقد اضطلع النظام القانونى الذى نظم الملكية والميراث فى القرن التاسع عشر بدور مهم فى المجال الديموغرافى، وقد تبطأ معدل المواليد فى فرنسا؛ لأن قانون نابليون استلزم تقسيم الأراضى بين الأبناء بينما تكاثر أبناء الطبقة الارستقراطية الإنجليزية، لأن الابن البكر - فقط - هو الذى يكرول إليه الميراث وبذلك ظلت الملكية على حالتها الأصلية سليمة فى الحجم والقيمة، وكما ترى فإن العوامل الاقتصادية يمكن أن تكون ذات أهمية بالغة، لكن الأمر الأكثر أهمية أيضاً فى الوقت الحالى هو وعى المرأة وإدراكها بأنها يمكن لها اختيار أساليب حياة بديلة؛ لأنه لم يعد يوجد النموذج الوحيد للأمومة، وتلك خطوة كبرى إلى الأمام بكل وضوح، لكنها أيضاً خطوة نحو المجهول.

- وماذا عن متوسط العمر المتوقع فى القرن الجديد؟ إذ من المتوقع أن تعيش المرأة الإيطالية حتى تبلغ سن الثمانين بينما لا يمكن للرجل الأوغندى أن يتطلع للعيش أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، ألا يعد هذا بمثابة ظلم فادح فى عالم المستقبل ؟

- من رأى أن الفارق فى متوسط العمر المتوقع بين البلدان الغنية والفقيرة سيكون من الأسر تخفيضه وعلى نحو متناقض من ذلك الفارق الموجود داخل المجتمع نفسه بين فئاته العليا وفئاته الدنيا، وإذا أخذنا - كمثال - بلداً فقيراً شهد توسعاً اقتصادياً ضخماً للغاية مثل كوريا الجنوبية - وهو أروع مثال يرد سريعاً على خاطرى - فقد تضاعف الفارق فى العمر المتوقع بين كوريا والسويد بشكل مذهل بالمقارنة مع ما كان عليه منذ ثلاثين عاماً مضت.

وما لا يزال واضحاً للعيان تماماً فى البلدان الثرية هو أن أولئك الذين يستهلون حياتهم - وهم يتمتعون ببعض المزايا - يمكنهم أن يتوقعوا مضاعفتها مرات عديدة إبان حياتهم، وقد أثبتت بحوث عديدة أن الفقراء لا يمرون طويلاً كالأغنياء ولا يتمتعون الصحة الجيدة نفسها، ولا أشك فى أن الأثرياء لديهم مشاكلهم، لكن الميزة النسبية التى يتمتعون بها فيما يتصل بمتوسط العمر المتوقع - مثلاً - تتجاوز أى شك.

وتبرهن مأساة الاتحاد السوفيتى السابق على هذا تماماً للغاية، فقد حدث انخفاض مذهل فى متوسط العمر المتوقع للسكان؛ لأن عملية الإفقار تضعف بشدة الدعامة التى يمكن للإنسان أن يشد عليها مستقبلاً.

خاتمة

آمال المستقبل

- لقد كان القرن العشرين هو قرن "عامة الناس" فمن يمثلهم حالياً ؟

- فى مستهل القرن العشرين كان الفلاح هو الإنسان النموذجى الذى ينعم بخيرات الأرض لكن فى نهاية القرن تغير الوضع ولم يعد كما كان، كما نستطيع اختيار العامل عضو الطبقة العاملة التى نمت نمواً ضخماً إبان القرن، وربما بلغت الذروة فى الربع الثالث من القرن العشرين لكن حجمها ونفوذها ينكمشان بسرعة حالياً، وماذا عن موظف المكتب ذلك الشخص الجالس على مكتبه وأمامه الكمبيوتر ولا يمكنه أن يفعل أى شىء آخر ؟ قد يكون هذا الموظف مناسباً لأوروبا الغربية أو الولايات المتحدة، لكن مازالت هناك مناطق شاسعة فى العالم قد لا تعنى هذه الصورة الكثير بالنسبة لها.

وإذا كنت تصر على البحث عن رمز للقرن العشرين فإننى أقترح صورة أم ومعها أطفالها ولعل أقصى ما هو مشترك بين البشر يتمثل فى الأمهات، أينما عشن على ظهر البسيطة وبرغم اختلاف الثقافات والحضارات واللغات فيما بينهن، وتنعكس تجربة الأم - من بعض النواحي - ماذا حدث لقطاع كبير من البشرية فى القرن العشرين، وما لم يعد نموذجياً فى الحقبة التى نعيشها هو البنية الأسرية التقليدية التى تتطور من حول الأم، وبطبيعة الحال لم يوجد نمط أو نموذج واحد، لكن وجدت فى جميع الأرجاء تقريباً بنية أسرية ما، وهو ما لم يعد حقيقياً اليوم.

لكنه بالرغم من حقيقة أن تنوع البشرية والسرعة التي تغيرت بها إبان القرن العشرين يجعلان من الصعوبة البالغة اختيار رمز يشير إلى "عامّة الناس"، وإذا ما تعين أن يوجد مثل هذا الرمز فإنني أختار رمز الأم ومعها أطفالها.

- لقد استحوذ عليك أحد كبار الشياطين في القرن العشرين : الولع بالسياسة، فقد كنت شيوعياً نشطاً منذ زمن بعيد أى منذ عام ١٩٣٦ ، وطوال أحداث الحرب والفترة التي أعقبتها حتى عام ١٩٥٦ ، وبعد ذلك لم يتغير توجهك السياسى، لكنك غدوت منفصلاً على نحو متزايد، فهل شعرت بالأسف فى أى لحظة للنشاط الذى انغمست فيه ؟ وهل فكرت فى أى وقت من الأوقات أن ذلك الوضع أعاق أو عرقل حريتك الفكرية ؟

- أعتقد أنه لم يقيد حريتي الفكرية البتة، بيد أنه على أن أسلم بأن أى ارتباط حقيقى قوى، دينى أو سياسى يجنح إلى أن يفرض - لا أود أن أقول التزامات - لكن تفضيلاً أو تحيزاً مناصراً لكى تحرز القضية التى تؤمن بها تقدماً، وتترك هذا عندما تحجم عن انتقادها، وعندما تحجم عن تطبيق الفكر النقدى نفسه عليها كما تستخدمه فى الحكم على القضايا الأخرى، والدارس الكاثوليكي أقل حماسة - بحكم تحيزه - فى تجريه عن محاكم التفتيش من الملحد أو البروتستانتى، وبالمثل فإنه من الواضح أن الدارسين النافدين للشيوعية كانوا أقل تردداً فى دراسة ظاهرة مثل الجولاج (gulags)^(١) بينما يفضل المؤرخ الشيوعى بكل تأكيد تفادى التعرض لها، ولذلك على أن أعترف أنه بينما كان فى عزمى ألا أكتب أو أقول شيئاً على الإطلاق عن الاتحاد السوفيتى قد يشعرنى بالذنب، فقد نزعته إلى تفادى تناوله مباشرة، لعلمى أنى إذا فعلت ذلك فقد كان يتعين على أن أكتب أشياء كان من الصعب على الشيوعى أن يقولها دون أن يؤثر ذلك على نشاطه السياسى ومشاعره رفاقه.

(١) نظام معسكرات العمل الذى ظل قائماً فى الاتحاد السوفيتى من ١٩٣٠ إلى ١٩٥٥، وأدى إلى وفاة أعداد غفيرة، وتعنى هذه الكلمة بالروسية "الإدارة المركزية لمعسكرات العمل الإصلاحى" (م).

ولهذا السبب - أيضاً - اخترت أن أصبح مؤرخ القرن التاسع عشر بدلاً من مؤرخ القرن العشرين، وفي وسعى أن أدرك أن ما صدر عن الحزب الشيوعى السوفيتى خاصاً بالتاريخ المعاصر لم يكن مقبولاً، وهكذا لم أرد أن أشارك فى مناقشات إما أن تحملنى إلى الجانب الآخر أو تدخلنى فى صراع مع ضميرى كدارس أكاديمى.

وبعد عام ١٩٥٦ تحول نشاطى العلمى إلى شىء مختلف وأكثر انفصالاً، فقد اتضح لى منذ ذلك الوقت أن الحلم ولى الأديار، وقد اعتاد السكرتير العام للحزب الشيوعى فى بريطانيا العظمى - الذى ظللت عضواً فيه حتى وقت حله تقريباً - أن يقول فى الأوقات العصيبة إنه كان يمكنه أن يعالج الموقف وينهى الوضع عبر خط هاتفى مباشر مع موسكو، وقد أعتبر الحزب جيشاً من الرسل، بينما أدرك العاملون فى مجال المهن الفكرية والثقافية أن يتعين علينا أن نحاول التفكير انطلاقاً من أوضاعنا الخاصة بنا.

وفى عام ١٩٥٦ أبلغت قادة الحزب أنني عاقد النية تماماً على الحفاظ على صداقتى مع أولئك الذين تم طردهم من الحزب، وعلى الأخص مع تومبسون E.P. Thomson وغيره من المنشقين الذين أعاطف معهم، وإذا لم يكن ذلك متوافقاً معهم ففى وسعهم إقصائى أو طردى. غير أنني لم أرد ترك الحزب فى ذلك الوقت؛ لأننى لم أرغب فى أن أنهى حياتى فى صحبة كل أولئك الشيوعيين السابقين الذين أصبحوا معادين للشيوعيين.

ولماذا بقيت فى الحزب كل تلك السنوات بعد أزمة ١٩٥٦ ؟ لقد كان فى اعتقادى نوعاً من الولاء لقضية كبرى، ولكل أولئك الذين ضحوا بحياتهم من أجلها فعندما غدت شيوعياً فى عام ١٩٣٢ كان ذلك هو ما كنا جميعاً على استعداد للقيام به، وأستطيع أن أتذكر جميع الأصدقاء والرفاق الذين ماتوا فى سبيل هذه القضية والذين عانوا مرارة السجن والتعذيب من قبل النظم الشيوعية وكذلك النظم الرأسمالية، ولا ينبغي لنا أن ننسى الرجال والنساء الذين تخلوا عن فرصة الحصول على مهنة ناجحة؛ لكى يعملوا بساعات طويلة على نحو مدهش ولا يصدق فى ظل فقر نسبى كمسؤولين فى الحزب ويحصلون على أجر ضئيل مثل الأجر الذى يحصل عليه أى عامل، ولم أضطر

أبداً إلى القيام بمثل هذه التضحيات، وإن أقل ما كنت أستطيع أن أفعله هو أن أبدي بعض التضامن عن طريق رفض المزايا المادية وتلك المرتبطة بالمستقبل المهني والتي يمكن للمرء أن يجنيها من وراء ترك الحزب الشيوعي.

وفضلاً عن هذا فإن الشيوعية لم تكن متمثلة في روسيا بل هي قضية كونية شاملة، وفي بداية خبراتي السياسية عندما أصبحت عضواً في الحزب أثناء دراستي في برلين جرت مناقشة بيني وبين الرفيق الذي كان مسئولاً عن تجنيدى، وقد أثرت ارتباطه واضطرابه لأننى قلت له : 'حسناً، نحن نعلم أن روسيا بلد متخلف، ولذا فنحن نتوقع أن تلاقى الشيوعية في روسيا 'الهزائم'. ولم يكن هو - بوضوح - من أنصار هذا الرأي، بينما لم أتوقف أنا أبداً عن الاعتقاد به، ولم أوافق إطلاقاً على تلك الأشياء المرعبة التى حدثت فى ظل هذا النظام، وذلك على غرار كثير من الشيوعيين الآخرين، غير أنك إذا فكرت فى أن الشيوعية هى أعظم وأكبر من التاريخ البلدان المتخلفة التى حدث أن تسنم فيها الشيوعيون السلطة، فعندئذ لن يكون هذا التاريخ علة كافية أو سبباً يبرر هجر القضية المختارة ونبذها.

هل أنا أسف على ذلك ؟ لا أعتقد وأن كنت أدرك جيداً إن القضية التى أعتقها وأمنت بها قد ثبت أنها لم تجد طريقها إلى التنفيذ، وربما كان ينبغي ألا أختارها، ولكن - من الناحية الأخرى - إذا لم يؤمن الناس بمثل أعلى لعالم أفضل فعندئذ يخسرون شيئاً ما، وإذا كان المثل الأعلى الوحيد الذى يؤمن به الرجال والنساء يتمثل فى الجرى وراء السعادة الشخصية، من خلال نيل المزايا والممتلكات المادية فآنذاك تصبح الإنسانية جنساً أو نوعاً منتقصاً.

لقد استوقفت نظرى شخصية أندرو كارنيجى المليونير الأمريكى الوحيد الذى كان ملحداً وراдикаلياً سياسياً، وقد قال ذات مرة 'إن صاحب المليون الذى توافيه المنية وهو صاحب ملايين فقد أضاع حياته سدى' ويعنى هذا وجود شئ آخر له معناه ومغزاه بالإضافة إلى كون المرء ثرياً وشهيراً، وقد تكون هذه الرغبة أو لا تكون متصلة فى الطبيعة البشرية أو ملازمة لها، غير أنها كانت على وجه اليقين ظاهرة تاريخية منذ

القرن الثامن عشر فصاعداً، حالما بدأت الإنسانية تدرك أن ثمة إمكانية لتحسين العالم وانعاقه.

ولا تتمثل المشكلة في الرغبة في عالم أفضل، بل في الاعتقاد بيوتوبيا عالم كامل، والمفكرون الليبراليون محقون عندما يوضحون أن أسوأ الأمور المتعلقة لا بالشيوعية فحسب، وإنما جميع القضايا الكبرى هو أنها عظيمة لدرجة أنها تبرر جميع التضحيات التي تتم باسمها، سواء فرضها المرء على نفسه أو فرضت على الآخرين. وهذه الحجة الليبرالية صحيحة عندما تزعم أن أولئك الذين لديهم تطلعات معتدلة إلى العالم هم - فقط - الذين في وسعهم تفادي إنزال الأضرار الرهيبة ومعاناتها، وليس في مقدوري أن أتحاسنى الشعور بأن الإنسانية لا يمكنها أن تعمل وتسير بدون كبار الآمال والعواطف المشبوبة، حتى عندما تنهزم وتنكسر هذه التجارب، ويغدو واضحاً أن الفعل الإنسانى لا يستطيع إزالة البؤس الإنسانى، وقد كان الثوريون العظام يدركون حقيقة أن بعض جوانب الحياة الإنسانية تتجاوز جهودهم، مثل عدم السعادة فى الحب، لكن عندما يبلغ المرء السادسة عشر من عمره فإنه يعتقد فى هذا ويؤمن به أيضاً.

وإذا نظرت إلى القضايا الكبرى التي اشترك فيها ممن كانوا فى مثل سنى مثل الحرب لمناهضة النازية، فإنه يستحيل القول إن الثمن الذي دفع يتجاوز النتيجة التي تحققت، فهل كان يمكن، للعالم أن يكون أفضل ما لم نقاوم ؟ لا أعتقد أنه يوجد شخص واحد اشترك فى تلك المعركة على استعداد اليوم، لكى يقول إنها لم تكن جديرة بذلك، وحتى مع تصور الأحداث بعد وقوعها أى مع إدراكنا المتأخر، فإنه يستحيل ألا نعترف ونقر بأننا فعلنا قدراً كبيراً من الشر، ولكن فعلنا أيضاً قدراً كبيراً من الخير.

والمشكلة ليست مشكلة التزام سياسى، بل بالأحرى طبيعة هذا الالتزام، فهل هو موجه صوب قضايا التنوير الكبرى : العقل، والتقدم، وتحسين أوضاع الإنسان ؟ أو هو موجه نحو قضايا أخرى يمكن أن تستمد قوتها من مجرد طبيعتها العاطفية والشعورية على غرار النزعة القومية والعنصرية، وهذان النوعان من القضايا مختلفان وليس من النوع نفسه، وأعتقد أن الشيوعية تشكل جزءاً من موروث الحضارة الحديثة التي ترجع

جنورها إلى عصر التنوير وإلى الثورتين الأمريكية والفرنسية، ولست نادماً على ذلك، وعلى أية حال، فإن أولئك النشطاء الذين وجبوا في بلدان مثل إيطاليا أو بريطانيا العظمى لا يمكن اعتبارهم مسئولين عما حدث في بلدان أخرى، ولا في روسيا على وجه اليقين، وأقصى ما يمكنني أن أقوله عنا هو أننا عرفنا في بعض الأحوال أو خمناً بالبداية أشياء احتفظنا بها لأنفسنا، غير أنه كل ما كان في وسعنا أن نقوله لم يكن من الممكن أن يؤثر في الاتحاد السوفيتي.

– هل يراودك نوع من الحنين إلى القرن الذي شارف على نهايته ؟ وهل تناصر ما قاله إ. برلين Isalah Berlin^(١) "التفت إلى الوراء متطلعاً إلى القرن العشرين بوصفه أكثر القرون فظاعة في التاريخ العربي" ولكن هل يمكن استخلاص أو استرداد شيء منه ؟

– ما قاله أ. بيرلين حقيقة ولكنه ليس الحقيقة الكاملة، فقد كان قرناً حارقاً للعادة من أي وجهة نظر كانت وليس لمجرد كوارثه، والحق أن العالم في نهاية هذا القرن أفضل مما كان في مطلع مع استثناءات طفيفة، وليس من الصواب إذن أن نطرح جانباً القرن العشرين بأسره، فأتفأل هذا القرن عاشوا في ظروف أفضل مادياً وروحياً مما عاشوا آباؤهم وأجدادهم.

والمشكلة هي ماذا سوف يشبه المستقبل ؟ ذلك هو مثار قلقي، ومن المؤكد أن الإنسانية – من الناحية التكنولوجية – سوف تواصل الاحتفاء بالانتصارات التي سوف تحققها العبقورية البشرية، كما سوف تكون في حال أفضل من الناحية الاقتصادية، وربما سوف تقدر على التكيف مع البيئة الجديدة وتتعلم استخدام القوى الهائلة الموضوعة تحت تصرفها دون أن تعمل على تدمير ذاتها وظروف الحياة كما نعرفها، وما إذا كانت ستفعل ذلك فعلاً وحققاً سوف يتوقف على اتخاذ قرارات سياسية شاملة وكونية وتلك مسألة أخرى.

(١) فيلسوف بريطاني (١٩٠٩ – ١٩٩٧) ولد في لاتفيا اهتم بتاريخ الأفكار، ومن أشهر أعماله "كارل ماركس" (١٩٢٩) و "أربع مقالات عن الحرية" (١٩٥٩) و "فيكو وهربر" (١٩٧٦). (م).

وقد تعرضنا فيما سبق لافتقار وجود سلطات قادرة على اتخاذ قرارات كهذه، ولهذا لست واثقاً من إمكانيات حدوث ذلك، إلا أنه لا مثيل للخوف الذى يتضخم إلى درجة الذعر والهلع بفعل عملية الانتشار الذاتى للرعب، الذى تبثه وسائل الإعلام، فهو وحده - أى ذلك الخوف - الذى يعجل باتخاذ إجراءات، ولا سيما فى الولايات المتحدة التى تتمتع بحق النقض (الفيتو) فى هذه المسائل. وإذا ما أسفر ارتفاع درجة الحرارة على النطاق الكونى وتساعد منحنى الأعاصير والفيضانات عن مركب مرعب من الكوارث المناخية، فإن هذا الوضع يمكنه - ويمكنه فقط - أن يفى ذات يوم بالغرض الذى نحن بصدد الحديث عنه.

وما هو أكثر إزعاجاً - وليس لأسباب أخلاقية فقط - ذلك الاتساع المثير للمشاعر فى ضروب التفاوت الاجتماعى والاقتصادى سواء داخل الدول أو فيما بين المناطق والبلدان الثرية على أساس أنه لا يهتم اتساع الفجوة بين الأغنياء "على نحو جاد" وبقية الناس، ما دام الفقراء (أى أولئك الذين يحصلون على أقل من نصف متوسط الدخل القومى) فى حال أفضل من الناحية المادية، وإن أدنى الفئات الاجتماعية لا تمثل على أى حال سوى أقلية ضئيلة من السكان، ولا أعتقد أننا نستطيع أو ينبغى لنا أن نتغاضى عن ذلك، فهل فى وسعنا أن نكون راضين - فعلاً - عن وضع موجود فى الولايات المتحدة ازدادت فيه نسبة أجر كبار المسؤولين التنفيذيين فى الشركات إلى أجر عمال المصانع بعشرة أضعاف فى أقل من عشرين عاماً، وبلغت فى عام ١٩٩٨ رقماً غير عادى عبارة عن ١٠٤١٩ وفقاً لما ذكرته صحيفة *International herald tribune* فى ٦ سبتمبر ١٩٩٩. وهل قد ترتضى بالفعل وضعا آخر يحصل فيه أفقر ٢٠٪، بعد عقدين من الثراء القومى المذهل، على دخل أقل نسبة ١٠٪ (بعد احتساب التضخم) مما كان فى عام ١٩٧٧ ؟

ومع ذلك - ومهما يكن من أمر - فإننا لا نستطيع أن نفض الطرف عن الزيادة غير العادية فى الفجوة العالمية بين الأغنياء والفقراء فى حقبة أصولية السوق الحرة، وبإجراء تقدير واحد، فإن الفئة العليا من سكان العالم البالغة نسبتها ٢٠٪ تتمتع بدخل يزيد ١٥٠ مرة عن دخل الفئة الدنيا من السكان البالغة نسبتها ٢٠٪ كما جاء فى الصحيفة المذكورة أعلاه بتاريخ ٢٠ فبراير، وتواصل الفجوة الاتساع.

ومن الجلى أن بليون شخص يعيشون فى فقر مدقع إلى جانب بليون شخص يعيشون فى فخامة مطردة، وذلك فى كوكب يزداد صغراً وتكاملاً على الدوام ولا يعد ذلك سيناريو يمكن استدامته وتحمله.

ولا يمكن أن يدوم أو يحتمل حتى ولو تحسن قليلاً الوضع الأساسى للبليون الذين يعيشون فى القاع، خاصة فى حقبة تتسم بتغير متسارع ووضع عالمى غير مستقر بشكل لافت للنظر ولا يمكن التكهن به، والحق أن هذا قد يعنى أنه من الأفضل لفقراء العالم أن ينظروا فى وضعهم وأن يشرعوا فى العمل بدلاً من تبديد وقتهم وقوتهم فى السعى وراء سد الرقم فى اليوم التالى.

وعلاوة على ذلك، فإن استقطاب الثروة يضغط بشدة وقسوة على الطبقة الوسطى من السكان التى اعتمد الوضع الراهن السياسى والاجتماعى فى البلدان الرأسمالية وبصفة دائمة على رضائها القنوع ولا سيما عندما تتعرض لزلزل اقتصادية التى تفرزها السوق الحرة العالمية غير المتحكم فيها، ومنذ أن سجل مقياس ريختر الاقتصادى فى تسعينيات القرن العشرين هزات متواضعة فقط فى أمريكا الشمالية والاتحاد الأوروبى، فإننا نميل إلى الحط من شأن التأثير المحتمل لمثل تلك التقلبات، وماذا عن انخفاض السوق الأمريكية أو الأوروبية للسيارات التى انخفضت أخيراً بنسبة ٤٠٪ فى مدى عامين على غرار سوق السيارات البرازيلية منذ ١٩٩٧ ؟ (انظر frank furter allgemeine فى ١٩٩٩/٩/٢٠) وقبل الركود الذى شهدته سنوات ١٩٩٧ - ١٩٩٩ فإن ٦٪ من قراء إحدى الصحف فى كوريا الجنوبية اعتبروا أنفسهم ينتمون إلى "الطبقة العليا" و ٧٠٥ ينتمون إلى "الطبقة الوسطى" و ٢٤٪ ينتمون على "فئة نوى الدخل الأدنى"، وفى يونيو ١٩٩٩ فإن الأرقام المقبلة أصبحت : ١٪ و ٤٦٪ و ٥٣٪ ، وقد قال آنذاك حوالى نصف من تم استجوابهم فى هذا الاستفتاء إن دخلهم انخفض بقراءة التلث منذ بداية الركود.

وتتمثل خطورة هذا الاستقطاب المتنامى، فى ظل عالم يجرى اندماجه أو تكامله بطريقة واحدة عن طريق العولمة، فى أن العالم يزداد انقسامه بطريقة أو أخرى إلى غالبية من الدول فى وضع أدنى بصفة دائمة وأقلية من الدول تتمتع بامتيازات وترضى

عن نفسها، وتحظى هذه الأقلية بتفوق يتعزز ذاتياً فى مجال الثروة والتكنولوجيا والقوة (بما فى ذلك القوة العسكرية) وذلك التفوق والرضا الذاتى من المرجح للغاية أن يثير الشعور بالاستياء والامتناعاض على نحو ما أثاره فى الأيام الخوالى فى زمن تفوق الإمبراطوريات، وربما ازداد هذا الاحتمال حالياً لأنه يمكن للمعلومات التى غدت متاحة أكثر من أى وقت مضى أن تجعل من الأيسر تبين أوجه التفاوت والتناقض، وحتى اليوم فإن هذين الفريقين من البشرية ليس فى وسعها التفاهم أو تبادل الاتصالات فيما بينهما.

وبإبان الحرب التى شنها الناتو على صربيا فإن أحد الصحفيين الإيطاليين - الذى أجرى مقابلة معى - هاله أن أدلى بالبيهيات عندما قلت : إن مناقشة مشروعية هذا الحرب، برغم أنها ملحة ومبررة لا تعد.

"مناقشة عالمية وإنما هى تتعلق بالمركزية الأوروبية قديمة الطراز أو بالأحرى قضية شمال الأطلسنى... وبالنسبة للخطر الأعظم من العالم، بما فى ذلك المثقفون فإن هذه القضية لا شأن لها بالموضوع الأساسى، الذى يعتبره معظمهم بمثابة عملية إمبراطورية للغرب فى البلقان... ولا تعنيهم مسألة ما إذا كانت حرباً عادلة أو كيف يمكن تبريرها... ولا تندرج هذه المسألة فى اهتمام المثقفين فى الصين أو الهند أو أمريكا اللاتينية، لعدم اعتقادهم - ببساطة - أنها تمثل حرباً من نوع جديد".

وعلى المنوال نفسه تقريباً فإن المراقبين فى العالم الثالث وجدوا أنه يكاد يكون من غير المتصور عقلياً ألا يعد ضرب السفارة الصينية فى بلغراد بالقنابل تأكيداً للهيمنة العالمية، وأنه مجرد مثال - وإن كان والحق يقال مثلاً صارخاً - على عدم الكفاءة العسكرية - البيروقراطية.

ومن الناحية الجوهرية فإن هذين العالمين لا يتحدثان اللغة نفسها، لأنهما عندما يلتقيان فإن ما يستطيع أن يراه العالم الفقير فى العالم الغنى هو تفوقه الكاسح، وربما المطلق : وتأكيد له لصالحه الخاص - الثراء والتكنولوجيا والقوة. ولا يساورنى كثيراً من الشك فى أن تلك هى الطريقة التى يبدو بها تدخل الأمم المتحدة فى تيمور الشرقية

فى نظر معظم السكان - جنوب وجنوب شرق أسيا - الذين اهتموا به حتى ولو كانت حجتها - على خلاف ما حدث فى كوسوفا- تبدو مقنعة باستخدام المعايير المقبولة فى المنطقة.

وبالعكس فإننا نواجه باطراد بالمنظرين الإيديولوجيين الغربيين - وهنا يرد على خاطر المستر فوكوياما، الدكتور بانجلوس Pangloss^(١) لعام ١٩٩٠ - الذين يرون أن تفوق العالم الغنى يعبر ببساطة عن اكتشافه لأفضل الخطط الممكنة كافة من أجل ترتيب الشئون الإنسانية، كما أثبت ذلك انتصاره التاريخى، ويقول أبسط فإن هؤلاء المنظرون الإيديولوجيون على اقتناع بأن الغربيين يعرفون أفضل من غيرهم - وهو أمر بعيد عن أن يكون بديهياً - وكما يبين السجل التراجمى للمستشارين الاقتصاديين الغربيين فى روسيا ما بعد السوفيتية، فإنه قد يشق على الأكاديميين الأذكاء وحسنى البنية حتى أن يدركوا ماذا يحدث فى بيئات مختلفة عن بيئتهم، والتى شكلتها تلك الأحداث التاريخية والثقافات المختلفة.

والحق أنه فى عالم ملئ بكل هذه التفاوتات فإن تعيش فى مناطق متميزة يجعلك فعلياً فى عزلة عن الخبرات والتجارب - بصرف النظر عن ربود الأفعال - التى يعيشها الناس الذين يوجدون خارج هذه المناطق، ويقتضى الأمر بذل جهد تخيلى ضخمة وتوفير قدر هائل من المعلومات والمعارف للتخلص من معازلنا المريحة والمحمية والمنهكة فى شئوننا الذاتية، والولوج إلى العالم الأوسع غير المريح وغير المحمى الذى تقطنه غالبية الجنس البشرى، ونحن معزولين عن هذا العالم حتى ولو كان المجموع الكلى للمعلومات المكسدة سهل المنال فى كل مكان بمجرد الضغط على الزر أو استعمال "ماوس" الكمبيوتر، حتى ولو وصلتنا الصور من أقصى بقاع المعمورة فى جميع الأوقات، - ليلاً ونهاراً - ولو أكثرنا من السفر وتجولنا فى الحضارات المختلفة بأكثر من ذى قبل.

ذلك هو التناقض الظاهرى للقرن الحادى والعشرين المعولم.

(١) نصيات كانديدر "أو التفاؤل لفولتير (١٧٥٩) التى ترمز إلى التفاؤل الشديد برغم أى شئ آخر (م).

بيد أن هناك جانباً، آخر للمستقبل لا أستطيع أن أتوقع إبعاده بأي قدر من الوضوح ويتعلق بالعلاقات السياسية والثقافية.

لقد دمرت الديناميكية غير العادية للاقتصاد الذي نعيش فيه الكثير من الحلول والهيكل، التي كانت متوفرة لنا في الماضي، مما يلقي بعدد متزايد من الرجال والنساء في وضع لا يمكنهم من الاحتكام إلى معايير واضحة والتطلع إلى آفاق مختلفة والتمسك بقيم مشتركة، وهو وضع لا يعرفون فيه ماذا يفعلون بوجودهم الفردي والجماعي.

ويصدق ذلك على مؤسسات مثل الأسرة وكذلك على مؤسسات السياسية التي هي ركائز الحضارة وعمدها والتي يسميه مهير ماس Habermas "المجال العام". فالسياسة والأحزاب والصحف والمنظمات والهيئات التمثيلية (النيابية) والدول : لا يعمل أى منها بالطريقة التي كانت متبعة من قبل، والتي افترضنا أنها يمكن أن تواصل العمل لزمن طويل قادم، فمستقبلها مبهم؛ ولهذا السبب فإننى لا أستطيع مع مستدار قرن ومطلع قرن جديد أن أتطلع إلى المستقبل بتفاؤل كبير.

المؤلف فى سطور

إريك هوبسبوم

وُلِدَ فى الإسكندرية عام ١٩١٧ ، ويُعد من أشهر المؤرخين الأوروبيين المعاصرين تخصصاً فى تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر ، له إسهاماته المهمة فى التاريخ العمالى البريطانى وفى دراسة التمردات الفلاحية وهبات المزارعين فى الفترة السابقة على العصر الصناعى ، وهو من الرواد الذين درسوا التاريخ فى حركته بين الجماهير وعامة الناس الصانعة لأحداث التاريخ .

وهو كاتب غزير الإنتاج ، خصب القريحة ، رفيع الثقافة ، تصفه المراجع العلمية بالصانع الماهر ، ولقد أكسبته ثلاثيته الشهيرة مكانة علمية جعلته يتربع على عرش التاريخ الأوروبى .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادمو بانيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	شوقي جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنكوف	أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتمد وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى
١١- مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هنا عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المهن
١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثنية السوداء (ج١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عثمان
١٧- مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى وبدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارنر	بكر عباس
٢٥- مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادمو بانيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الطوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ القصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حصه إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	پول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٢٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٢٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مفتي
٢٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين يارير	أحمد محمود
٤٣-	الذهب المزبوج	أوكافيو پاث	المهدي أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	مارلين تانوس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينيا وچون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بايلو نيرودا	محمود السيد علي
٤٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام في البلقان	هـ . ت . ثوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد براءة وعثمانى الميلود ويوسف الأتلكى
٥١-	مسار الرواية الإنسانية أمريكية	داريو بيانونيا و. م . بينياليستي	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسي التدميى	ب. تواليس و. س . دوجسليتز وديجريل	لطفي فطيم وعادل دمرdash
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحي
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	علي يوسف علي
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود علي مكي
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطي
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	الحبرة (مسرحية)	كارلوس مونيث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهري
٦٢-	لذة النص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان رود	رمسيس عوض
٦٥-	في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدي أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالتين راسبوتين	أشرف الصياغ
٦٩-	التعلم الإسلامى فى أول القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى ومويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أورخييو تشانج رودريجت	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكتز	حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمالِك فى مصر	ل . ا . سيمينوف	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسپنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الفمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (ج١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شبيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جينز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	السرحد والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونيك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	لسانيات مهابين للسرحد الإسباني المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بوينو بايخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زئبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إبوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان يرويل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روينسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساطة العولمة	بول هيرست وجراهام توميسون	إبراهيم فتحي
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليت	رشيد بنحو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكنانى الإدريسي
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آباء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتول بريشت	عبد الغفار مكارى
١٠٥-	مخفل إلى النص الجامع	جيرارچينيت	عبد العزيز شبل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييراامنى	أشرف على دعور
١٠٧-	مسرة اللذانى فى الشعر الأيريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعديى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هينسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٢ -	رأية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤ -	مسرحتنا حصان كونجى وسكان المستنق	رول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥ -	غرفة تخص المراء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦ -	امراة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا تلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧ -	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨ -	النهضة النسائية فى مصر	بث يارون	لميس النقاش
١١٩ -	النساء والاسرا والرائين اللانق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنديل	بإشراف: روف عباس
١٢٠ -	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١ -	الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢ -	نظام العبودية القديم والتمردج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣ -	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها النولية	أنيثل الكسندرو فنابولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤ -	الفجر الكائن: لوهام الرأسمالية العالمية	جون جرائى	أحمد فؤاد بليغ
١٢٥ -	التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦ -	فعل القراءة	فولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧ -	إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨ -	الأشب المقارن	سوزان ياسنيت	أميرة حسن نوييرة
١٢٩ -	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جارتو	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ -	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١ -	مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢ -	ثقافة العولة	مايك فينرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣ -	الخوف من المايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤ -	تشريع حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥ -	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦ -	فلاحو الباشا	كينيث كرون	سحر توفيق
١٣٧ -	مذكرات ضابط فى العملة الفرنسية على مصر	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨ -	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ -	پارسيغال (مسرحية)	ريتشارد فاجنر	مصطفى ماهر
١٤٠ -	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١ -	اشتتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢ -	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣ -	قضايا التفكير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمعى
١٤٤ -	صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولونوى	سلامة محمد سليمان
١٤٥ -	موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦ -	الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى لبيس	على عبدالرؤف البيمى
١٤٧ -	مسرحيتان	تانكريد بورست	عبدالغفار مكواى
١٤٨ -	القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكي أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩ -	النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠ -	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، ١ ج)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣- غرام الفراغة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأريدت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزیز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، ١ ج)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩- الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيرى	صلاح عبدالعزیز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوثير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات ألعاب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين التبتين والمانين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- في عالم طاغور	رايندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أنبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	ترم تيتبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصه إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩- حكايات آيسوب (قصص أطفال)	آيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- الله الأمير الأمريكى من التجليات إلى التجليات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوة (شعر)	و.ب. بيتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- جان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤- القاهرة: حالة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنورود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرض (رواية)	بزدج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر النيب

- ١٨٩- انعم والبصرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر پول دي مان سعيد القانسي
- ١٩٠- محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس محسن سيد فرجاني
- ١٩١- الكلام وأسمال وقصص أخرى الحاج أبو بكر إمام وآخرون مصطفى حجازي السيد
- ١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (ج١) زين العابدين المراغي محمود علاوي
- ١٩٣- عامل المنجم (رواية) بينر أبراهامز محمد عبد الواحد محمد
- ١٩٤- مختارات من النقد الانجليز-أمريكي الحديث مجموعة من النقاد ماهر شفيق فريد
- ١٩٥- شفاء ٨٤ (رواية) إسماعيل فصيح محمد علاء الدين منصور
- ١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية) فالتنن راسيوتين أشرف الصباغ
- ١٩٧- سيرة الفاروق شمس العلماء شبلي النعماني جلال السعيد الحفناوي
- ١٩٨- الاتصال الجماهيري إدوين إمري وآخرون إبراهيم سلامة إبراهيم
- ١٩٩- تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية يعقوب لاتداو جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد التلطيح حماد
- ٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل چيرمي سيبروك فخرى ليبب
- ٢٠١- الجانب الديني للفلسفة جوزايا رويس أحمد الأنصاري
- ٢٠٢- تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٤) رينيه ويليك مجاهد عيد المنعم مجاهد
- ٢٠٣- الشعر والشاعرية أطفاف حسين حالي جلال السعيد الحفناوي
- ٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم زلمان شازار أحمد هويدي
- ٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات لويجي لوكا كافاللي - سفورزا أحمد مستجير
- ٢٠٦- الهولوية تصنع علماء جديداً چيمس جلايك علي يوسف علي
- ٢٠٧- ليل أفريقي (رواية) رامون خوتاسنديز محمد أبو العطا
- ٢٠٨- شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي دان أوربان محمد أحمد صالح
- ٢٠٩- السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين أشرف الصباغ
- ٢١٠- مثنويات حكيم سناني (شعر) سناني الغزنوي يوسف عبد الفتاح فرج
- ٢١١- فريديناند بوسوسير جوناثان كلر محمود حمدي عبد الفنى
- ٢١٢- قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان مرزيان بن رستم بن شروين يوسف عبد الفتاح فرج
- ٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر ريمون فلاور سيد أحمد علي الناصري
- ٢١٤- قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع أنتوني جينينز محمد محيي الدين
- ٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢) زين العابدين المراغي محمود علاوي
- ٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين أشرف الصباغ
- ٢١٧- مسرحيتان طليعيتان صمويل بيكيت وهارولد بيتتر نادية البنهاوي
- ٢١٨- لعبة الحجلة (رواية) خاويل كورتانا علي إبراهيم منوفي
- ٢١٩- بقايا اليوم (رواية) كازو إيشجورو طلعت الشايب
- ٢٢٠- الهولوية في الكون باري پاركر علي يوسف علي
- ٢٢١- شعرية كفافى جريجورى جوزدانيس رفعت سلام
- ٢٢٢- فرانز كافكا رونالد جراي نسيم مجلى
- ٢٢٣- العلم في مجتمع حر باول فيرابند السيد محمد نقادى
- ٢٢٤- دمار يوغسلافيا برانكا ماجاس منى عبدالظاهر إبراهيم
- ٢٢٥- حكاية غريق (رواية) جابريل جارشيا ماركيت السيد عبدالظاهر السيد
- ٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى ديفيد هريت لورانس طاهر محمد علي البربري

- ٢٢٧- المسرح الإنساني في القرن السابع عشر خوسيه ماريا ديث بوركى
- ٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن چاڤيت رولف
- ٢٢٩- مازق البطل الوحيد نورمان كيجان
- ٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر فرانسواز چاكوب
- ٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية) خايمى سالوم بيدال
- ٢٣٢- ما بعد المعلومات توم ستونير
- ٢٣٣- فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربى آرثر هيرمان
- ٢٣٤- الإسلام في السودان ج. سينسر تريمجهام
- ٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (ج١) مولانا جلال الدين الرومى
- ٢٣٦- الولاية ميشيل شونكفيتش
- ٢٣٧- مصر أرض الوادى رويين فيدين
- ٢٣٨- العولة والتحرير تقرير لمنظمة الانكتاد
- ٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى جيلا راماز - رايوخ
- ٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار كاي حافظ
- ٢٤١- فى انتظار البرابرة (رواية) ج. م. كوتزى
- ٢٤٢- سبعة أنماط من القموض وليم إميسون
- ٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١) ليفى بروفنسال
- ٢٤٤- الغليان (رواية) لورا إسكيبيلى
- ٢٤٥- نساء مقاتلات إليزابيتا أنيس وآخرون
- ٢٤٦- مختارات قصصية جابرييل جارشيا ماركيث
- ٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحدائق فى مصر والتر أرمبوست
- ٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية) أنطونيو جالا
- ٢٤٩- لغة التمزق (شعر) دراجو شتامبوك
- ٢٥٠- علم اجتماع العلوم دومنيك فينك
- ٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (ج٢) جورديون مارشال
- ٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية مارجو بدران
- ٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية ل. أ. سيمينوفا
- ٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة ديف روينسون وجودى جروفز
- ٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون ديف روينسون وجودى جروفز
- ٢٥٦- أقدم لك: ديكرات ديف روينسون وكريس جارات
- ٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة وليم كلى رايت
- ٢٥٨- الفجر سير أنجوس فريز
- ٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور نخبة
- ٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (ج٢) جورديون مارشال
- ٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود زكى نجيب محمود
- ٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية) إيواريو منوئا
- ٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن چون جرين
- ٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة هوراس وشللى
- السيد عبدالظاهر عبدالله
- مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
- أمير إبراهيم العمرى
- مصطفى إبراهيم فهمى
- جمال عبدالرحمن
- مصطفى إبراهيم فهمى
- طلعت الشايب
- فؤاد محمد عكود
- إبراهيم الدسوقي شتا
- أحمد الطيب
- عنايات حسين طلعت
- ياسر محمد جادالله وعربى ميبولى أحمد
- نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
- صلاح محبوب إدريس
- ابتهسام عبدالله
- صبرى محمد حسن
- بإشراف: صلاح فضل
- نادية جمال الدين محمد
- توفيق على منصور
- على إبراهيم منوفى
- محمد طارق الشراقى
- عبداللطيف عبدالحميد
- رفعت سلام
- ماجدة محسن أباطة
- بإشراف: محمد الجوهري
- على بدران
- حسن بيومى
- إمام عبد الفتاح إمام
- إمام عبد الفتاح إمام
- إمام عبد الفتاح إمام
- محمود سيد أحمد
- عبادة كحيلة
- فاروجان كازانجيان
- بإشراف: محمد الجوهري
- إمام عبد الفتاح إمام
- محمد أبو العطا
- على يوسف على
- لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروكي
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزي (ج٢)	مولانا جلال الدين الزومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	وليم چيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢)	وليم چيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سي. باترسون	شوقي جلال
٢٧٢-	الآديرة الأثرية في مصر	سي. سي. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الاصول الاجتماعية والثقافية لمصر في مصر	چوان كول	عنان الشهاوي
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكي
٢٧٥-	د. س. إليود شاعر وفاداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمساني
٢٧٧-	الجيئات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزي
٢٧٨-	البدائيات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوي
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	علي عبد الرؤوف البعبي
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوربيديس	أحمد عثمان
٢٨٥-	رحلة خواجه حسن نظامي الدهلوي	حسن نظامي الدهلوي	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المراغي	محمود علوي
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمي	انتوني كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائي	ديفيد لودج	ماهر البطوطي
٢٨٩-	ديوان منوچهری الدامغانی	أبو تجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	چورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ السرح الإسباني في القرن العشرين (ج١)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ السرح الإسباني في القرن العشرين (ج٢)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربي	روچر آلن	مجدي توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل موريز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٢٩٧-	فن التحو بين اليونانية والسريانية	بيوتيسبيوس ثراكس ويوسف الأهوازي	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٢٩٩-	ثورة في التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	السطرة، بروتستانت في الالهيون الإنجليزي والفرنسي (ج١)	لويس عوض	جمال الجزيري ربهاء چامین وإيزابيل كمال
٣٠١-	السطرة، بروتستانت في الالهيون الإنجليزي والفرنسي (ج٢)	لويس عوض	جمال الجزيري و محمد الجندي
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتين	چون هيتون وجودي جروفرز	إمام عبد الفتاح إمام

٢٠٣-	أقدم لك: بوذا	چين هوب ويورن فان لون	إمام عيد الفتح إمام
٢٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عيد الفتح إمام
٢٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٢٠٦-	الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	چان فرانسا ليوتار	نبيل سعد
٢٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد باينزو وهوارد سلينا	محمود مكي
٢٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف چونز ويورن فان لو	ممدوح عيد المنعم
٢٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس چيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٢١٠-	أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٢١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج. كولنجود	فاطمة إسماعيل
٢١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديبيوس	أسعد حليم
٢١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خاير بيان	محمد عبدالله الجعدي
٢١٤-	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	چانيس مينيك	هويدا السباعى
٢١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٢١٦-	محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٢١٧-	بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٢١٨-	الأب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٩-	صور دريدا	چايتري سبيفاك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٢٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٢٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج. ١، ٢)	ليفى برو فنتسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٢٢-	وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو يوجين كليناور	خالد مفلح حمزة
٢٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٢٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٢٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كريستين يوسف
٢٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٢٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (ج١)	نخبة	توفيق على منصور
٢٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عيد الرحمن الجامى	عيد العزيز يقوش
٢٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوت	محمد عيد إبراهيم
٢٣٠-	كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٢٣١-	عندما جاء السريدين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية نياى
٢٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٢٣٣-	الإسلام فى بريطانيا من ١٥٨٥-١٦٨٥	نييل مطر	بكر عباس
٢٣٤-	لقطات من المستقبل	لورثو كلارك	مصطفى إبراهيم قهسى
٢٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى سنارى	فتحي العشرى
٢٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صاير
٢٣٧-	فلسفة الولاء	چوزايا رويس	لحمد الأنصارى
٢٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٢٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (ج٢)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيريرجولو	فخرى لبيب

٢٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	وايتز ماريأ ريلكه	حسن حلمي
٢٤٢-	سلامان وأيسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٢٤٣-	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	ثانين جورديمير	سمير عبد ربه
٢٤٤-	الموت في الشمس (رواية)	بينتر بالانجيرو	سمير عبد ربه
٢٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	پونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧-	الصبية الطانثون (رواية)	چان كوككو	بكر الحلو
٢٤٨-	المتصلة الأولن فى الالب التركى (ج١)	محمد فؤاد كويريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدموند وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١-	مبادئ المنطق	چوزايا رويس	أحمد الانصارى
٢٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣-	الفن الإسلامى فى الأطلن: الزخرفة الهندسية	باسيليو يابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤-	الفن الإسلامى فى الأطلن: الزخرفة النباتية	باسيليو يابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥-	التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٢٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧-	متون هرمس	تيموثى فريك وييتز غاندى	عمر الفاروق عمر
٢٥٨-	أمثال الهوسا العامة	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩-	محاورة بأرمنديس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه چاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربيني
٢٦١-	التصحّر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وأمال شاوور
٢٦٢-	تلميذ بانبريج (رواية)	هاينرش شيبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤-	حادثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥-	سام باريس (شعر)	شارل بودليير	محمد أحمد حمد
٢٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧-	القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البراقى عبدالهادى رضا
٢٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد پرنس	عابد خزندار
٢٦٩-	البرأة فى أنب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠-	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كثير لا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١-	المتصلة الارابن فى الالب التركى (ج٢)	محمد فؤاد كويريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣-	كيف تمد رسالة دكتوراه	أرميرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شنيد	حمادة إبراهيم
٢٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦-	الفنص وأحلام الستين (مسرحيات)	چان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (ج٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

جمال عبدالرحمن	سنبل باث	ملك في الحديقة (رواية)	٣٧٩-
شيرين عبدالسلام	جونتر جراس	حديث عن الخسارة	٣٨٠-
رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	أساسيات اللغة	٣٨١-
أحمد محمد نادي	بهاء الدين محمد اسفنديار	تاريخ طبرستان	٣٨٢-
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	هدية الحجاز (شعر)	٣٨٣-
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	القصص التي يحكيها الأطفال	٣٨٤-
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد علي بهزادراد	مشتري العشق (رواية)	٣٨٥-
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي	٣٨٦-
بهاء جاهين	چون دن	أغنيات وسوناتات (شعر)	٣٨٧-
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازي	مواعظ سعدى الشيرازي (شعر)	٣٨٨-
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	تفاهم وقصص أخرى	٣٨٩-
عثمان مصطفى عثمان	إم. في. روبرتس	الأرشيفات والمدن الكبرى	٣٩٠-
منى الدرويس	مايف بينشى	الحافلة الليلية (رواية)	٣٩١-
عبداللطيف عبدالحميد	فرناندو دي لاجرانجا	مقامات ورسائل أندلسية	٣٩٢-
زينب محمود الخضيرى	ندوة لويس ماسينيون	في قلب الشرق	٣٩٣-
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	القوى الأربع الأساسية في الكون	٣٩٤-
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	آلام سياوش (رواية)	٣٩٥-
محمود علاوى	تقى نجارى راد	السافاك	٣٩٦-
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتى شين	أقدم لك: نيتشه	٣٩٧-
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودى وهوارد ريد	أقدم لك: سارتر	٣٩٨-
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	أقدم لك: كامى	٣٩٩-
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	مومو (رواية)	٤٠٠-
ممدوح عبد المنعم	زياون ساردر وآخرون	أقدم لك: علم الرياضيات	٤٠١-
ممدوح عبد المنعم	ج. بي. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	أقدم لك: ستيفن هوكينج	٤٠٢-
عماد حسن بكر	تودور شتورم وجوتفرد كولر	رية الطر والمليس تصنع التلس (روايتان)	٤٠٣-
ظبية خميس	ديفيد إبرام	تعويذة الحسى	٤٠٤-
حمادة إبراهيم	أندريه جيد	إيزابيل (رواية)	٤٠٥-
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	المستعربون الإسبان في القرن ١٩	٤٠٦-
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	الأدب الإسباني المعاصر بقلم كتابه	٤٠٧-
عنان الشهاوى	چوان فوشوكنج	معجم تاريخ مصر	٤٠٨-
إلهامى عمارة	برتراند راسل	انتصار السعادة	٤٠٩-
الزواوى يفورة	كارل بوير	خلاصة القرن	٤١٠-
أحمد مستجير	چينيفر أكرمان	همس من الماضى	٤١١-
بإشرافه صلاح فضل	ليفى بروفنتسال	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج. ٢، ج. ١)	٤١٢-
محمد البخارى	ناظم حكمت	أغنيات المنفى (شعر)	٤١٣-
أمل الصبان	ياسكال كازانوفا	الجمهورية العالمية للأدب	٤١٤-
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش دورينمات	صورة كوكب (مسرحية)	٤١٥-
محمد مصطفى بدوى	أ. أ. رتشاردز	مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر	٤١٦-

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢) رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سبيلك الزهر الماكدة في مصر العشائية	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميچاس (قصة فلسفية)	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	أشرف كيلاني
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١)	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى
٤٢٦-	الخفافيش وقمصن أخرى	نخبة
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باي إنكلان
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندرجى كروز
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندرجى كليوفسكى
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزودان جفتيك
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافالى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل قلنت
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجوى بورهام
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زويرج
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كويلستون
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربي	شبلو النعماني
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين ببيرس
٤٣٩-	موت المراهبي (رواية)	صدر الدين عيني
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتي روى
٤٤٢-	حتشيسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد
٤٤٣-	الفة العربية: تاريخها ومستوياتها ونشأتها	كيس فرستينج
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لوريت سيجورنه
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز نائل خانلرى
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكيرن وجيفرى سانت كلير
٤٤٧-	ملحة السيد	تراث شعبى إسباني
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الاب عيروط
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبيون ويون فان لون
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال
		سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كويلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تتسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	المويسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكن	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأهر إلى السوريين	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلّة	مايكل بارنتى	حصّة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جتيزيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب ويطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلر	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرين	محمد السيد الننة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سايبيرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سايبيرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرچينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحباب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ التسع من قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهسى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساي ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبييرت ياروس	رشيد بنحنو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحميد عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبابى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسُرُل: الفلسفة علماً دقيقاً	إدموند هُسُرُل	محمود رجب
٤٩٠-	أسرار البيغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأثرى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	چى فارچيت	محمد رفعت عواد

محمد صالح الضالع	هارولد بالمر	٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات
شريف الصيفي	نصوص مصرية قديمة	٤٩٤- كتاب الموتى: الخروج في النهار
حسن عبد ربه المصري	إدوارد تيفان	٤٩٥- اللوبي
مجموعة من المترجمين	إكرانو بانولي	٤٩٦- الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١)
مصطفى رياض	نادية العلي	٤٩٧- العلمانية والتنوع في الشرق الأوسط
أحمد علي بدوي	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	٤٩٨- النساء والتنوع في الشرق الأوسط الحديث
فيصل بن خضراء	مجموعة من المؤلفين	٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والتنوع
طلعت الشايب	تيتز رويكي	٥٠٠- في طفولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية
سحر فراج	آرثر جولد هامر	٥٠١- تاريخ النساء في الغرب (ج١)
هالة كمال	مجموعة من المؤلفين	٥٠٢- أصوات بديلة
محمد نور الدين عبد المنعم	نخبة من الشعراء	٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسي الحديث
إسماعيل المصدق	مارتن هاينجر	٥٠٤- كتابات أساسية (ج١)
إسماعيل المصدق	مارتن هاينجر	٥٠٥- كتابات أساسية (ج٢)
عبد الحميد فهمي الجمال	آن تيلر	٥٠٦- ربما كان قديساً (رواية)
شوقي فهمي	بيتر شيفر	٥٠٧- سيدة الماضي الجميل (مسرحية)
عبد الله أحمد إبراهيم	عبد الباقي جلبنارلي	٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومي
قاسم عيذه قاسم	آدم صبرة	٥٠٩- النثر والإحسان في عصر سلطنة المماليك
عبد الرزاق عيد	كارلو جولفوني	٥١٠- الأرملة الماكرة (مسرحية)
عبد الحميد فهمي الجمال	آن تيلر	٥١١- كوكب مرقع (رواية)
جمال عبد الناصر	تيموثي كوريجان	٥١٢- كتابة النقد السينمائي
مصطفى إبراهيم فهمي	تيد أنتون	٥١٣- العلم الجسور
مصطفى بيومي عبد السلام	جوتثان كولر	٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية
فدوى مالمى دوجلاس	فدوى مالمى دوجلاس	٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحداثة
صبري محمد حسن	أرنولد واشنطن ودونا باوندي	٥١٦- إرادة الإنسان في علاج الإدمان
سمير عبد الحميد إبراهيم	نخبة	٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى
هاشم أحمد محمد	إسحق عظيموف	٥١٨- استكشاف الأرض والكون
أحمد الانتصاري	جوزايا رويس	٥١٩- محاضرات في المثالية الحديثة
أمل الصبان	أحمد يوسف	٥٢٠- الوباء الفرنسي يصر من اللحم إلى المشرع
عبد الوهاب بكر	آوثر جولد سميث	٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة
علي إبراهيم منوفي	أميركو كاسترو	٥٢٢- إسبانيا في تاريخها
علي إبراهيم منوفي	باسيليو بابون مالدوتانو	٥٢٣- الفن الطليطي الإسلامي والمندجن
محمد مصطفى بدوي	رايم شكسبير	٥٢٤- الملك لير (مسرحية)
ناحية رفعت	فليس جونسون	٥٢٥- موسم حيد في بيروت وقصص أخرى
محيي الدين مزيد	ستيفن كروول ووليم رانكين	٥٢٦- أقدم لك: السياسة البيئية
جمال الجزيري	بيلفريد زين ميروقتس وروبرت كرمب	٥٢٧- أقدم لك: كافكا
جمال الجزيري	طارق علي وفيل إيفانز	٥٢٨- أقدم لك: تروتسكي والماركسية
حازم محفوظ	محمد إقبال	٥٢٩- بدائع العلامة إقبال في شعره الأردى
عمر الفاروق عمر	ريشه چينو	٥٣٠- مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية

٥٣١-	ما الذى حثَّ فى مَحَلِّه ١١ سِنَمِير؟	چاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لوبا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكتجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل منتجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكافى
٥٣٨-	النفس والأخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلز	محمد الحيدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كارول تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهالوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الألب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	پاتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥-	يا له من سباق محمود	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وأن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزيرن وويون فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كويلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وييرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعلمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثرياتس	على عبد الرؤوف البمبى
٥٥٣-	مخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للترن الداى والشرين	أناتولى لوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزودران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جيريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلاين وبلاين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاشيتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عُش الغرب (مسرحية)	خاشيتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	دييورا ج. جيرنز	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المقتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصول فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسي	سير روبرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١- تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب في زمن الفراغة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فريد	ريتشارد ايبجنتانس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤- مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥- الاقتصاد السياسي للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثوبانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودي	محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أبومي مينزيكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف النولية (مج ١)	چون فيزى وپول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود نولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزييت مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزیز حمدي
٥٨٨- أمخوتب الثالث	أنيس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجبية	فيلكس دييوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من المرويات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدي عبدالله
٥٩١- الشاعر والفكر	هوراتيرس	على عبدالنواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (ج١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	پول فاليرى	بكر الطور
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارد	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (ج٢)	إكوانو باتولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريففورد	بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهربن	محمود علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	منحت طه
٦٠١- التسوية والمواطنة	ريان ثوت	أيمن بكر الشيشكلى
٦٠٢- ليو تارتاجو فلسفة ما بعد حداثة	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى	أوشر آيزنبرجز	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاوييسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج ١)	پاتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦- قصة البردى البيئانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (ج١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (ج٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجتر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة الملعنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيدولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كوان مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير (رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١١١٧ إلى ١١١٩	أليس بيسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيليبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عائدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوار جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلز داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولا جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	يأشرف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكرويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيث والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يواندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخنثوية	ف. روبرت هنتز	يدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	الكسياد	الأميرة أناكومينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر ويورين فان لون	ممنوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدرايبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د غيرفر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية وسفرها للعنقة	تشارلز كجلى ويوجين وينكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر نبيع	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	چى دى موياسان	سحر يوسف
٦٥٠-	العولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسيبى الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصيان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطفاة (مسرحية)	إيريش كستتر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خيز للشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والمويسكيين	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع لتأسيسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجنور	دامسو سالدنيار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امراة عالية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كرهان وإنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	پول داليز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطوير الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كلين	جمال عبد التاصر وممدوح الجبار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القائمة لطم الاجتماع الغربى	ألغن جولنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولة	فريدريك جيمسون وماسار ميوشى	ليلى الجيالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولنوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إيهتال سالم
٦٧٣-	ضرب الكلم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (ج٢، مع١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (ج٢، مع٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١، مع١)	إيوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١، مع٢)	إيوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	وايام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المدنية الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غريال
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستاتلى فاش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حطر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

صيرى محمد حسن	تى. م. ألوكر	سكين واحد لكل رجل (رواية)	٦٨٣-
رزق أحمد بهنسى	أوراشيو كيروجا	الاعمال القصصية الكاملة (ثنا كندا) (ج١)	٦٨٤-
رزق أحمد بهنسى	أوراشيو كيروجا	الاعمال القصصية الكاملة (الصغراء) (ج٢)	٦٨٥-
سحر توفيق	ماكسين هونج كنجسون	امراة محارية (رواية)	٦٨٦-
ماجدة العناني	فتانة حاج سيد جوادى	محبوبة (رواية)	٦٨٧-
فتح الله الشيخ وأحمد السماحى	فيليب م. نوير وريتشارد أ. موار	الانفجارات الثلاثة العظمى	٦٨٨-
هناء عبد الفتاح	تابوش روجيفيتش	الملف (مسرحية)	٦٨٩-
رمسيس عوض	(مختارات)	محاكم التفتيش فى فرنسا	٦٩٠-
رمسيس عوض	(مختارات)	ألبرت أينشتاين: حياته وغرامياته	٦٩١-
حمدى الجابرى	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	أقدم لك: الوجودية	٦٩٢-
جمال الجزيرى	حانيم برشيت وأخرون	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	٦٩٣-
حمدى الجابرى	جيف كوليز وبيبل مايبلين	أقدم لك: دريدا	٦٩٤-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روينسون وجودى جروف	أقدم لك: رسل	٦٩٥-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روينسون وأوسكار زاريت	أقدم لك: روسو	٦٩٦-
إمام عبدالفتاح إمام	روبرت ودفين وجودى جروف	أقدم لك: أرسطو	٦٩٧-
إمام عبدالفتاح إمام	ليود سينسر وأندرزيچى كروز	أقدم لك: عصر التنوير	٦٩٨-
جمال الجزيرى	إيفان وارد وأوسكار زاريت	أقدم لك: التحليل النفسى	٦٩٩-
بسمة عبدالرحمن	ماريو بارجاس يوسا	الكاتب وواقعه	٧٠٠-
منى البرنس	وليم رود ثيفيان	الذاكرة والحدائق	٧٠١-
عبد العزيز فهمى	جوستينيان	مدينة جوستينيان فى القف الرهبانى (ميراث الترجمة)	٧٠٢-
أمين الشواربى	إبوارد جرانفيل براون	تاريخ الأدب فى إيران (ج٢)	٧٠٣-
محمد علاء الدين منصور وآخرون	مولانا جلال الدين الرومى	فيه ما فيه	٧٠٤-
عبد الحميد مذكور	الإمام الغزالى	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	٧٠٥-
عزت عامر	چونسون ف. يان	الشفرة الروائية وكتاب التحولات	٧٠٦-
وفاء عبدالقادر	هوارد كاليبج وآخرون	أقدم لك: فالتر بنيامين	٧٠٧-
روف عباس	دونالد مالكولم ريد	قراعة من؟	٧٠٨-
عادل نجيب بشرى	ألڤريد أدلر	معنى الحياة	٧٠٩-
دعاء محمد الخطيب	إيان ماتشباى وجوموران - إليس	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	٧١٠-
هناء عبد الفتاح	ميرزا محمد هادى رسوا	درة التاج	٧١١-
سليمان البستانى	هوميروس	الإلياذة (ج١) (ميراث الترجمة)	٧١٢-
سليمان البستانى	هوميروس	الإلياذة (ج٢) (ميراث الترجمة)	٧١٣-
حنا صاره	لامنيه	حديث القلوب (ميراث الترجمة)	٧١٤-
أحمد فتحي زغلول	إدمون ديمولان	سرتقم ابتكيز السكسونيين (ميراث الترجمة)	٧١٥-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٢)	٧١٦-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٣)	٧١٧-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٤)	٧١٨-
جميلة كامل	م. جولدبرج	مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	٧١٩-
على شعبان وأحمد الخطيب	دونام چونسون	مداخل إلى البحث فى تلم اللغة الثانية	٧٢٠-

٧٢١-	فلسفة المتكلمين في الإسلام (مج ١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لييب عبد الفتى
٧٢٢-	الصفحة وتخصص أخرى	يشار كمال	الصفصافي أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفريدي	بول روينسون	عبد الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	المؤرخون في المغرب	غيرمو غوثالبيس يوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وجيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس أليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية في إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	أن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	التنوع: الفكر والأشياء بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وايم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	يونانبر في الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة في العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج ١)	هوارد زن	شعبان مكارى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج ٢)	پاتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	مشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الثورة الملوكة	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٣٩-	مشق من الإمبراطورية الشافعية حتى الوقت الحاضر	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق يهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المثرب السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج ١)	چوزيف أ. شومبيتر	حسن النعمى
٧٤٧-	الاستعارة في لغة السينما	تريغور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كالفيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عثمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج في ثراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عارورى
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنا مارى شيميل	عبد السلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسباني خلال القرن العشرين	أندرو ب. ديبكى	على إبراهيم متوفى
٧٥٦-	ذات العين الساحرة	إتريكى خاردييل بوتشلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	پاتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبد الحميد

- ٧٥٩- النشر الأردني مولوى سيد محمد جلال الحفناوى
- ٧٦٠- الدين والتصور الشعبى للكون السيد الأسود السيد الأسود
- ٧٦١- جيوب مثقلة بالحجارة (رواية) فيرجينيا وولف قاطمة ناعوت
- ٧٦٢- المسلم عبداً و صديقاً ماريا سوليداد عبدالعال صالح
- ٧٦٣- الحياة فى مصر أنريكو بيا نجوى عمر
- ٧٦٤- ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل) غالب الدهلوى حازم محفوظ
- ٧٦٥- ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف) خواجه مير درد الدهلوى حازم محفوظ
- ٧٦٦- الشرق المتخيل تييرى هنتش غازى برو و خليل أحمد خليل
- ٧٦٧- الغرب المتخيل نسيب سمير الحسينى غازى برو
- ٧٦٨- حوار الثقافات محمود فهمى حجازى محمود فهمى حجازى
- ٧٦٩- أدباء أحياء فريدريك هتمان رندا النشار وضياء زاهر
- ٧٧٠- السيدة بيرفيكتا بينيتو بيريث جالدوس صبرى التهامى
- ٧٧١- السيد سيجوننو سوميرا ريكارنو جويرالديس صبرى التهامى
- ٧٧٢- بريخت ما بعد الحدائق إليزابيث رايت محسن مصيلحى
- ٧٧٣- دائرة المعارف الدولية (ج٢) چون فيزر و پول ستيرجز بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
- ٧٧٤- الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمزكزات مجموعة من المؤلفين حسن عبد ربه المصرى
- ٧٧٥- مرآة العروس نذير أحمد الدهلوى جلال الحفناوى
- ٧٧٦- منظومة مصيبت نامه (مج١) فريد الدين العطار محمد محمد يونس
- ٧٧٧- الانفجار الأعظم چيمس إ. ليدسى عزت عامر
- ٧٧٨- صفوة المديح مولانا محمد أحمد ورشا القادري حازم محفوظ
- ٧٧٩- خيوط العنكبوت وقصص أخرى نخبة سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تাকাهاشى
- ٧٨٠- من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٢٠ غلام رسول مهر سمير عبد الحميد إبراهيم
- ٧٨١- الطريق إلى بكين هدى بدران نبيلة بدران
- ٧٨٢- المسرح المسكون مارفن كارلسون جمال عبد المقصود
- ٧٨٣- العولمة والرعاية الإنسانية فيك جورج و پول ويلدنچ طلعت السروجى
- ٧٨٤- الإساءة للطفل ديفيد أ. رولف جمعة سيد يوسف
- ٧٨٥- تأملات عن تطور ذكاء الإنسان كارل ساجان سمير حنا صادق
- ٧٨٦- المذبذبة (رواية) مارجريت أتوود سحر توفيق
- ٧٨٧- العودة من فلسطين جوزيه بوفيه إيناس صادق
- ٧٨٨- سر الامرات ميروسلاف فرنز خالد أبو اليزيد البلتاجى
- ٧٨٩- الانتظار (رواية) هاجين منى البرويى
- ٧٩٠- القرانكوتية العربية مونيك بوتنو جيهان العيسوى
- ٧٩١- الطيور ومعامل الطير فى مصر القبية محمد الشيمى ماهر جويجاتى
- ٧٩٢- دراسات حول القمص المصرية إندريس وسفنة منى ميخائيل منى إبراهيم
- ٧٩٣- ثلاث رؤى للمستقبل چون جريفيس روف وصفى
- ٧٩٤- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج٢) هوارد زن شعبان مكارى
- ٧٩٥- مختارات من الشعر الإسباني (ج١) نخبة على عبد الرؤف البمبى
- ٧٩٦- اتفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن نعوم تشومسكى حمزة المزنى

طلعت شاهين	نخبة	الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	٧٩٧-
سميرة أبو الحسن	كاترين جيلدرود ودافيد جيلدرود	الإرشاد النفسى للأطفال	٧٩٨-
عبد الحميد فهمى الجمال	آن تيلر	سلم السنوات	٧٩٩-
عبد الجواد توفيق	ميشيل ماكارثى	قضايا فى علم اللغة التطبيقى	٨٠٠-
باشراف: محسن يوسف	تقرير دولى	نحو مستقبل أفضل	٨٠١-
شرين محمود الرفاعى	ماريا سوليداد	مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	٨٠٢-
عزة الخميسى	توماس باترسون	التغيير والتنمية فى القرن العشرين	٨٠٣-
درويش الحلوجى	دانيل هيرفيه-ليجيه وجان بول ريلام	سوسيولوجيا الدين	٨٠٤-
طاهر اليربرى	كانز إيشيجودو	من لا عزاء لهم (رواية)	٨٠٥-
محمود ماجد	ماجدة بركة	الطبقة العليا المصرية	٨٠٦-
خيرى نومة	ميريام كوك	يحي حقى: تشريح مفكر مصرى	٨٠٧-
أحمد محمود	ديفيد دابليو ليش	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	٨٠٨-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كرويسى	تاريخ الفلسفة السياسية (ج١)	٨٠٩-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كرويسى	تاريخ الفلسفة السياسية (ج٢)	٨١٠-
حسن النعمى	جوزيف آشومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	٨١١-
فريد الزاهى	ميشيل مافيزولى	نقل العلم: السيرة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	٨١٢-
نورا أمين	أنى إرنو	لم أخرج من ليلى (رواية)	٨١٣-
أمال الروبى	نافثال لويس	الحياة اليومية فى مصر الرومانية	٨١٤-
مصطفى ليلى عبدالغنى	هـ. أ. ولفسون	فلسفة المتكلمين (مج٢)	٨١٥-
بدر الدين عرودكى	فيليب روجيه	العنوا الأمريكى	٨١٦-
محمد لطفى جمعة	أفلاطون	ماندة أفلاطون: كلام فى الحب	٨١٧-
ناصر أحمد وياتسى جمال الدين	أندريه ريمون	العرفين والتجار فى القرن ١٨ (ج١)	٨١٨-
ناصر أحمد وياتسى جمال الدين	أندريه ريمون	العرفين والتجار فى القرن ١٨ (ج٢)	٨١٩-
طانيوس أفندى	رايم شكسبير	هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	٨٢٠-
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبد الرحمن الجامى	هفت بيكر (شعر)	٨٢١-
محمد نور الدين عبد المنعم	نخبة	فن الرباعى (شعر)	٨٢٢-
أحمد شافعى	نخبة	وجه أمريكا الأسود (شعر)	٨٢٣-
ربيع مفتاح	دافيد بورتش	لغة الدراما	٨٢٤-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	مصر النهضة فى إيطاليا (ج١) (ميراث الترجمة)	٨٢٥-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	مصر النهضة فى إيطاليا (ج٢) (ميراث الترجمة)	٨٢٦-
محمد على فرج	دونالد پ كول وثريا تركى	للمطرح الجور والشخصياتين وقتين بنفسين الثلاثة	٨٢٧-
رمسيس شحاتة	ألبرت أينشتين	النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	٨٢٨-
مجدى عبد الحافظ	إرنست ريتان وجمال الدين الأفغانى	مناظرة حول الإسلام والعلم	٨٢٩-
محمد علاء الدين منصور	حسن كريم بور	رق العشق	٨٣٠-
محمد النادى وعطية عاشور	ألبرت أينشتين وألبريولد إنفلد	تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	٨٣١-
حسن النعمى	جوزيف آشومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادى (ج٢)	٨٣٢-
محسن الدمرداش	فرنر شميدرس	الفلسفة الألمانية	٨٣٣-
محمد علاء الدين منصور	ذبيح الله صفا	كنز الشعر	٨٣٤-

٨٣٥-	تشخيؤف: حياة فى صور	پيتر أوربان	علاء عزمى
٨٣٦-	بين الإسلام والغرب	مرثيدس غارثيا	ممدوح البستائى
٨٣٧-	عناكب فى المصيدة	ناناليا فيكو	على فهمى عبدالسلام
٨٣٨-	فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى	نعوم تشومسكى	لبنى صبرى
٨٣٩-	أقدم لك: النظرية النقدية	ستيوارت سين ويورين فان لون	جمال الجزيرى
٨٤٠-	الخوازم الثلاثة	جوتهودا ليسينج	فوزية حسن
٨٤١-	هملت: أمير الدانمارك	وليم شكسبير	محمد مصطفى بنوى
٨٤٢-	منظومة مصيبت تامه (مج٢)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٨٤٣-	من روائع القصيد الفارسي	نخبة	محمد علاء الدين منصور
٨٤٤-	دراسات فى الفقر والعولة	كريمة كريم	سمير كريم
٨٤٥-	غياب السلام	نيكولاس جويات	طلعت الشايب
٨٤٦-	الطبيعة البشرية	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٨٤٧-	الحياة بعد الرأسمالية	مايكل ألبرت	أحمد محمود
٨٤٨-	تاريخ النولة العربية (ميراث الترجمة)	يوليوس فلهاوزن	عبد الهادى أبو ريده
٨٤٩-	سونيتات شكسبير	وليم شكسبير	بدر توفيق
٨٥٠-	الخيال، الأسلوب، الحدائة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٨٥١-	الطب التجريبي (ميراث الترجمة)	كلود برنار	يوسف مراد
٨٥٢-	العلم والحقيقة	ريتشارد دوكنز	مصطفى إبراهيم فهمى
٨٥٣-	السارة فى الأتلس: حارة المدن والمسورن (مج١)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٤-	السارة فى الأتلس: حارة المدن والمسورن (مج٢)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٥-	فهم الاستعارة فى الأدب	جيرارد ستيم	محمد أحمد حمد
٨٥٦-	التقنية الموريسكية من وجهة نظر أخرى	فرانثيسكو ماركيث يانو بيانويا	عائشة سويلم
٨٥٧-	نادجا (رواية)	أندريه بريتون	كامل عويد العامرى
٨٥٨-	جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية	ثيو هرمائز	بيومى قنديل
٨٥٩-	السياسة فى الشرق القديم	إيف شيمل	مصطفى ماهر
٨٦٠-	مصر وأوروبا	فان بملن	عادل صبحى تكلا
٨٦١-	الإسلام والمسلمون فى أمريكا	چين سميث	محمد الخولى
٨٦٢-	بيقاء الكاكادو	أرتور شينيتسلر	محسن النمرdash
٨٦٣-	لقاء بالشعراء	على أكبر دلفى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٤-	أوراق فلسطينية	دورين إنجرامز	عبد الرحيم الرقاعى
٨٦٥-	فكرة الثقافة	تيرى إيجلتون	شوقى جلال
٨٦٦-	رسائل خمس فى الأفاق والأنفس	مجموعة من المؤلفين	محمد علاء الدين منصور
٨٦٧-	المهمة الاستوائية (رواية)	ديفيد مايلو	صبرى محمد حسن
٨٦٨-	الشعر الفارسي المعاصر	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٩-	تطور الثقافة	روين دونبار وآخرون	شوقى جلال
٨٧٠-	عشر مسرحيات (ج١)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧١-	عشر مسرحيات (ج٢)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧٢-	كتاب الطار	لاوتسو	محسن فرجاني

٨٧٣-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥-	النهر الخالد (مج٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات في الموسيقى الشرقية (ج١)	هنري جورج فارمر	أمانى المنياوى
٨٧٧-	أدب الجدل والدفاع في العربية	موريتس شتينثيدر	صلاح محجوب
٨٧٨-	ترحال في صحراء الجزيرة العربية (ج١، مج١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال في صحراء الجزيرة العربية (ج١، مج٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه
٨٨١-	المستنيون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس
٨٨٢-	أغاني شيران (ج١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٣-	أغاني شيران (ج٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٤-	تعلم الأطفال الصغار	باريرا تيزار ومارتن هيوز	محمد رشدى سالم
٨٨٥-	روح الإرهاب	جان بودريار	بدر عويكى
٨٨٦-	الترجمة والإمبراطورية	دوجلاس روبنسون	ثائر ديب
٨٨٧-	غزليات سعدى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨-	أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت
٨٨٩-	سارنورس (ميراث الترجمة)	وليم فوكنر	ميخائيل رومان
٨٩٠-	منتخبات أشعار فراغى	مخدومقلى فراغى	الصفصافى أحمد القطورى
٨٩١-	مفاوضات مع الموتى	مارجريت أتود	عزة مازن
٨٩٢-	تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سوريال عطية	إسحاق عبيد
٨٩٣-	عبادة الإنسان الحر	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٨٩٤-	الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد على
٨٩٥-	وادی الفوضى (رواية)	فريدريش دورينمات	يسرى خميس
٨٩٦-	شعر الضفاف الأخرى	نخبة	زين العابدين فؤاد
٨٩٧-	اختراق الجزيرة العربية	ديفيد جورج هوجارت	صبرى محمد حسن
٨٩٨-	الإسلام والعلم	برويز أمير على	محمود خيال
٨٩٩-	الدبلوماسية الفاعلة	بيتر مارشال	أحمد مختار الجمال
٩٠٠-	تيارات نقدية محدثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٩٠١-	مختارات من شعر لى جاو شينج	لى جاو شينج	عبد العزيز حمدي
٩٠٢-	آلهة مصر القديمة وأساطيرها	روبرت أرنولد	مروة الفقى
٩٠٣-	أفلام ومناهج (مج١)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٤-	أفلام ومناهج (مج٢)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٥-	تراث الهند	ج. ت. جارات	جلال السعيد الحفناوى
٩٠٦-	أسس الحوار فى القرآن	هيريوت بوسه	أحمد هويدى
٩٠٧-	أرثر.. متعة الحياة (رواية)	فرانسواز جيبو	فاطمة خليل
٩٠٨-	الحلقة النقدية	ديفيد كوزنز هوى	خالد حامد
٩٠٩-	الفنون والآداب تحت ضغط العولمة	جويست سمايرز	طلعت الشايب
٩١٠-	بروميثيوس بلا قيود	دافيد س. ليندس	مى رفعت سلطان

غبار النجوم	جون جريبين	عزت عامر
ترجمات يحيى حقى (ج١) (ميراث الترجمة)	روايات مختارة	يحيى حقى
ترجمات يحيى حقى (ج٢) (ميراث الترجمة)	مسرحيات مختارة	يحيى حقى
ترجمات يحيى حقى (ج٣) (ميراث الترجمة)	ديزموند ستيوارت	يحيى حقى
المرأة فى أثينا: الواقع والقانون	روجر چست	منيرة كروان
الجدلية الاجتماعية	أنور عبد الملك	سامية الجندي وعبدالعظيم حماد
موسوعة كمبريدج (ج١)	نخبة	إشراف: أحمد عثمان
موسوعة كمبريدج (ج٢)	نخبة	إشراف: فاطمة موسى
موسوعة كمبريدج (ج٣)	نخبة	إشراف: رضوى عاشور
خليل جبران: حياته وعالمه	چين جبران و خليل جبران	فاطمة قنديل
له الأمر (رواية)	أحمد كروما	ثرثا إقبال
الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى	ميكل دي إبيالثا	جمال عبد الرحمن
ملحمة حرب الاستقلال (شعر)	ناظم حكمت	محمد حرب
حتشسوت: عظمة وسحر وغموض	كريستيان دي روش نويلكور	فاطمة عبد الله
رمسيس الثانى: فروع المعجزات	كريستيان دي روش نويلكور	فاطمة عبد الله
تحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج١، ج٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
تحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج١، ج٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
سجون الضوء	كيتى فرجسون	عزت عامر
نشأة الإنسان (مج١)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
نشأة الإنسان (مج٢)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
نشأة الإنسان (مج٣)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
حدائق السحر فى دقائق الشعر (سيرات الترجمة)	رشيد الدين العمري	إبراهيم الشواربى
اللاعقلانية الشعرية	كارلوس بوسونيو	على منوفى
محنة الكاتب الأفريقى	تشارلز لارسون	طلعت الشايب
تاريخ الفن الألمانى	فولكر جييهارت	علا عادل
بيولوجيا الجحيم	إد ريجيس	أحمد فوزى عبد الحميد
هيا نحكى (قصص أطفال)	أحمد ندالو	عبدالحى سالم
الانثولوجيا السياسية عند مارتن هيدجر	بيير بورديو	سعيد العليمى
سجن العقل	ستيفن چونسون	أحمد مستجير
اليابان الحديثة: قضايا وآراء	مجموعة مقالات	علاء على زين العابدين
الجماليات لم يولد بعد	أى كوينى أرماء	صبرى محمد حسن
القرن الجديد	إريك هويسبوم	وجيه سمعان عبد المسيح

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٢١٦٩ / ٢٠٠٥

